بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله مِن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا.

بين أيدينا كتاب «التَّوْحِيد الَّذِي هُوَ حَقّ الله عَلَى العبيد» للإمام المُجَدِّد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه، وقد درسنا القِسْم الأوَّل منه العام الماضي، وها نحن نجدد اللقاء بالجزء المتبقي في هذا العام، ونسأل الله سبحانه وتعالى الإعانة على إكماله، وإنْ كان هذا الجزء المتبقي أكثر مِن الجزء الماضي ولذا سيكون هناك شيء مِن الاختصار في التعليق على بعض الأبواب والتي بعضها أو بعض المسائل فيها تقدَّم الكلام عليها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال رحمه الله تعالى:

بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

وَقَوْلِ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾[1]، وَقَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[2].

قَالَ عُمَرُ: «الْجِبْتُ السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ»[3].

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ»[4].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[5] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» . قَالُوا يَا

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

(٢) سورة النساء: ٥١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٧٤).

(٤) ذكره البغوي في «شرح السنة» (١٢/ ١٧٩).

(٥) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا، وولي إمرة

رَسُولَ الله ، وَمَا هُنَّ قَالَ «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»(١).

وَعَنْ جُنْدُبٍ(٢) مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ»(٣). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.

وَفِي «صَحِيحِ اَلْبُخَارِيِّ» عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ(٤) قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ اَلْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ اُقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ(٥).

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ(٦) رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَـهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ(٧). وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة ٥٩هـ. (تهذيب الكمال: ٣٤/ ٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (٢٧٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٢) هو: جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي أبو عبد الله العلقي وعلق من بجيلة، وهو الذي يقال له: جندب الخير نزل الكوفة ثم تحول منها إلى البصرة فحديثه عند أهل المصرين جميعا وقد قيل: إنه جندب بن خالد بن سفيان والأول أصح، ومن قال: جندب بن سفيان فقد نسبه إلى جده. (الثقات لابن حبان: ٣/ ٥٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الحدود- باب ما جاء في حد السيف (١٤٦٠)، والدارقطني في «سننه» (٣/ ١١٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٦١/ ١٦٦٥)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٨٠٧٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٦)، وفيه: إسماعيل بن مسلم أبو إسحاق المكي: «ضعيف الحديث» التقريب (٤٨٤).

(٤) هو: بجالة بن عبدة التميمي العنبري، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وكان كاتبًا لجزء بن معاوية في خلافة عمر، ثبت ذلك في الجزية من «صحيح البخاري» وبجالة: بفتح أوله وتخفيف الجيم وأبوه بفتحتين على الصحيح، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٣٣٩).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجزية- باب الجزية والموادعة مع العرب (٣١٥٧)، وأبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء- باب في أخذ الجزية من المجوس (٣٠٤٣) واللفظ له.

(٦) هي: حفصة بنت عمر بن الخطاب صحابية جليلة صالحة، من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولدت بمكة وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما. وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيها، فزوجه إياها. واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن توفيت بها سنة ٤٥. (الطبقات الكبرى: ٨/ ٨١).

(٧) أخرجه مالك في «موطئه»: كتاب العقول- باب ما جاء في الغيلة والسحر (١٦٢٤). بلاغًا، ووصله عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ١٨٠/ ١٨٧٤٧).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

(بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ)

أَوَّلًا: السحر كما عرَّفه أهل العِلْم في اللغة هو: كل ما خفي ولطف سببه، ولذا سُمِّي السَّحَر سَحَرًا؛ لأنه يقع في آخر الليل، وهو أشد أجزاء الليل خفاءً، وكذا حمله بعضهم على قول عائشة[1] رضي الله عنها: «مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي»[2]. قالوا: السَّحْر هو المكان الخفي ما بين البلعوم إلى الرئة ونحو ذلك.

ثانيا: في الاصطلاح. اختلفت عبارات أهل العِلْم في ضابطه، ولهذا قال الإمام محمد الأمين الشنقيطي في كتابه «أضواء البيان»: أنه يصعب أنْ يكون له حَدّ جامع مانع بسبب كثرة أنواع السَّحَر، وكذا قال الرَّازِيّ في كتابه «التفسير الكبير»، ولكنْ عَرَّفَه ابن قُدَامَة وتبعه على ذلك بعض الأئمة ممَّن أتوا بعده خاصَّة أئمة الدعوة، فعَرَّفُوه بما يلي قالوا: السِّحْر عبارة عن عُقَد وأدْوِيَة وتدخينات تؤثر في الأبدان والقلوب فتُمرِض وتَقْتُل وتفرِّق بين المرء وزوجه. ولعلَّ هذا التعريف يتضمن أغلب أنواع السِّحْر.

هل السِّحَر حقيقة أم تخييل؟

ذهب المُعْتَزِلة إلى أنَّ السِّحْر جميعه بأنواعه وصوره ما هو إلّا تخييل وليس له حقيقة، قالوا هو مجرَّد تخييل على البصر. وذهب أهل السُّنَّة إلى أنَّ السِّحْر منه ما هو تخييل، كسِحْر قوم فرعون، ولهذا قال الله عَزَّ وجَلَّ عنهم: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[3]، بمعنى أنها لا تسعى حقيقة وإنما يخيل على أبصار مَن رأى.

والقِسْم الثاني: حقيقة وليس بتخييل، والدليل على ذلك أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ ذَكَر في سورة البقرة أنْ منه ما يفرق

---

(١) هي: عائشة بنت أبي بكر الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين، زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأشهر نسائه، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين، وهي بنت سبع، وابتني بها بالمدينة وهي ابنة تسع، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أري عائشة في المنام في سرقة من حرير فقال: «إن يكن هذا من عند الله يمضه» فتزوجها بعد موت خديجة بثلاث سنين، ولم ينكح صلى الله عليه وسلم بكرًا غيرها، وتوفي عنها صلى الله عليه وسلم وهي بنت ثمان عشرة سنة وكان مكثها معه صلى الله عليه وسلم تسع سنين. قال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل. توفيت سنة ثمان وخمسين، ودفنت بالبقيع. انظر: الاستيعاب (٢/ ١٠٨-١١٠) أسد الغابة (٣/ ٣٨٣-٣٨٥) الإصابة (٨/ ١٦-٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز- باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما (١٣٨٩)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها (٢٤٤٣).

(٣) سورة طه: ٦٦.

بين المرء وزوجه، فلو كان تخييلًا لَـمَا استطاع الساحر أنْ يُبغِّض الرجل للمرأة والمرأة للرجل. والدليل الحِسِيُّ-أيضًا على أنَّ منه ما هو حقيقة أنَّ الساحر يستطيع بقَدَر الله الكوني أنْ يُمْرِض هذا الشخص، وربَّما قتَلَه، وهذا واقع، فأحيانا يُؤْتَى بالمسحور إلى الأطباء وإلى الطب الحديث فيُعرَض على الأشعة وعلى التحاليل وعلى الكشف السريري، فنجد أنَّ جميع أعضائه سليمة مائة في المائة ولكنَّ الرجل مصاب بداء، وربَّما تطور به هذا الداء إلى أنْ يفارق الحياة، والسبب عن طريق الجن والشياطين وهذا ما يدل على أنَّ منه ما هو حقيقة.

يقول المؤلف: باب ما جاء في السِّحْر. أيْ مِن الوعيد، وذلك أنَّ السِّحْر مُنافٍ للتوحيد، وكما سيأتي ووجه إدخال موضوع السِّحْر في باب التوحيد أنَّ الساحر الحقيقي يُكَفَّر مِن جهتين، ويناقض توحيده مِن وجهين:

الوَجْه الأَوَّل: ادعاءه لعِلْم الغيب، أيْ أنه يدَّعي عِلْم الغيب.

الوَجْه الثَّانِي: التقرُّب للجن والشياطين؛ لأنه لا بد أنْ يتقرب للجن والشياطين لأجْل أنْ يخدموه في هذا الأمر. فيتقرب إليهم بالذَّبح، ويتقرب إليهم بالدعاء، ويتقرب إليهم بالاستغاثة وبالاستعانة.

ثُمَّ بدأ المؤلف بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾[1]، أيْ عِلْم أهل الكتاب الذين استبدَّلوا متابعة الرسل بالسِّحْر أنْ مَن سَلَك هذا المَسْلَك فليس له في الآخرة مِن خَلَاق.

قال المفسرون: أنَّ هذا الوعيد لا يصحُّ إلّا على مَن خرج مِن كامل التوحيد. أيْ ليس له في الآخرة أيْ خَلاق -أيْ نصيب- وهذه الآية تضمنت كُفْر الساحر مِن وجوه متعددة، منها قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[2]، فقد عَلَّلَ الكفر أنَّ سليمان ليس بكافر، إنَّما الكفار هؤلاء الشياطين بتعليمهم الناس السِّحْر. وقوله في الآية ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾[3]، وأيضًا مـمَّا استدل به أهل العِلْم قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[4]، فنفى عنه الفلاح في الدنيا والآخرة -نفى عنه مُطْلَق الفلاح- وهذا لا يصحُّ أنْ يوصف إلّا بمَنْ خرج عن دائرة الإسلام.

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

(٢) سورة البقرة: ١٠٢.

(٣) سورة البقرة: ١٠٢.

(٤) سورة طه: ٦٩.

ثُمَّ قال المؤلف: وقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[1]، وفَسَّر عُمَر بن الخَطَّاب رضي الله عنه الجِبْتَ بِالسِّحْر، والطاغوت بالشيطان.

وهذا مِن باب التفسير الشيء ببعض أنواعه، فمِن أنواع الجِبْت السِّحْر، ومِن أنواع الطاغوت الشيطان. وإلّا فقد أخذنا سابقا في القِسْم الأوَّل أنَّ ابْن القَيِّم عَرَّف الطاغوت بأنه: كُل ما عُبِدَ مِن دون الله. وهو مجاوزة الحَدّ في الطغيان وهذا لا يتنافى مع تفسير عُمَر وغير عُمَر رضي الله عنه مِن الصحابة والتابعين؛ لأنهم فسَّروا اللفظ ببعض أنواعه، أو ببعض أفراده.

ومِنْ أهل العِلْم مَن قال: الجِبْت هو السِّحْر والطاغوت هو الساحر، يعني: الجِبْت العمل، والطاغوت العامل.

ثُمَّ قال: وقال جابر: الطواغيت كُهَّان كان ينزل عليهم الشيطان في كُل حَيٍّ واحد.

وسيأتي الكلام على الكُهَّان في باب مُسْتَقِلّ، فقد عَقَد المؤلف رحمه الله للكَهَانة بابًا مستقلا.

ولكنَّ هناك تداخل بين الكُهَّان وبين السَّحَرة وذلك أنَّ القَاسَم المُشْتَرَك بينهما ادَّعاء عِلْم الغيب، والتقرُّب أحيانا للشياطين؛ لأنَّ مِن الكُهَّان مَن يتقرب إلى الشياطين، والذين تكون كهانتهم عن طريق الجن والشياطين، لا تخدمه إلّا بأنْ يتقرب إليهم، ولهذا قال جابر الطواغيت كُهَّان، وهؤلاء جزء مِن السَّحَرة كان ينزل عليهم الشيطان في كُل حَيٍّ واحد. فقد كان العرب قبْل مجيء الإسلام لكُلّ قبيلة ولكُلّ حَيٍّ مِن أحياء العرب كاهن يرجعون إليه في شَتَّى أمورهم. وهذا سيأتي إنْ شاء الله في باب الكهانة.

ثُمَّ قَالَ: (وَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» . قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ، قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ).

الشاهد مِن الحديث: أنه ذَكَر أنَّ السِّحْر مِن الموبقات.

قال عليه الصلاة والسلام: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)، ولَمْ يَقُل اتركوا السبع الموبقات، وهذا أبلغ كما قال شُرَّاح الحديث، أنَّ الاجتناب: أنْ يكون الشيء في جانب وأنت في جانب آخر، بمعنى: لا تقتربوا منها فضلًا أنْ

(١) سورة النساء: ٥١.

تقترفوها.

وبدأ بأسوأها وأعظمها جُرْمًا عند الله عَزَّ وجَلَّ ألا وهو الشِّرْك بالله عَزَّ وجَلَّ، وذكرْنا فيما سبَق أنَّ الشِّرْك: تسوية غير الله بالله فيما هو مِن خصائص الله عَزَّ وجَلَّ، ومِنْ أهل العِلْم مَن عرَّفه بأنه: صرَف نوع مِن أنواع العبادة لغير الله. وهذا نوع مِن أنواع الشِّرْك. وَتَقَدَّمَ الكلام على الشِّرْك وأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ لا يغفر لصاحبه ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾(١)، ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِّ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾(٢)، ثُمَّ ذَكَر السِّحْر وأنه مِن السبع الموبقات. وَتَقَدَّمَ الكلام على تعريف السِّحْر.

ثُمَّ قال: (**وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**)، أيْ النفس المعصومة، سواء كان مسلمًا أو معاهَدًا -ذِمِّيًّا-، أمَّا قتْله بِحَقّ فلا شيء في ذلك كقتْل النفس بالنفس، والزاني المُحصَن، والمُفَارِق لدينه التارك لجماعة المسلمين(٣). لكنْ بالطبع يكون هذا عن طريق وليِّ الأمر.

ثُمَّ قال: (**وَأَكْلُ الرِّبَا**)، والرِّبَا أيضًا له صوَر كثيرة يجمعها نوعان: رِبَا الفضل ورِبا النَّسِيئة. والله عَزَّ وجَلَّ تَوَعَّد الآكلين للرِّبا بالنار وأنهم محاربين لله ولرسوله.

ثُمَّ قال: (**وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ**)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾(٤).

(**وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**)، بمعنى عند التقاء الصفوف في المعركة بين المسلمين وبين الكفار، فمِن الموبقات المهلكات ومِن الكبائر أنْ يَتَوَلَّى الشخص لا لقصد التحيُّز أو الكَرّ والفَرّ، ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾(٥)، فهذا معذور هو فيه، وكونه يتولى بمعنى يهرب مِن المعركة.

(**وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ**)، والمقصود بالمُحْصَنات: العفيفات، ويشمل الثَّيِّب والبِكْر، الغافلات عن الفواحش، المؤمنات، قال أهل العِلْم: يُؤْخَذ مِن هذا أنَّ قذْف الكافرة لا يعتبر كبيرة.

---

(١) سورة النساء: ٤٨، ١١٦.

(٢) سورة المائدة: ٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات- باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (٦٨٧٨)، ومسلم في كتاب القسامة- باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

(٤) سورة النساء: ١٠.

(٥) سورة الأنفال: ١٦.

النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)، بعض أهل العِلْم عَدَّ الكبائر سبعا استدلالًا بهذا الحديث. لكنَّ هذا القول يعتبر مرجوحا ولهذا لَمَّا سُئِل ابن عباس: هل الكبائر سبع؟ قال: إلى السَّبْعِين أقرب.

وأفضل وأضْبَطُ ضابط ضُبِطَتْ به الكبائر ما ذَكَرَه شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَةَ رحمه الله: أنه كُل ذنب جاء الوعيد عليه بخصوصه بلَعْنٍ أو غَضَبٍ أو دخول نار أو عدم دخول الجنَّة أو عدم وجود رِيح الجنَّة ونحو ذلك.

ثُمَّ قال: وعن جُنْدُبٍ مرفوعا: (حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ). اختلف أهل الحديث في رفْعِه ووَقْفِه والصحيح ما ذَكَرَه المؤلف أنه موقوف على جُنْدَب رضي الله عنه.

هنا حَدّ الساحر وهو مَبْنِيٌّ على حُكْم الساحر، وحُكْم الساحر اختلف أهل العِلْم فيه.

فذهب الإمام أبو حَنِيفَةَ والإمام مالك وأحمد في المشهور عنه أنَّ الساحر يُكَفَّر بِسِحْرِه، واستدلوا بالأدلَّة التي ذكرناها.

وذهب الإمام الشافعي رحمه الله إلى أنه لابد مِن الاستفصال والاستفسار. فيقال للساحر: صِفْ لنا سِحْرَك. فإنْ وَصَفَ ما هو كُفْرٌ، كَفَرَ، وإلّا فلا.

وبعد النظر في هذه الأقوال يتبيَّن أنه لا مُنَافَاة بين القولين، وذلك أنَّ الجمهور -الأئمة الثلاثة- حكموا على الساحر الذي يعتبر السِّحْر الحقيقي والذي لا يتأتى إلّا عن طريق الجِنِّ والشياطين، وقالوا هذا يستحيل أنْ يكون إلّا بالكفر بالله عَزَّ وجَلَّ. والإمام الشافعي رحمه الله تعالى وسَّع مفهوم السِّحْر، وذلك أنه أدخل في السِّحْر ما لَمْ يكن عن طريق الجِّن والشياطين ولهذا فربَّما يكون السِّحْر هذا مثلًا باستخدام بعض الأدوية التي تذهب بعقل المسحور، وبهذا الشكل لا يكفر صاحبه.

نأتي هنا إلى حَدّ الساحر، فالأئمة الثلاثة ذهبوا إلى أنَّ حَدّه القتل، والإمام الشافعي قال لابد أنْ يُثْبِت أنَّ سِحْره كان عن طريق الجنِّ والشياطين والتقرب لغير الله، وبذلك يُقْتَل، وما لا فلا.

أيضًا اختلفوا رحمهم الله هل يُسْتَتَاب الساحر أمْ يُقْتَل مِن غير استتابة؟

ذهب الأئمة الثلاثة إلى أنه يُقْتَل مِن غير استتابة، واستدلوا بحديث جُنْدَب هذا أنه لَمْ يَشْتَرِط الاستتابة، وحديث عُمَر الآتي: أنه أمَر أنِ اقتلوا كُل ساحر وساحرة فقتلوا ثلاث سواحر، دون أنْ يطلب منهم أنْ يستتيبوهم. كذلك حَفْصَة رضي الله عنها عندما قتلت الجارية التي سَحَرَتْها لَمْ تستتبها. وذهب الإمام الشافعي

رحمه الله إلى أنه لا بد مِن الاستتابة وذَكَر أنَّ السِّحر ليس بأعظم مِن الشِّرك والمشرك يُسْتَتَاب. لكنْ قال الجمهور: الذين قالوا بعدم الاستتابة قالوا:

أولا: إنَّ شَرَّ الساحر أعظم مِن شَرِّ المشرك. شَرُّ الساحر متعدي وهذا هو الواقع وإفساده في الأرض أكثر وإنْ كان المشرك أعظم ذنبًا، لكنَّ شِرْكه على نفسه بخلاف الساحر.

الأَمْر الثَّانِي: أنهم قالوا: إنه قَلَّما أنْ يتلبث هذا الساحر بالجنِّ والشياطين فيستطيع الانفكاك عنهم.

الأَمْر الثَّالِث: قالوا توبته لنفسه بينه وبين الله عَزَّ وجَلَّ. فقتله قطعا لدابره ولشره.

ثُمَّ ذَكَر ما ثبت في صحيح البخاري أنَّ بجالة بن عَبْدة قال: كتب عُمَر بْن الخَطَّابِ رضي الله عنه: أنِ اقتلوا كُل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وهذا دليل على أنهم لَم يستتبوهم.

وصَحَّ عن حَفْصَة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لهم سحرتها فقُتِلت، وأيضًا صَحَّ عن جُنْدَب بْن عَبْد الله، قال جُنْدَب بْن عَبْد الله رضي الله عنه أيضًا لَمَّا قَتَل الساحر الذي كان بحضرة الوليد. قال أحمد عن ثلاثة مِن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هُمْ عُمَر وحَفْصَة وجُنْدَب، بمعنى أنَّ هؤلاء حكموا بقتل الساحر مِن غير استتابة.

بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ[1]، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ، وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ رَنَّةُ الشَّيْطَانِ[2] إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» الْمُسْنَدُ مِنْهُ[3].

---

(١) هو: الصحابي قبيصة بن المخارق بن عبدالله بن شداد بن معاوية بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة، أبو بشر، العامري، الهلالي، عداده في أهل البصرة، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه. روى عنه: ولده قطن وكنانة بن نعيم وأبو عثمان النهدي وغيرهم. انظر: «أُسْد الغابة» (٤/ ٨٣ ترجمة ٤٢٥٩)، والإصابة (٥/ ٤١٠ ترجمة ٧٠٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٦٠)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده ضعيف».

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الطب- باب في الخط وزجر الطير (٣٩٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣/ ٥٠٢/ ٦١٣١)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود»، وقال: «ضعيف».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ: فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»[2] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ[3]: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ: فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ»[4].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ[5] أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»[6] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَـهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ[7] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[8].

---

(١) هو: عبد الله بن عباس البحر أبو العباس الهاشمي حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي، الهاشمي، المكي، الأمير -رضي الله عنه. مولده: بشعب بني هاشم، قبل عام الهجرة بثلاث سنين. صحب النبي صلى الله عليه وسلم نحوًا من ثلاثين شهرًا، وحدث عنه بجملة صالحة. توفي سنة ثمان وستين، وله إحدى وسبعين سنةً. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٠-٣٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣١١)، وأبو داود في كتاب الطب- باب في النجوم (٣٩٠٥)، وابن ماجه في كتاب الأدب- باب تعلم النجوم (٣٧٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٧٤).

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم- باب الحكم في السحرة (٤٠٧٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف النسائي»، وقال: «ضعيف».

(٥) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي. من أكابرهم، فضلًا وعقلًا، وقربًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. نظر إليه عمر يومًا وقال: وعاء ملئ علمًا. وولي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيت مال الكوفة. ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاما سنة ٣٢هـ. (تهذيب الكمال: ١٦/ ١٢١).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم النميمة (٢٦٠٦).

(٧) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى الصحابي المشهور أمه زينب بنت مظعون الجمحية ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي فيما فيما جزم به الزبير بن بكار قال: هاجر وهو ابن عشر سنين وكذا قال الواقدي حيث قال مات سنة أربع وثمانين روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما. (الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ١٨١).

(٨) أخرجه البخاري في كتاب النكاح- باب الخطبة (٥١٤٦).

انْتَقَل بعد ذلك إلى بيان نوع مِن أنواع السِّحْر. سَبَق في الباب الذي قبْله أنْ ذَكَر حُكْم السِّحر وحَدَّ الساحر، ولكثرة أنواع السِّحر عَقَد له بابًا مستقلا، وكما ذكرتُ لكم أنَّ الإمام محمد الأمين الشِّنْقِيطِي يقول: يَصْعُب أنْ يوضع له حَدّ لكثرة أنواعه ولتجدد صوره ووسائله، ولهذا ذَكَر الرَّازِيّ له أنواعًا كثيرة جدًّا منها ما كان قبْل الإسلام ومنها ما كان بعد الإسلام.

الشاهد أنَّ السَّحَرَة ليس لهم طريق واحد ولا أسلوب واحد، فقد يُسْحِر الساحر عن طريق النَفْث في العُقَد، وقد يُسْحِر عن طريق أنواع مِن التدخينات، وقد يُسْحِر عن طريق تمتمة بكلمات، وقد يكون سِحْره عن طريق خطوط على الأرض، وقد يستخدم مِن الوسائل التي جَدَّتْ وكَثُرَتْ وتنوعت، وما هذه إلّا أساليب ومظاهر يُلَبِّس بها على عامَّة الناس. ولهذا أحيانا -كما سيأتي- يذكر حروفا مقطعة أو أعدادا ليس بينها تَنَاسُب، وهذه الحروف أو هذه الأعداد أو هذه الخطوط عندهم تَرْمُز إلى أسماء جِنّ وشياطين، يستعينون بهم؛ ولهذا لا نستطيع أنْ نقول إنَّ السِّحْر محصور في هذا النوع أو في هذا اللون، بل لا زالت الشياطين تُمْلِي عليهم وكلّما عَرِف الناس لهم وسيلة وطريقة وأسلوبا سلكوا طريقا آخر. فهذه الصور التي ذكرها المؤلف كانت موجودة ولا زالت لكنْ جَدّ بعدها صور كثيرة.

يقول: عن ابن العلاء قال: حَدَّثَنَا قطن بْن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ). أيْ مِن السِّحْرِ.

العِيَافَة: زَجْر الطير، وهذا سيأتي إنْ شاء الله في باب مستقل ألَا وهو باب الطيرة، لكنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذَكَر هنا أنَّ الساحر ممكن أنْ يتَّخِذ الطيرة وسيلة له، وسيلة يتوصل بها إلى الاستعانة بالجن والشياطين ويدَّعي بها عِلْم الغيب، ودعوى عِلْم الغيب نوع مِن السِّحْرِ، وسيأتي أنَّ العِيَافَة أو الطيرة، يتطيرون بالسوانح والبوارح والنواطح ونحوها.

ثُمَّ قال: (**وَالطَّرْقَ**)، الذي هو الضرب بالحَصَى، هذه هي صورة مِن الصور التي يستخدمها السَّحَرة، الآن ربَّما يكون الطَّرْق بأنواع مِن المعازف، بل ربَّما استخدموا بعض الأجهزة الحديثة، كما هي الحال في الكَهَانة، وما هي إلّا للتَّمْوِيه على الجُهَّال، وهي رموز يستعينون بها بالجن والشياطين.

ثُمَّ قال: (**وَالطِّيَرَةَ**)، أيْ التطيُّر؛ لأنه دعوى أو ادِّعاء لعِلْم الغيب، ذَكَر أنَّ الطِّيرة نوع مِن أنواع السِّحْر مِن

الجِبْتِ، والجِبْت كما فسَّره عُمَر رضي الله عنه المقصود به السِّحْر.

يقول: قال عَوْف: العِيَافَة زَجْر الطير، والطرق: الخَطُّ يُخَط بالأرض. مِن تفسير الطَّرْق الضرب بالحَصَى، ومِن تفسير الطَّرْق أيضًا ما فسَّره عَوْف بن مالك أنَّ المقصود به الخَط، ولهذا سُئِل النبي صلى الله عليه وسلم: ومِنَّا أُناس يَخُطُّون –أيْ يَخُطُّون على الرمل– فقال: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ، فَذَاكَ»[1]. قال أهل العِلْم لكن كيف يعرف الإنسان أنَّ خَطَّه وافق خَطَّ هذا النبي؟ ولهذا مِن الوسائل أنَّ هذا الساحر يَخُطُّ على الرمل خطوطا متقاطعة، كُل خَطٍّ يَرْمُز عنده إلى حرف أو إلى اسم مِن أسماء الجن والشياطين. قد يَخُطُّ على ورق، ونادرا ما يَخُطُّ على رمل، خاصة بعد التَجَدُّد الآن، تَجَدُّد هذه الوسائل، قد يَخُطُّ بآلات حديثة. لكنَّ الذي يهمنا أنَّ هذه الخطوط بالنسبة للساحر تَرْمُز إلى أشياء، ولهذا قلنا لكم: إنَّ السِّحْر يعتمد على الخفاء، يعني أشياء لا يُدْرِكها عامَّة الناس فعندما ينظر إلى هذه الخطوط عموم المسلمين يقولون: ليس هناك جن ولا شياطين ولا دُعَاء غير الله عَزَّ وجَلَّ، أنتم تقولون إنَّ الساحر يذبح لغير الله ويدعو غير الله عَزَّ وجَلَّ، يقال له هذه الخطوط، هذه الحروف، هذه الرموز، أحيانا تأتي رموز أعجمية، وأحرف أعجمية، كُل رَمْز يشير إلى اسم مِن أسماء الجن والشياطين.

ثُمَّ قال: (مِنَ الجِبْتِ)، قال الحسن: رَنَّة الشيطان، إسناده جَيِّدٌ. أيْ صوت الشيطان، والمقصود: إيحاء الشيطان لهذا الساحر، فالساحر لا يتأتَّى سِحْره حقيقة إلّا عن طريق الجن والشياطين، فهُم الذين يوحون إلى أوليائهم، وهم الذين يقدِّمون لهم هذه الأعمال، يُمرِضونَ الناس، ويقتلون الناس، ويفرِّقون بين الرجل وبين زوجته عن طريق هؤلاء الجن والشياطين، كذلك يُخْبِرون عن المُغَيَّبات عن طريق هؤلاء الجن والشياطين.

ثُمَّ قال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»[2]. بمعنى أنَّ ممَّا يستخدمه السَّحَرة الاستعانة بالكواكب، خاصَّة مَن كان سِحْره على سِحْر الفلاسفة القُدَامى، الكَلْدَانيين*** ونحوهم، وهو الذي أَلَّف بعض المتأخرين كتابا حوْل هذا الموضوع، وأشار إليه شيخ الإسلام رحمه الله، لكنْ يُرجى إنْ شاء الله أنه تاب مِن هذا الأمر، ذلك أنَّ

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد مواضع الصلاة- باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣١١)، وأبو داود في كتاب الطب- باب في النجوم (٣٩٠٥)، وابن ماجه في كتاب الأدب- باب تعلم النجوم (٣٧٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٧٤).

الكتاب في السِّحرِ ومخاطبة السِّر المكتوم في السِّحْرِ ومخاطبة النجوم. وهذه أيضًا ذكرها الرَّازِيّ في «تفسيره الكبير» أنَّ مِن أنواع السِّحْر الاستعانة بالكواكب، والاستعانة بأجرام السماء، ويُلاحَظ هنا التداخل بين التنجيم وبين السِّحْر؛ لأنَّ التنجيم هو الاعتقاد أنَّ للنجوم تأثير على ما يجري على وجه الأرض.

يقول: (مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ)، بمعنى أنه كلَّما ازداد شُعْبَة أو اقتباسا مِن شُعَب النجوم ازداد سِحْرًا، أو يقال: كلَّما ازداد سِحْرًا ازداد إثمًا وذنبًا.

ثُمَّ قال وللنَّسَائِي مِنْ حديث أبي هُرَيْرَةَ[1] رضي الله عنه: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»[2]. مِن الأنواع والصور التي كان يستخدمها السَّحَرة العُقَد، ولهذا أمَرَنا الله عَزَّ وجَلَّ أنْ نستعيذ مِن شَرِّهم، ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[3]، ولذلك يقولون: إنَّ الساحر يَعْقِد العُقْدَة ثُمَّ يَنْفُث فيها مِن رِيقه، والنَّفْث ليس بالتَفْل وليس بالهواء، إنَّما الهواء الذي معه جزء يسير مِن الرِيق، وذلك كما ذَكَر ابن القَيِّم: أنَّ هذا الساحر يَنْفُث مِن رِيقه، هذا الرِّيق الذي تَلَبَّث بعمل الشياطين، بهذه النفوس الخبيثة، في هذه العُقَد سيحصل التأثير بإذن الله الكَوْنِيّ القَدَر، ولهذا عند حَلِّ السِّحْر عن هذا المسحور لابد مِن حَلِّ هذه العُقَد؛ لأنَّ هذه العُقَد انعقدت على هذه النفوس الشريرة مِن خلال انتقالها بِرِيق هذا الساحر.

يقول: (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ)، أيْ هذه صورة مِن الصور التي يستخدمها الساحر. (وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ)، هذا حُكْم مِن النبي صلى الله عليه وسلم وذَكَرْتُ لكم السبب، أنَّ الساحر يستعين بالجن والشياطين، والجن والشياطين لا يمكن أنْ يخدموه محبة فيه، أو لسواد عيونه، أو لمصلحة دنيوية، يستحيل، فالشياطين ليسوا بحاجة إلى دُنْيَا، ولا يمكن أنْ يقدِّموا لهذا الساحر خدمة إلّا بعد أنْ يتقرب إليهم بأيِّ نوع مِن أنواع العبادة، وأحيانا لا يكتفون بذلك، لا يكتفون أنْ يتقرب إليهم الساحر، بل يطلبون مِن الساحر أنْ يطلب أيضًا مِن الشخص الذي أتى إليه، أتى يطلب منه السِّحْر -وأحيانا حَلّ السِّحْر- أنْ يتقرب لغير الله عَزَّ وجَلَّ أو يكفر بالله عَزَّ وجَلَّ. ولهذا حَكَمَ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هنا بالشرك. (وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ)، وهذا

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم- باب الحكم في السحرة (٤٠٧٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف النسائي»، وقال: «ضعيف».

(٣) سورة الفلق: ٤.

مِن باب أنَّ الجزاء مِن جِنْس العمل، فكَوْن هذا الإنسان تلاعبت به الشياطين، أيْ هذا الساحر، واتَّكَل واعتمد قَلْبُه على هؤلاء الشياطين، وكَلَّه الله عَزَّ وجَلَّ إليهم، لكنَّ مَن تَوَكَّل على الله فهو حَسْبُه كما سيأتي في باب الطِّيرة. ولهذا كلما قَوِيَ تَوَكُّل الإنسان على الله عَزَّ وجَلَّ، واعتماده على الله عَزَّ وجَلَّ، لَمْ يَضُرُّه فِعْل هؤلاء السَّحَرَة. الله سبحانه وتعالى أَخْبَرَنَا أنَّ كَيْد الشيطان كان ضعيفًا، فلا يمكن أنْ يَقْوَى على مُغَالَبَة مَن اعتمد على الله، ومَن استعان بالله عَزَّ وجَلَّ.

ثُمَّ قال وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟) وفي بعض الروايات بالكسر: «عِضَه»، أو عند بعض رُوَاة الحديث. فسَّرَها النبي صلى الله عليه وسلم، (هِيَ النَّمِيمَةُ القَالَةُ بَيْنَ النَّاس). ما وجه إدخال النميمة في باب السِّحْر؟ أنها تجتمع مع السِّحْر في الإفساد والتفريق، بل ذَكَر أهل العِلْم أنَّ ما يفسده النَّمَّام في يوم يفسده الساحر في سنة، لكنْ لا يلزم الالتقاء أو التشابه في بعض الصوَر، أنْ يكون هناك تماثل في الحُكْم، لا يقول قائل أنَّ حُكْم النَّمَّام هو حُكْم الساحر، لا، فالمؤلف ذَكَر هذا الحديث هنا ليُبَيِّن أنَّ النَّمَّام يفسد أو يعمل ما يعمله الساحر بل ربَّما أسوأ مِن الساحر، بالإفساد بين الناس والتفريق بين الزوجين، ولهذا فالنميمة والغِيبَة ذكرها أهل العِلْم مِن كبائر الذنوب، والنبي صلى الله عليه وسلم كما في «صَحِيْح مُسْلِم» مَرَّ بقبرين يُعَذَّبَان فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[1].

ثُمَّ قال: ولهما عن ابن عُمَرَ (أي البُخَارِيّ وَمُسْلِم)، عن ابن عُمَرَ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا)، والمقصود بالبيان الفصاحة وسبب الحديث كما ذَكَر الشُّرَاح: أنَّ رجلَيْنِ مِن المشرق أتيا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَخَطَبَا وكانا على درجة كبيرة مِن الفصاحة والبلاغة، فأُعجب الصحابة رضي الله عنهم بفصاحتهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا)، بمعنى أنَّ مِن البيان ما يُؤَثِّر في النفوس كما يُؤَثِّر السِّحْر. واختلف أهل العِلْم، هل هذا أتى مِن النبي صلى الله عليه وسلم في مَعْرِض الذَّم، أمْ في مَعْرِض المدح، والصحيح أنه إذا كان هذا البيان لإحقاق الحَقّ وإبطال الباطل فلا شك أنه محمود، وصاحبه مُثاب عليه، فيأتي هذا الحديث في مَعْرِض المدح إذا كان لأجْل هذا الغَرَض. أمَّا إنَّ كان البيان بقصد إحقاق الباطل وإبطال

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء- باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله (٢١٨)، ومسلم في كتاب الطهارة- باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء به (٢٩٢).

الحَقّ وأكْل أموال الناس بالباطل فلا شك أنه مذموم.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ -وَقَالَ «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا» -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[4]: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[5].

وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ[6] مِثْلُهُ مَوْقُوفًا[7].

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ[8] مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[9] رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام- باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٣٠).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الطب- باب في الكاهن (٣٩٠٤)، والترمذي في كتاب الطهارة- باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض (١٣٥)، وابن ماجه في كتاب الطهارة- باب النهي عن إتيان الحائض (٦٣٩)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٥٩٩).

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) انظر الحديث السابق.

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٩/ ٢٨٠)، وقال حسين سليم أسد: «رجاله ثقات».

(٨) هو: الصحابي عمران بن حصين بن عبيد بن خلف، أبو نجيد، الخزاعي، القدوة، الإمام، صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم. أسلم هو وأبوه وأبو هريرة سنة سبع. وله عدة أحاديث. وولي قضاء البصرة، وكان عمر بعثه إلى أهل البصرة ليفقههم، فكان الحسن يحلف: ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمران بن الحصين. كان مجاب الدعوة، ولم يشهد الفتنة. توفي بالبصرة سنة اثنتين وخمسين. انظر: الاستيعاب (ص: ٥٢١ ترجمة ١٨٦٨)، وأسد الغابة (٤/ ٢٦٩ ترجمة ٤٠٤٨).

(٩) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٦٢/ ١٥٠٦٥)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٧٧)، وقال: «رواه الطبراني وفيه: إسحاق بن الربيع العطار وثقه أبو حاتم وضعفه عمرو بن علي، وبقية رجاله ثقات».

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1]، دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى...» إِلَى آخِرِهِ[2].

قَالَ الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ»[3].

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ[4] (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ»)[5].

انْتَقَل بعد الكلام على موضوع السِّحْر إلى ما جاء في الكُهَّان ونحوهم، أيضًا ممَّا ينافي أصل التوحيد أو كمال التوحيد إتيان الكُهَّان. والكُهَّان جَمْع كاهن والكاهن الذي يدَّعى عِلْم الغيب سواء في الماضي أو في المستقبل، والكهانة كانت منتشرة عند العرب، وكما أسْلَفْت كان لكُلّ حَيّ مِن أحياء العرب كاهن يرجعون إليه في أمورهم، في حروبهم، في سِلْمِهم، في تجاراتهم، إذا حَزَّ بهم أمْر لابد أنْ يعودوا إلى هؤلاء الكُهَّان، وكان هناك كُهَّان على مستوى جزيرة العرب، مِثْل *** و *** اللذان كانا في اليَمَن، وكان الكُهَّان يستقون عِلْمَهم عن طريق الجن مُسْتَرِقي السمع، لكنْ لَمَّا بُعِثَ النبي صلى الله عليه وسلم حُرِسَتْ السماء، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[6]، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[7]، ولهذا لَمَّا حُرِسَتْ السماء قال الجن

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤/ ٣٠١/ ٤٢٦٢)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٠١)، وقال: «رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه: زمعة بن صالح وهو ضعيف».

(٣) انظر «أضواء البيان» للشنقيطي (١/ ٤٨٤).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٥/ ١٧٣).

(٥) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٩).

(٦) سورة الجن: ٨.

(٧) سورة الجن: ٩.

والشياطين حَدَثَ في الأرض حَدَثَ، شيء جديد.

والكهانة تقدح في التوحيد، في أصله أو في كماله مِن وجهين: كما قلنا تمامًا في السِّحْر:

الوَجْه الأوَّل: دعوى عِلْم الغيب وهذا إشراك مع الله عَزَّ وجَلَّ في أيٍّ أنواع التوحيد؟ الرُّبُوبيَّة، فمِن خصائص الرُّبُوبِيَّة عِلْم الغيب، وهذا الكاهن يدَّعي عِلْم الغيب فهو يزعم أنه يعلم الغيب مع الله عَزَّ وجَلَّ. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي يُوحَى إليه يقول عن نفسه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾[1]، فالنبي صلى الله عليه وسلم وهو النبي لا يعلم الغيب، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾[2]، فهذا خاص بالله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا مَن ادَّعى عِلْم الغيب فقد نصَّب نفسه شريكا مع الله عَزَّ وجَلَّ في رُبُوبِيَّته، هذا وجه مِن الوجوه التي تدل على أنَّ الكهانة تُنَاقِض أصل التوحيد.

الوَجْه الآخر: أنَّ الكاهن الذي تكون كهانته -أيْ دعوى عِلْم الغيب عنده عن طريق الجن والشياطين- فإنه ولابد أنْ يتقرب إليهم بأنواع مِن العبادة، فيخدمونه ويسترقون له السمع ويخبرونه بالأمور الغائبة الآن عن أعْيُنِ الحاضرين.

كيف يعرف الكاهن الأمور المستقبلة وكيف يعرف الأمور الماضية؟ أمَّا الأمور التي حَدَثَتْ ووقعت فأمْرها يسير، فإنه يخبر بها عن طريق رائيه مِن الجن والشياطين -صاحبه- هو الذي ينقل إليه. مثلًا ربَّما يأتي ويخبرك: ماذا عملت بالأمس، وهذا الواقع الآن عندما يذهب بعض الناس إلى هؤلاء الكُهَّان، يقول اسمك كذا واسم والدتك كذا، ودرست في مكان كذا، وتخرجت مِن كذا، ويسرد لك حياتك، كيف عرف ذلك؟ عن طريق الجن والشياطين وهذا أمْره يسير. أمَّا معرفة المستقبل هذا بأحد أمرين:

الأولى: إمَّا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في «صَحِيح البُخَارِيّ» مِن حديث الزُّهْرِيُّ[3]: عن طريق الرائي مِن الجن، يسترقون الكَلِم قبْل أنْ يدركهم الشهاب فيوحون بها إلى هذا الكاهن فيَصْدُق في هذه الحادثة ويَكْذِب

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٢) سورة النمل: ٦٥.

(٣) هو: سليمان بن يسار أبو أيوب الهذلي المديني مولى ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم. أخو عطاء وعبد الملك وعبد الله. كان من فقهاء أهل المدينة وقرائهم مات سنة تسع ومائة، وقيل غير ذلك. قال الحسن بن محمد بن علي: سليمان بن يسار عندنا أفهم من سعيد بن المسيب. (رجال مسلم: ١/ ٢٦٢).

معها مئات الكذبات[1]، فيُصَدِّقه الناس في هذا الكذب بسبب أنه صَدَق مرَّة واحدة، وهذا مِن باب الابتلاء والامتحان مِن الله عَزَّ وجَلَّ.

الوسيلة الأُخْرَى: أنه أحيانا يُخَمِّن ويتوقع فيقع الأمر كما توَقَّع، فيغتر به بعض الناس، يصادف القَدَر. ومِن الوسائل التي يستخدمها أيضًا بعض الكُهَّان الاستدلال بأحوال الشخص وغالبا أنَّ مهنة الكهانة الحقيقية لا ينتحلها إلّا مَن عنده دقة وذكاء وفطنة، ولهذا ربَّما يستدل ببعض الأحوال فيتوقع، فيحصل كما توقع. أحيانا هذا الكاهن -خاصة هؤلاء الذين انتحلوها كحرفة، يعني ليست كهانة حقيقية إنَّما اتخذوها ليأكلوا أموال الناس بها- هؤلاء غالبا يعطون كلمات مجملة عامَّة تَصْدُق على أيِّ حال. كما قيل لَـمَّا جاء بعض الناس لأحد الكُهَّان بابنه وهو مريض قال: الذي أُخَمِّنه في هذا الابن أنه سيرتاح، فالأب فَهِم أنه سيُشْفَى، بعد يومين أو ثلاثة أيام مات الولد، جاء الوالد إلى الكاهن، قال له الكاهن: أنا قلت لك أنه سيرتاح، أيْ سيرتاح مِن هذا المرض، فَهُم يعطون أحيانا هذه الكلمات العامَّة يلبِّسون بها على الناس.

ذَكَر المؤلف رحمه الله أوَّلًا حديث مسلم عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا). الذي في «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» بدون لفظة: (فَصَدَّقَهُ)، الذي في «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[2]. وهذا مِن باب الوعيد، أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ لا يقبل منه صلاة أربعين يومًا، لا يقبل صلاة أربعين يومًا، لكنْ هل يعيد الإنسان هذه الصلاة؟ لا، تبرأ بها ذِمَّته ولا يعيدها لكنَّه مُتَوَعَّد بهذا الوعيد، في هذا الحديث: (فَسَأَلَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)، في حديث أبي داود الذي ذكره المؤلف: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ فَصَدَّقَهُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)، والجمع بين الحديثين، أنَّ مَن أتاه وسأله لمجرَّد السؤال دون أنْ يُصَدِّقه في دعوى عِلْم الغيب فإنَّ الله عَزَّ وجَلَّ تَوَعَّده بألّا يقبل منه صلاة أربعين يومًا، أمَّا مَن أتاه وسأله وصَدَّقه وأنه يمكن أن يعلم الغيب فهذا حكمه: (فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)، ولهذا قال المؤلف: عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب قوله: ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب ثاقب﴾ (٤٧٠١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام- باب تحريم الكهانة (٢٢٣٠).

هل هناك فَرْق بين العَرَّاف والكاهن؟ المؤلف ساق أقوالا لأهل العِلْم منهم قول شيخ الإسلام رحمه الله. ولكنَّ أوسط الأقوال في هذا أنَّ العَرَّاف هو الذي يخبر عن الشيء الذي مَضَى ولهذا يخبر عن الضالة، إنسان فَقَدَ بعيره، أو فَقَدَ مالًا له، فيأتي إلى هذا الكاهن فيخبره بذلك، أمَّا الكاهن فهو الذي يخبر عن المستقبل، وعلى كُل حال كما ذَكَر شيخ الإسلام فيُطْلَق على الكاهن عَرَّافًا، ويُطْلَق على العَرَّاف كاهنًا، ولهذا إذا أُطلقا معا، عُطف الكاهن على العَرَّاف، فقد يراد بالكاهن هو المخبِر عن المستقبل والعَرَّاف عن الشيء الماضي لكنْ إذا ذُكر أحدهما دون الآخر دخل فيه معنى الآخر.

يقول رَوَى الطَّبَرَانِيُّ في «الأوسطِ» بإسناد حَسَن مِنْ حديث ابن عباس دون قوله: (**وَمَنْ أَتَى** ...) إلى آخره.

قال البَغَوِيّ: العَرَّاف الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. بمعنى أنه يخبر عن شيء وقع ويستدل بهذا الأمر على هذا الأمر كما يزعم. يقول: وقيل هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيَّبات في المستقبل وقيل الذي يخبر عمَّا في الضمير، أيْ في ضمير الإنسان، يخبر عن الشيء الذي أخفاه الإنسان، قال أبو العباس ابن تَيْمِيةَ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام صاحب المُصَنَّفات المشهورة: العَرَّاف: اسم للكاهن والمُنَجِّم والرمَّال ونحوهم.

الشيء الذي يجمع هؤلاء جميعًا هو دعوى عِلْم الغيب، يتفقون جميعًا في دعوى عِلْم الغيب، ولهذا شيخ الإسلام يرى أن العَرَّاف أَعَمُّ مِن الكاهن، العَرَّاف يدخل فيه الكاهن والمُنَجِّم والرمَّال.

ثُمَّ قال: وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أباجاد) وينظرون في النجوم: ما أرى مِن فِعْل ذلك له عند الله مِن خلاق.

يكتبون (أباجاد): هذه الحروف كُل حرف عندهم: أبجد هوز حطي ... ، يرمز أحيانا إلى عدد، وهذا لا إشكال فيه واستخدمه أهل العِلْم في الاختصار، أحيانا لأجل ذِكْر تاريخ في نَثْر أو في نَظْم قد يذكرون هذه الحروف التي هي أبجد، وكُلّ حرف يرمز إلى شيء لكنَّ الذين أنكر عليهم ابن عباس -هؤلاء الكُهَّان- أنهم يستخدمون هذه الحروف وترمز إلى معاني أخرى، أحيانا إلى أسماء جن وشياطين، وأحيانا مثلًا يقولون (أ) ترمز إلى الماء والـ(باء) ترمز إلى الحرارة، وهذه ترمز إلى النار، فيأخذون مِن هذه الحروف ويركِّبوها ثُمَّ يستدلون بها على الأمور الغائبة، ولا علاقة أبدًا لهذه الحروف وبما غاب عن أنظار وقلوب بني آدم، وإنَّما يستخدمونها مِن باب

التدليس والتلبيس على الناس، فقط هي وسائل لدعوى عِلْم الغيب، ولهذا الآن يوجد مَن يقرأ في الفنجان، تأتي وتسأله عن أمور غائبة، فيأخذ الفنجان ويقرأ فيه ربَّما يتمتم فيه ثُمَّ يخبرك، هذه وسيلة. يأخذ الكف ويكتب فيه بيده ثُمَّ يقول أنت لك مستقبل كذا، لك كذا، أو فعلت كذا. هذه وسائل. الآن وصل الأمر إلى أنِ استخدمت هذه الآلات والأجهزة الحديثة، أنواع مِن البرامج يتخذونها وسائل لدعوى عِلْم الغيب. وعلى كل حال كُل مَن ادَّعى عِلْم الغيب استخدم (أَبَاجاد)، أو نظر في النجوم، أو قرأ في الكف، أو قرأ في الفنجان، أو خط على الأرض، أو استخدم أي وسيلة مِن الوسائل فهو كاهن. ينطبق عليه حُكْم الكاهن.

بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ[1]: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»[2] رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ[3] قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيِّبِ رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ[4].

---

(١) هو: الصحابي الجليل جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن، الأنصاري، الخزرجي، السلمي، المدني، الفقيه، الإمام، الكبير، المجتهد، الحافظ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان مفتي المدينة في زمانه. شهد ليلة العقبة مع والده، وأطاع أباه يوم أحد، وقعد لأجل أخواته، ثم شهد الخندق وبيعة الشجرة، وقد ورد أنه شهد بدرًا. شاخ، وذهب بصره، وقارب التسعين. توفي بالمدينة سنة أربع وتسعين، وقيل: سنة سبع وتسعين. انظر: الاستيعاب (١/ ١١٤ ترجمة ٢٩٦)، وأسد الغابة (١/ ٤٩٢ ترجمة ٦٤٧).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٢٩٤)، وأبو داود في كتاب الطب- باب في النشرة (٣٨٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٣) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز بن عمرو ابن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سدوس، ويقال: قتادة بن دعامة ابن عكابة بن عزيز بن كريم بن عمرو بن الحارث بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل السدوسي، أبو الخطاب البصري، وكان أكمه. قال عنه الحافظ في التقريب: ثقة ثبت، روى له الجماعة، ولد سنة إحدى وستين، ومات سنة سبع عشرة ومئة. انظر تهذيب الكمال (٢٣/ ٤٩٨/ ترجمة ٤٨٤٨)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩/ ترجمة ١٣٢).

(٤) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب الطب- باب هل يستخرج السحر (فتح الباري: ١٠/ ٢٣٣).

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَحِلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ[1].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ أَحَدُهُمَا حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشَرُ إِلَى الشَّيْطَانِ، بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَالثَّانِي النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ[2].

عندما ذَكَر موضوع السِّحْر ثُمَّ ألحقه بما يجتمع معه مِن الكهانة انتقل بعد ذلك إلى موضوع النُّشْرَة، والنُّشْرَة هي العلاج، سُمِّيَت بهذا الاسم لأنَّ المرض أو السِّحْر الذي خامر هذا المسحور ينتشر عنه، ويبتعد عنه.

حُكْم النُّشْرَة: ذَكَر أوَّلًا حديث أبي داود برواية جابر أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئِل عن النُّشْرَة، والأَلِف هنا واللام في (النشرة) قال أهل العِلْم أنها للعهد، بمعنى كأنهم سألوه عن النُّشْرَةِ التي هو يعرفها وهم يعرفونها أنها عن طريق الساحر، فقال: (**هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**). هذه النُّشْرَة التي سألتم عنها هي مِن عَمَل الشيطان. كما ذَكَر ابن القَيِّم وذلك أنَّ الساحر والمسحور يتقربان إلى الشيطان، فيحل عن هذا المسحور السِّحْر.

يقول: وسُئل أحمد عنها فقال ابن مسعود: يكره هذا كُلّه. اختلف أهل العِلْم في هذه الكراهة. والذي يظهر أنَّ المقصود بالكراهة هنا كراهة التحريم؛ لأنَّ النص فيها واضح وظاهر والنبي صلى الله عليه وسلم نَهَى عنها. وذَكَر أنها مِن عَمَل الشيطان. فقوله هي مِن عَمَل الشيطان بمعنى أنَّ النُّشْرَة التي لا تكون إلّا عن طريق الساحر لا يمكن أنْ تتأتى إلّا عن طريق الشيطان، فهذا حُكْم النبي صلى الله عليه وسلم، لَمْ يَستثني مِنْ ذلك شيئًا. ولو كان هناك صور يمكن أن تحصل النُّشْرَة عن طريق الساحر بغير الشيطان لاستثناها النبي صلى الله عليه وسلم أو لذكر ذلك على جانب التغليب.

ثُمَّ نقل هذا الأثر في «البُخَارِيِّ» مُعَلَّقًا، فالبخاري رحمه الله لَمْ يصل هذا الأثر، ولَمْ يَرْوِه بإسناده؛ لأنه ليس على شرط، وفي هذا تلبيس مِن بعض الناس عندما يذكر حديث ابن المُسَيَّب، يقول هذا في «صَحِيح البُخَارِيّ»، نقول الصواب أنه في «صَحِيح البُخَارِيّ» لكنْ أورده البخاري مُعَلَّقًا. وليس مرفوعا ولا موصولا. قلت لابن المُسَيَّب رجل به طِب، والمقصود الطِّب هنا: السِّحْر، والعرب أحيانا يذكرون الأشياء بأضدادها تفاؤلًا. فالمسحور يقولون

(١) انظر «إعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية (٤/ ٣٩٦).

(٢) انظر «إعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية (٤/ ٣٩٦).

له: مطبوب، هذا حتى في بلاد نَجْد كان موجودا، فأطلقوا على سَنَةِ السخونة سَنَةَ الرحمة، وهذا معهود عند العرب أنهم يذكرون الشيء بضِدِّه مِن باب التفاؤل. رجل به طِب أيْ مطبوب أيْ مسحور، أو يُؤْخَذ عن امرأته، بمعنى أنه لا يستطيع أنْ يأتي أهله وهذا ممَّا يعمله الساحر، ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[1]. يكون الشخص سليما وليس به أيّ إشكال لا عضوي ولا نفسي لكنَّه لا يستطيع أنْ يأتي أهله بسبب هذا السِّحْر الذي وضعه الشيطان. أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به. هذا قول مَن؟ ابن المُسَيَّبِ، إنَّما يريدون به الإصلاح، فأمَّا ما ينفع فلَم يُنهى عنه. انتهى.

هذا الأثر ممَّا استدل به مَن قال بجواز حَلِّ السِّحْر بالسِّحْر. وليس له في هذا الأثر مُتَمَسَّك.

أَوَّلًا: أنَّ الأثر في سنده مقال. ثُمَّ على فَرْض صحته هو رأي لابن المُسَيَّبِ رحمه الله، وعندنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا كُنَّا لَا نُقَدِّم على قول النبي صلى الله عليه وسلم قول كبار الصحابة. فهذا اجتهاد مِن هذا التابعي رضي الله عنه.

الأَمْر الآخِر وَهُوَ المهم: أنَّ كلام ابن المُسَيَّب كلام مفصل واضح، أم مجمل؟ لماذا حملتموه على أنه يريد حَلَّ السِّحْر بِسِحْر؟ واضح. بل المفترض والواجب أنْ نحمل هذا الكلام على عموم النصوص الأخرى، ونقول: إنَّ ابن المُسَيَّبِ رحمه الله يرى ما يراه جمهور أهل العِلْم وبما يتفق مع عموم الأدلَّة أنَّ حَلَّ السِّحْر بِسِحْر مثله لا يجوز. وإنَّما أراد أنه يمكن أنْ يعالج هذا بأنواع الطِّب لكنْ بشرط ألّا يكون بِسِحْر آخر أو بأمر مُحَرَّم.

يقول ورُوِيَ عن الحَسَنِ أنه قال: لا يَحِلُّ السِّحْر إلّا ساحر. لاحظ أنَّ هذا كلام الحَسَن البَصْرِيّ. أيضًا تابعي آخر. لا يَحِلُّ السِّحْر إلّا ساحر. بمعنى أنَّ هذا السِّحْر لا يتأتى حَلُّه عن طريق الساحر إلّا بِسِحْر، وإنْ زعم أنه يَحِلُّه بأمور أخرى فهو كاذب. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[2]، ثُمَّ نأتي ونقول يجوز أنْ يذهب هذا المسحور إلى الساحر ويطلب منه النفع! والله عَزَّ وجَلَّ يقول: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾. يقول الشيخ الشِّنْقِيطِي: هذا نَفْي عام أنه لا يمكن أنْ يُكتب له الفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة. ثُمَّ يُلتمس منه العافية لهذا المسحور؟!

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

(٢) سورة طه: ٦٩.

الأَمْر الرَّابِع فِي الردِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أجازوا حل السحر بسحر مثله: يقال: إنه لو كان جائزا، لو كان حَلّ السِّحْر بِسِحْر مثله جائزا لجاز تَعَلُّم السِّحْر؛ لأجْل أنْ نَحُلَّ به عن هذا المسحور ولَم يقل بهذا أحد مِنْ أهل العِلْم.

الأَمْر الخامس: أنَّ إتيان هؤلاء السَّحَرَة فيه إعانة لهم على باطلهم وعلى جُرْمهم وعلى شِرْكهم وعلى كُفْرهم. والله عَزَّ وجَلَّ يقول: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

أَيْضًا من الوجوه: أنَّ فيه مساعدة على نَشْر شرهم، وذلك أنَّ العامَّة يغترون بواقعهم فيأتي الشخص الذي ليس به حاجة إليهم؛ لأنه رأى هذا ذهب إليه مسحورا فانحل السِّحْر عنه، وشُفي عنه، فيغتر الآخرون به.

الأَمْر الَّذِي يلي هَذَا: أنَّ الساحر غالبا -وهذا مُجَرَّب وواقِع- أنَّ الساحر لا يَحِلُّ السِّحْر عن المسحور إلّا بأنْ يطلب مِن المسحور عملًا أو قولًا، هذا العمل وهذا القول ما هو إلّا كُفْر وشِرْك، يطلب منه أحيانا الاستهانة بكلام الله عَزَّ وجَلَّ، فيعطيه ورقات مِن المصحف مِن كلام الله ويأمره بأنْ يضعه في الحُش، يأمره بالسجود لغير الله عَزَّ وجَلَّ، يأمره بِذَبْح نسيكة -ذبيحة- حتى ولو دجاجة، أو أرنب، ويعطيه أسماء وتمتمات لا يفقه هذا المسكين منها شيئًا وما هي إلّا استعانة بأسماء الجن والشياطين. فأوقعه في الشرك والكفر مِنْ حيث لا يعلم.

الأَمْر الأخير: أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ لَم يجعل شفاء أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم فيما حَرَّمَ عليها.

يقول: وَرُوِيَ عن الحَسَنِ أنه قال: لا يَحِلُّ السِّحْر إلّا ساحر.

قال ابن القَيِّم رحمه الله: النُّشْرَة حَلُّ السِّحْر عن المسحور، وهي نوعان:

الأول: حَلٌّ بِسِحْر مثله، وهو الذي مِن عَمَل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحَسَن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيُبطل عمله عن المسحور.

وكما قلنا لكم أنَّ السِّحْر هو أصلًا عن طريق الجن والشياطين، فإذا تقرب إليه هذا الساحر والمسحور حَلُّوا هذا العمل.

النوع الثَّانِي الَّذِي ذكره ابْن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: النُّشْرَة يعني العلاج بالأدوية المُبَاحَة، بالرُّقْيَة الشرعية، بالتَعَوُّذ، بالدعوات، بالأدوية المُبَاحَة المجرَّبة، فهذا لا مانع.

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

(١) سورة المائدة: ٢.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾[2].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[3] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ»[4] أَخْرَجَاهُ.

زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ»[5].

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ[6]، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ، قَالُوا وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»[7].

وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ[8] قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

---

(١) سورة الأعراف: ١٣١.

(٢) سورة يس: ١٩.

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن (٥٧١٧)، ومسلم في كتاب السلام- باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء (٢٢٢٠).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب السلام- باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء (٢٢٢٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٦) هو: الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة، الأنصاري، الخزرجي، النجاري، المدني، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته من النساء، وتلميذه، وتبعه، وآخر أصحابه موتًا، وروى عنه علمًا جمًّا، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة، دعا له النبي بالبركة، فرأى من ولَده وولَدِ ولَدِه نحوًا من مئة نَفْسٍ. مات سنة إحدى وتسعين. انظر: الاستيعاب (ص٥٣ ترجمة ٤٣)، والإصابة (١/ ١٢٦ ترجمة ٢٧٧).

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب لا عدوى (٥٧٧٦)، ومسلم في كتاب السلام- باب الطيرة والفأل ويكون فيه من الشؤم (٢٢٢٤).

(٨) هو: عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو بن عدي بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة بن عدي بن غنم بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة الجهني. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا. روى عنه جماعة من الصحابة والتابعين. كان قارئًا عالمًا بالفرائض والفقه، فصيح اللسان، شاعرًا، كاتبًا، وهو أحد من جمع القرآن. مات عقبة في خلافة معاوية. انظر: الاستيعاب (ص: ٥٦١ ترجمة ١٨٩٨)، والإصابة (٤/ ٥٢٠ ترجمة ٥٦٠٥).

«أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[1].

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ[2] مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا. وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[3] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ[4].

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو[5]: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ، قَالُوا فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»[6].

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ[7]: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب- باب في الطيرة (٣٩١٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٩٩)، وقال: «ضعيف».

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الطب- باب في الطيرة (٣٩١٠)، والترمذي في كتاب السير- باب ما جاء في الطيرة (١٦١٤)، وابن ماجه في كتاب الطب- باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٣٥٣٨)، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٣٠٣).

(٤) انظر: «علل الكبير» للترمذي (٢/ ١٠٤)، «العلل» للدارقطني (٥/ ٢٤٤).

(٥) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي ابن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب. الإمام، الحبر، العابد، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن صاحبه، أبو محمد.وقيل: أبو عبد الرحمن. وقيل: أبو نصير القرشي، السهمي. وأمه: هي رائطة بنت الحجاج بن منبه السهمية، وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنةً، أو نحوها. وقد أسلم قبل أبيه -فيما بلغنا-. ويقال: كان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله. وله: مناقب، وفضائل، ومقام راسخ في العلم والعمل، حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علمًا جمًا. يبلغ ما أسند: سبع مائة حديث، اتفقا له على سبعة أحاديث، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين. وكتب الكثير بإذن النبي صلى الله عليه وسلم وترخيصه له في الكتابة بعد كراهيته للصحابة أن يكتبوا عنه سوى القرآن، وسوغ ذلك صلى الله عليه وسلم . ثم انعقد الإجماع بعد اختلاف الصحابة - رضي الله عنهم - على الجواز والاستحباب لتقييد العلم بالكتابة. بمصر، ودفن بداره الصغيرة سنة خمس وستين. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٥-٨٩).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٢٠)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حسن».

(٧) هو: الصحابي الجليل الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، القرشي، الهاشمي، ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكبر إخوته، وبه كان يكنى أبوه وأمه واسمها لبابة بنت الحارث الهلالية، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحنينًا وثبت معه يومئذٍ، وشهد معه حجة الوداع، وكان يكنى: أبا العباس، وأبا عبد الله، ويقال: كنيته أبو محمد. ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أردفه في حجة الوداع، وزوجه صلى الله عليه وسلم وأمهر عنه، حضر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وله أحاديث، قيل: قتل يوم أجنادين في خلافة أبي بكر. وقيل: باليرموك. وقيل: قتل يوم اليمامة. وقيل: مات في طاعون عمواس. وقيل: مات بناحية الأردن في خلافة عمر. والأول

ثُمَّ ذَكَرَ رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ**)، أيْ مِن النهي والوعيد، أيْ ما جاء في التَطَيُّر مِن النهي والوعيد.

والتَطَيُّر مِن الطَيْرة، وهي التشاؤم، وسُمِّيَتْ بهذا الاسم؛ لأنَّ العرب كانت تتشاءم وتتفاءل بالطَيْر، فإذا طارت ذات اليمين، يعني طار ما والاه ميامنها سَمُّوا ذلك بالسوانح، ومضوا فيما عزموا عليه، إنْ كانوا عزموا على سَفَر، وطارت هذه الطير وأخذت ذات اليمين، بمعنى الذي والاه ميامنها مَضَوا وتفائلوا، وإذا طارت وأخذت ذات الشمال، ووالاهم مياسرها يسمونها البوارح، تشاءموا ونكصوا عمَّا عزموا عليه. إنْ كان يريد السفر رجع عن سَفَره، وإنْ كان يريد الزواج ترك الزواج، وإنْ كان يريد الحرب ترك الحرب؛ لأنه تشاءم بها.

ثُمَّ استدرج الشيطان بهم فأصبحوا يتشاءمون بأنواع مِن الطيور، كتشاءمهم مثلًا بالغراب، أو بالبومة، أو بألوانها، كما يتشاءمون أيضًا بلون الغراب.

ثُمَّ استجر الشيطان الناس ولا زالوا يتطيرون أحيانا بالألوان، يتطيرون مثلًا بالسواد، يتطيرون أحيانا بالأصوات، أَنْ يعود فقط على صوت الغراب، وحتى بعض الأصوات التي يكرهونها. فالشيطان قذف في قلوبهم الخوف والرعب مِن هذه الذوات ومِن هذه الأصوات، حتى تشاءم الناس بالأعداد وبالألوان، وتشاءم الناس بأمور تافهة. وكُل ذلك مِن تلبيس الشيطان للناس.

لاحِظوا -يرعاكم الله- هؤلاء الغربيين النصارى الذين يزعمون أنهم بلغوا مِن العِلْم مبلغه ووصلوا إلى الحضارة ما وصلوا إليه، ربَّما أنكروا بعض المُسَلَّمات الغيبية التي جاءت بها الأنبياء؛ لأنهم يرون أنها لا تتوافق مع العقل، ومع ذلك لا زالوا يتوارثون هذه العادة، وإنْ شِئْت قُلْ هذا التلبيس الشيطاني مِن أجدادهم مِن أيام الجاهلية. الآن رقم (١٣) غير موجود عندهم. بالنسبة لأرقام البيوت لا يمكن أنْ يقبل أحد منهم أنْ يوضع على بيته رقم (١٣) ويتشاءمون بهذا الرقم. الآن ادخل في أيِّ مبنى عندهم متعدد الأدوار في المِصْعَد لا تجد دور رقم: (١٣) يتشاءمون بهذا العدد، إنما تجد (١٢أ) ثُمَّ (١٢ب) ثُمَّ (١٤)، أين عقولهم؟ إنهم أنكروا اليوم الآخر، وأنكروا الأُلُوهِيَّة بناءً على أنَّ ذلك لا يتوافق مع عقولهم، ومع ذلك يتلاعب بهم الشيطان بهذه الأمور.

وأيضًا يتلاعب الشيطان ببعض المسلمين، بهذه الطِّيرة، والطِّيرة تقدح في التوحيد مِن باب ضَعْف التوكل على

هو المعتمد. انظر: «أُسْد الغابة» (٤/ ٦٦ ترجمة ٤٢٣١)، والإصابة (٥/ ٣٧٥ ترجمة ٧٠٠٧).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٣)، وقال شعيب الأرنؤوط: « إسناده ضعيف».

الله، هذا مِنْ جهة. والجهة الأخرى دعوى عِلْم الغيب، ووجه ذلك: كيف أدخلنا باب الطيرة في دعوى عِلْم الغيب؟ مثلًا: ما علاقة انطفاء هذا المصباح بما سيحصل مستقبلا؟ المصباح انطفأ بسبب وجود (ماس). بعض الناس إذا انطفأ المصباح تشاءم. ما علاقة ذهاب الطير إلى هذه الجهة بانتصارك أو هزيمتك في الحرب؟ ما علاقة هذا الطائر أو صوت هذا الطائر بسعادتك أو تعاستك في زواجك؟ هذه أمور غيبية ولَمْ يُرتب الله عَزَّ وجَلَّ هذا المسبَّب على هذا السبب، إذا قلت إنَّ هذا سبب كوني أو سبب شرعي، فالأعمال سبب لدخول الجَنَّة، والشرك سبب لدخول النار، أو سبب كوني مِثْل الماء سبب للرِيِّ. والنار سبب للإحراق. لكنْ أيّ علاقة بين صوت هذا الطائر، أو لون هذا الطائر، أو مسير هذا الطائر، أو وجود هذا الشخص في هذا الوقت بما سيحدث مستقبلا؟ لا علاقة له. وكُلّ هذا يُسَمَّى طَيْرَة. بمعنى لَمْ تَعُدْ الطَّيْرَة مقصورة فقط على الأمور المرتبطة بالطَّير، فكُلّ ما تشاءم منه الإنسان مِن ذات، أو لون، أو صوت، أو عدد، أو وضع، فيعتبر طَيْرَة. وينطبق عليه حُكْم الطَّيْرَة التي جاء فيها هذا الوعيد.

يقول: قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]، هذه الآية في قوم موسى لَمَّا تطيروا بموسى ومَن معه، فالله عَزَّ وجَلَّ أخبر أنَّ الشُّؤْم ليس مِن موسى ولا مِن المؤمنين الذين مع موسى، إنما الشُّؤْم حصل لكم بسبب أعمالكم -بسبب ذنوبكم- وطائركم حقيقة عند الله عَزَّ وجَلَّ. ولهذا يتبين أنَّ الطِّيرة عادةٌ مأخوذة عن أعداء الرسل، فجميع أعداء الرسل تطيروا بالرسل وتشاءموا بالرسل، ولهذا كُل مَن تَطَيَّر نقول له: إنك تلقفت هذا الأمر وهذا الاعتقاد عن أعداء الرسل. حتى قريش لَمَّا بُعِثَ لهم النبي صلى الله عليه وسلم تَطَيَّروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وتشاءموا به.

ثُمَّ قال: وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾[2]، بمعنى أنَّ الشُّؤْم حصل بسبب أعمالكم وبسبب ذنوبكم وبسبب مخالفتكم لأنبيائكم.

يقول عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ). هذا الحديث في «الصَّحِيحَيْنِ». قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا عَدْوَى)، هل (لَا) هنا للنفي أم

(١) سورة الأعراف: ١٣١.

(٢) سورة يس: ١٩.

للنهي؟ مِنْ أهل العِلْم مَّن قال: إنها للنهي، لكنْ ذَكَر شيخ الإسلام وتبعه على ذلك تلميذه ابن القَـيِّم: أنَّ لا هنا للنفي، والنفي أبلغ مِن النهي، بمعنى أنه ليس ثمَّة هناك عَدْوَى ولا طَيْرَة، والتَّمَسُّك بهذه الأمور تَمَسُّك بأمر لا وجود له. (**لَا عَدْوَى**)، المراد بها الاعتقاد في أنَّ الأمراض تنتقل بنفسها وبذاتها، وهذا ما كان يعتقده أهل الجاهلية، أنَّ الأمراض تنتقل بنفسها، ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لَا عَدْوَى**)، ولَّما جاء الأعرابي وسأل النبي صلى الله عليه وسلم: ما بال الإبل في الرمل كالظِّبا، يأتيها الجمل الأجرب فينتشر هذا المرض فيها؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ**»[1]، ليست الأمراض تنتقل بنفسها إنَّما بتقدير الله عَزَّ وجَلَّ. فنفى النبي صلى الله عليه وسلم هنا انتقال المرض بنفسه أو بعض الأمراض بنفسها.

لكنَّ هناك أحاديث قد يظْهر مِن ظاهرها إثبات العَدْوَى كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**فِرَّ مِنَ المَجْـذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ**»[2]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ**»[3]، فما الجمع بين هذه الأحاديث وهذا الحديث، والأحاديث الأخرى التي بها نَفْي العَدْوَى. قال أهل العِلْم منهم ابن القَيِّم رحمه الله: إنَّ النهي هنا يتناول ما كان موجودا في الجاهلية أنَّ المرض ينتقل بنفسه مِن غير تقدير لله عَزَّ وجَلَّ. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يُبطل هذا الاعتقاد، وأنْ يبيِّن أنَّ السبب والمسبَّب هو مِن الله عَزَّ وجَلَّ، فقد يوجد السبب ولا يوجد المسبب إذا لَمْ يُرِدِ الله عَزَّ وجَلَّ. وأمَّا الأحاديث والنصوص التي فيها إثبات العَدْوَى فإنها مِن باب إثبات السبب والمسبَّب، فالنبي صلى الله عليه وسلم لَّما قال: (**فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ**)، بمعنى أنه جرت العادة على أنَّ هذا المرض جعل الله عَزَّ وجَلَّ مِن خصائصه أنه ينتقل بالمجالسة وبالملامسة وبالمؤاكلة، فأمْر النبي صلى الله عليه وسلم مِن باب فِعْل السبب، كما أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ جعل مِن طبيعة النار الإحراق، فأُمِرَ المسلم ألّا يُلقي نفسه في النار، مثله تمامًا قضية أنه لا يأتي إلى هذا المريض بهذا المرض، لكنْ ينبغي أنْ يقوى اعتماده على الله عَزَّ وجَلَّ، لكنَّ هذا مِن باب فِعْل السبب. أَلَسْنَا نلبس هذه الملابس في شدة البرد نتقي بها البرد، هل يعقل أنَّ إنسانًا يأتي في شدة البرد ويتجرد مِن ملابسه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن (٥٧١٧)، ومسلم في كتاب السلام- باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء... (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤٣)، وقال شعيب الأرنؤوط: «صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب لا هامة (٥٧٧١)، ومسلم في كتاب السلام- باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء... (٢٢٢١).

ويخرج ويقول: إنْ كان الله عَزَّ وجَلَّ أراد لي العافية لَمْ يُصِبْنِي شيء، نقول: لا، افعل السبب، والله عَزَّ وجَلَّ جعل البرد سببا للإصابة، ولهذا أمَرنا أنْ نتقي هذا الأمر وأنْ نفعل الأسباب، لكنْ إذا كان على اعتقاد الجاهلية أنَّ هذه الأمراض تنتقل بنفسها فالنبي صلى الله عليه وسلم أبطل ذلك بقوله وبفعله، لَمَّا جاء المجنون أخذه ووضع يده في الإناء ثُمَّ أكَلَ النبي صلى الله عليه وسلم مكانه وقال: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ثِقَةً بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

ثُمَّ قال: (**وَلَا طِيَرَةَ**)، وهذا هو الشاهد مِن الحديث. النبي صلى الله عليه وسلم نَفَى الطِّيَرَة أيْ لا علاقة لِما يتشاءم الناس به مِن هذه الطيور ومِن غير هذه الطيور.

ثُمَّ قال: (**وَلَا هَامَةَ**)، الهامة: نوع مِن أنواع الطير، يقال أنه لا يطير إلّا في الليل، وقال بعض شُرَّاح الحديث أنَّ الهامة المقصود بها البُومَة، ويعتقد أهل الجاهلية أنَّ المَيِّت إذا مات انتقلت عظامه -أو المقتول إذا قتل- انتقلت عظامه إلى هذا الطائر مِن باب التناسخ فتستمر تطير إلى أنْ يؤخذ بثأره، ولهذا كان عند الجاهلية إذا وقعت هذه البومة أو هذا الطائر الذي يسمونه الهامة الذي لا يطير إلّا في الليل على بيت أحدهم، قالوا: نَعَتِ الهامة إلى صاحب هذا البيت نفسه أو أولاده، ذلك أنهم ربطوا بين ما سيحصل لصاحب هذا البيت وبين وقوع هذا الطائر على بيته، وهذا فيه دعوى لعِلْم الغيب إضافة إلى ضَعْف التوكل على الله، ولا علاقة لهذا الطائر بما سيجري وما جرى.

(**وَلَا صَفَرَ**)، قيل: صفر هذا طائر، وقيل: صَفَر شهر صَفَرَ، وذلك أنَّ العرب كانوا يتشاءمون بهذا الشهر، ولهذا كانوا ينقلون -ينسأون- إليه، بمعنى ينقلون مُحَرَّم إلى صَفَر، فيقاتلون في مُحَرَّم، ويتجنبوه في صَفَر؛ لأنهم يتشاءمون به، وأنه إذا حَصَلَ القتال فيه لحصلت الهزيمة لهم. وقيل: إنهم يتشاءمون بكُلّ عَمَل في هذا الشهر، كما كانوا يتشاءمون بالزواج في شهر شوال.

يقول: زاد «مُسْلِم»: (**وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ**)، النوء المقصود به النجوم أو التنجيم وربط ما يجري على وجه الأرض بحركة هذه النجوم، وسيأتي لها باب مستقل. (**وَلَا غُولَ**)، الغول هذا أيضًا مِن الاعتقادات الجاهلية وهي تصور الشياطين للناس في الفَلَاة وفي الخلاء، فهذه الصور نفاها النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب- باب الطيرة (٣٩٢٥)، والترمذي في كتاب الأطعمة- باب ما جاء في الأكل مع المجذوم (١٨١٧)، وابن ماجه في كتاب الطب- باب الجذام (٣٥٤٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود».

يقول: ولهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ**).

الفأل: مِن التفاؤل وهو مِن باب حُسْن الظن بالله عَزَّ وجَلَّ، وهذا هو الفَرْق بين التشاؤم أو بين الطيرة والتفاؤل. التشاؤم فيه سوء ظن بالله عَزَّ وجَلَّ، أمَّا الفأل ففيه حُسْن ظن بالله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا خَلَق الله عَزَّ وجَلَّ النفوس وجعل مِن طبيعتها أنها تتفاءل وتستبشر ببعض الأمور، وهذا ليس فيه إشكال. والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل، وهذا هو المطلوب، لكنْ لا يكون الفأل هو المُحَرِّك للإنسان، هنا ينتقل إلى الاعتماد على غير الله عَزَّ وجَلَّ، لكنَّ كَوْن الإنسان يستبشر بهذا الأمر ويعجبه هذا الأمر، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يُعْجَب بالأسماء الحَسَنة، خاصَّة مثلًا إذا خرج في غزوة. ولَمَّا جاء سُهَيْل بْن عَمْرٍو وهو الذي كان سيكتب الصُّلْح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ماذا قال؟ قال: «**سَهُلَ أَمْرُكُمْ**»[1]. فالفأل فيه حُسْن ظن بالله عَزَّ وجَلَّ، بخلاف الطِّيَرة والتشاؤم. ولهذا نُهي عن الطيرة والتشاؤم وأُذِن في الفأل؛ لأنه لا يترتب عليه ما يترتب على الطيرة.

ثُمَّ قال: قالوا وما الفأل؟ قال: (**الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**). بمعنى أنْ يسمع الإنسان كلمة طيبة، مثل ما يسمع المريض كلمة: سالِم، لا بأس. ولهذا شُرِّع لزائر المريض أنْ يقول له: «**طَهُورٌ لَا بَأْسَ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[2]، عندما يسمع هذه الكلمات يتفاءل بها، وكُلّ هذا مِن حُسْن الظن بالله عَزَّ وجَلَّ. والنبي صلى الله عليه وسلم جاء في حديثه في «الصَّحِيح»: «**أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[3]، «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ**»[4].

يقول ولأبي داود بسند صحيح عن عُقْبَة بن عامر قال: ذُكِرَت الطِّيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (**أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، وَلاَ تَرُدُّ مُسْلِمًا**). إذًا الفأل نوع مِن الطِّيرة لكنَّ فيها حُسْن ظن بالله عَزَّ وجَلَّ، لكنْ لا يعتمد عليها الإنسان، ولا يبني عليها عملًا، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**وَلاَ تَرُدُّ مُسْلِمًا**)، يعني لا تبني عليها فِعْل، نعم تستبشر بها، تنشرح نفسك لها، تجلب لك المَسَرَّة، لا بأس، لكنْ لا يُبنى عليها عَمَل.

ثُمَّ قال: (**فإذا رَأى أَحَدُكُمْ ما يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لاَ يَأْتِي بِالحَسَناتِ إلاَّ أَنْتَ، وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلاَّ أَنْتَ، وَلاَ**

---

(١) ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩١)، (٤/ ١٠٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧).

حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِكَ). الشيطان بالطبع يستغل مِثْل هذه الأمور، وأحيانا قد يرى الإنسان أمرا فينقدح في قلبه شيء مِن الانقباض مِن الشيطان، فأمَر النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة أنْ يدافع الإنسان هذا الأمر ويقول: (اللَّهُمَّ لاَ يَأْتِي بِالحَسَناتِ إلاَّ أَنْتَ، وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلاَّ أَنْتَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِكَ)؛ لأجْل أنْ يدفع ما ألقاه الشيطان في نفسه، وهذا أمْر طبيعي، فالإنسان ليس في مأمن، والشيطان يتسلط على بني آدم، فقد يضعف الإنسان في موقف. فمثلًا يرى شيئًا يكرهه، أو يسمع شيئًا يكرهه، أو يواجه موقفا يكرهه، فينقدح في ذهنه التشاؤم بمستقبله أو مستقبل هذا العمل الذي هو فيه، فعليه مباشرة أنْ يدافع هذا الأمر بهذا العلاج النبوي.

وكما سيأتي في الأثر الذي بعده، الطيرة حقا التي يُحَاسَب عليها الإنسان ليس ما ينقدح في القلب، إنَّما الذي يترتب عليه عَمَل، (مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ). فعلًا أنت الآن استسلمت لوسوسة الشيطان، وفعلًا قَبِلْتَ واعتقدت أنَّ لهذا الطَّيْر أو لهذا الأمر تأثير في مستقبلك، ولهذا استسلمت له وطاوعته، هذه هي الطيرة، لكن كونه ينقدح في قلبك أو يأتي إليك كعارض، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عُفِيَ لِأُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا حَدَّثَتْ بِهَا أَنْفُسَهَا»[1]، ولَـمَّا جاء الصحابة رضي الله عنهم في شيء أعظم مِن هذا، هذا الآن ينافي كمال التوحيد، كما في «صَحِيْحِ مُسْلِم» جاء الصحابة فقالوا: يا رسول الله، إنَّ أحدنا ليجد في نفسه ما أنْ يَخِر مِن السماء أهون عليه مِن أنْ يتكلم به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَوَجَدْتُمُوهُ؟ ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»[2]، كَوْنكم استعظمتموه، الحمد لله هذا صريح الإيمان، كَوْن الإنسان الآن دافع هذه الطَّيْرة، يعتبر هذا أيضًا مِن الإيمان وإلّا لو كان إيمانه ضعيفًا لاستسلم لِمَا ألقاه الشيطان كما استسلم ضِعَاف الإيمان، وفي الحديث الآخر: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ أَمْرَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ»[3].

يقول: عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: (الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ). والسبب في أنها شِرْك كما قلنا، أنَّ فيها دَعْوَى لعِلْم الغيب، وعِلْم الغيب مِن خصائص الله سبحانه وتعالى.

يقول: «وَمَا منا» -وهذا كلام مُدْرَج عن ابن مسعود- «إِلَّا، وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». أيْ وما مِنَّا مِن أحد

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها (١٣٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب- باب رد الوسوسة (٥١١٢)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

إلّا ويعتريه هذا الأمر. كما قلت إنَّ القلوب ضعيفة والشيطان يستغل هذا، خاصَّة في مِثْل هذه المواقف التي يضعف فيها الإنسان، فربَّما قَذَف في قلبه، لَكِنْ يدفع هذا الأمر بقوَّة التوكل على الله عَزَّ وجَلَّ، وعِظم التوكل على الله عَزَّ وجَلَّ، وصِدْق التوكل على الله عَزَّ وجَلَّ.

يقول: ولأحمد مِن حديث ابن عمرو رضي الله عنه: (مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ). بمعنى مَن ترَك ما عَزَم عليه بسبب هذا الطائر أو بسبب هذا الشيء الذي تشاءم به، فَفِعْلًا وقع في الطيرة، لكن كَوْنه يعتريه هذا الأمر ويدافعه ويمضي فيما عَزَم عليه، هذا إنْ شاء الله لا يُؤَثِّر عليه، لكنْ لِيَحْذَر المسلم أنْ يترك هذا الأمر الذي عَزَم عليه، بسبب هذا الشيء الذي تشاءم به؛ لأنه إنْ وقَع هذا الأمر فقد وقَع في ما ذكر ابن مسعود[1] رضي الله عنه: أنَّ مَن رَدَّته الطِّيرة عن حاجته فقد أشرك.

قالوا: وما كفَّارة ذلك يا رسول الله؟ قال: (أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ). بمعنى أنه مَن حَصَلَ له هذا الأمر وغلب عليه الشيطان في هذه الحالة، فالمخرج مِنْ ذلك والتوبة مِنْ ذلك، أنْ يُجَدِّد إيمانه بهذا اللفظ الذي ذُكر، (**اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**)، بمعنى أنَّ كُل ما سيصيبني وما أصابني إنَّما هو بيدك وحدك لا إله غيرك، لا علاقة لهذه الطيور، ولا علاقة لهؤلاء الأشخاص بذلك.

ثُمَّ ذَكَر حديث ابن عباس: (إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ). كما ذكرت لكم سابقا أنَّ الطِّيرة التي فِعْلًا يُحَاسَب عليها الإنسان أو التي تقدح في كمال توحيده وأحيانا في أصل توحيده هي التي يترتب عليها فِعْل، إمَّا فِعْل ترْك، أو فِعْل أنْ يمضي في هذا الأمر بسبب هذا الطائر.

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» قَالَ قَتَادَةُ[2]: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ: أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. انْتَهَى[3].

---

(١) هكذا قال الشيخ، والصواب: ابن عمرو.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب بدء الخلق- باب في النجوم (فتح الباري: ٦/ ٢٩٦).

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا[1].

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ[2].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى[3] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ»[4] رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

انتقل المؤلف أيضًا إلى مسألة مرتبطة بالمسائل السابقة بالسِّحْر والكهانة والطِّيرة وهي مسألة التنجيم، والتنجيم كما عرَّفها أهل العِلْم: الاستدلال بالأحوال الفَلَكِيَّة على الحوادث الأرضية. الاستدلال بالأحوال الفَلَكِيَّة: أيْ الاستدلال بهذه النجوم، باجتماعها وافتراقها وظهورها وأُفُولها، على ما يجري على وجه الأرض.

وأصل التنجيم مأخوذ مِن شِرْك الصابئة وهؤلاء الذين بُعِثَ فيهم نبينا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتَمُّ التسليم، هؤلاء عبدوا هذه الكواكب، وبنوا لها الهياكل -أيْ المعابد- واعتقدوا أنها هي المُصَرِّفَة لهذا العالَم، وتبعهم على هذا الاعتقاد الفاسد الفلاسفة، ولهذا عظَّموا النجوم، وصرفوا لها أنواعا مِن العبادات، واعتقدوا أنها قديمة بِقِدَم الله عَزَّ وجَلَّ، وأنها ليست بحادث، وانتقل هذا الاعتقاد الفاسد إلى بعض المسلمين لكنْ دون أنْ يعتقدوا أنها تنفع وتضر مع الله عَزَّ وجَلَّ، لكنْ جعلوها سببًا، فهذا أيضًا نوع مِن الشِّرْك، ولهذا نقل الإمام البخاري رحمه الله عن قتادة أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ خَلَق هذه النجوم لثلاث فقط:

الأول: زينة للسماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[5].

الأَمْر الثَّانِي: جعلها رُجُومًا للشياطين: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾[6].

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٢/ ٢٩٦).

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٢/ ٢٩٦)، وقال: «فرخص فيه: النخعي ومجاهد وأحمد».

(٣) هو: عبد الله بن قيس بن سَليم بن حُضَّار بن حرب بن عامر، أبو موسى، الأشعري. قدم مكة فأسلم. استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على بعض اليمن، كزبيد وعدن وأعمالها، واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة، فافتتح الأهواز ثم أصبهان، ثم استعمله عثمان على الكوفة، ثم كان أحد الحكمين بصفين، ثم اعتزل الفريقين. مات سنة أربع وأربعين. انظر: الاستيعاب (١/ ٣٠٠) «أُسْد الغابة» (٢/ ١٦٣) الإصابة (٤/ ٢١١-٢١٣).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٩)، وقال شعيب الأرنؤوط: «هذا إسناد ضعيف لضعف أبي حريز».

(٥) سورة الملك: ٥.

(٦) سورة الملك: ٥.

الأَمْر الثَّالِث: علامات يُهتدى بها: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(١).

«فمن تأول فِيهَا غير ذَلِكَ أخطأ وأضاع نصيبه»، بمعنى مَن اعتقد فيها غير هذه الأمور الثلاث. ولهذا لَمَّا كُسِفَتْ الشمس على عَهْد النبي صلى الله عليه وسلم، ماذا قال الناس على عادة أهل الجاهلية؟ انكسفت لموت إبراهيم، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَا تَنْكَسِفَانِ -أَوْ: لَا تَنْخَسِفَانِ- لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ»(٢)، ليس هناك أيّ علاقة بين ما يجري على وجه الأرض وحركة هذه النجوم وما قَدَّره الله عَزَّ وجَلَّ فيها.

المُنَجِّمون -أهل التنجيم- ربطوا بين هذه الأجرام وبين ما يجري على وجه الأرض، ولهذا زعموا أنه إذا طلع هذا النَّجم فسيولد عظيم، وإذا أفَل هذا النَّجم أو غرب هذا النَّجم فسيموت عظيم، وإذا اجتمعت هذه النُّجوم في هذه الجِهَة فسيحدث كذا، وإذا حَصَلَ لهذه النجوم كذا فسيحصل كذا، فمَن اعتقد أنها تنفع وتضر مع الله عَزَّ وجَلَّ فهذا كُفْرُ الصَّابِئَة الذين بُعِثَ فيهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو اعتقاد الفلاسفة. ومَن اعتقد أنها سببًا فقد ارتكب كبيرة وكما قال قتادة أضاع نصيبه، وارتكب أمْرًا قادحا في كمال توحيده؛ لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ لَمَ يرتب هذا السبب على هذا المسبب، لَمَ يجعل هناك علاقة بين هذه النجوم وبين ما يجري على وجه الأرض، وسيأتي حديث: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»، عندما قال بعض الصحابة مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا وكذا(٣).

يقول: «وتكلف مَا لَا علم لَهُ بِهِ»؛ لأنه ادَّعى عِلْم الغيب، فكونه ربط بين ما يجري على وجه الأرض وحركة هذه النجوم، فهذا فيه تكلُّف لِمَا غاب عنه.

يقول: «وكره قتادة تعلم منازل القمر وَلَمَ يرخص ابْن عُيَيْنَةَ فِيهِ»، بعض أهل العِلْم نَهَى أنْ يتوسع الإنسان في تَعَلُّم ما يُسَمَّى بعِلْم الفَلَك المُتَعَلِّق بالنجوم؛ لأنه يقول التوسع في هذا العِلْم يَجُرُّ إلى الوقوع في المحظور وهو أنَّ الإنسان يعتقد أنَّ لهذه النجوم تأثير فيما يجري على وجه الأرض وذهب الجمهور إلى أنه لا مانع أنْ يتعلم الإنسان

---

(١) سورة النحل: ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب الصلاة في كسوف الشمس (١٠٤٢)، ومسلم في كتاب الكسوف- باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة (٩١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٨٣)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

مِن منازل القمر ومنازل هذه النجوم بقَدْرِ الحاجة، لمعرفة اتجاه القِبْلَة، لمعرفة فصول السنة، لأجْل مثلًا أنْ يعرف أهل الزراعة متى يزرعون هذا النوع ومتى لا يزرعون هذا النوع؛ لأنَّ لكُلّ نوع مِن الأنواع فصل يناسبه.

يقول: «ذكره حَرْب عَنْهُمَا، ورخص في تعلم المنازل أَحْمَد وَإِسْحَاق»، يعني الشيء الذي على قَدْرِ الحاجة.

يقول: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ، وَقَاطِعُ للرَّحِمِ»[1].

هذه مِن أحاديث الوعيد، والحديث عند الحاكم وذَكَر أنه على شرط البخاري ومسلم ووافقه الـذَّهَبِيُّ رحمه الله. فهذا الحديث مِن أحاديث الوعيد التي تُؤْخَذ على ظاهرها، فـذَكر النبـي صـلى الله عليـه وسـلم: (**ثَلَاثَـةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ خَمْرٍ**)، أيْ ليس الشارب، إنما الشارب الذي أدمن واستمر على هذا العمل، وشَرِب الخمر كما لا يخفى عليكم كبيرة مِن الكبائر، لكنْ لا يخرج صاحبها مِن دائرة الإسلام، فقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ**)، حملها بعضهم أنهم لا يدخلونها مِن أوَّل وَهْلَة. وبعضهم قال: لا يدخلون الجنَّة إذا لَمْ يكن معهم حسنات راجحات. وعلى كُل حال هذا كما قلت لكم مِن أحاديث الوعيد، وأحاديث الوعيد تُحْمَل على ظاهرهـا وتُجمَع مع نصوص الوعد. فلا تُؤخذ نصوص الوعيد على حدة كما صنع الخوارج والوعيدية مِن المُعْتَزِلة، أخذوا مِثْل هذا الحديث وقالوا: إنَّ شارب الخمر كافر، خارج عن دائرة الإسلام، فالنبي صلى الله عليه وسلم قـال: (**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ**)، فلا يمكن أنْ يدخل الجنَّة بحال مِن الأحوال، لكنْ لو ضموا هذا الحديث إلى حديث آخـر، وهـو حديث الرجل الذي يُلْقَب حمارًا، أُتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقيم عليه الحَدّ، يقول الرَّاوِي: وكان يُؤْتَى به كثيرا في شُرْبِ الخمر، فقال أحد الصحابة: لعنه الله، ما أكثر ما يُؤْتَى به في ذلـك، فقـال النبـي صـلى الله عليـه وسلم: «**لَا**»، نهاه أنْ يلعنه، مع أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلعـن شـارب الخمـر، «لَعَـنَ اللهُ شَـارِبَ الخَمْرِ»[2]، قال: «لَا، لِأَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»[3]، بمعنى أنه له عَمَل آخر ينفي عنه هذا الحُكْم على وجه الخصـوص، فهذا يدل على أنَّ هذه النصوص لا تُؤْخذ على ظاهرها بإطلاق.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٩)، وقال شعيب الأرنؤوط: «هذا إسناد ضعيف لضعف أبي حريز».

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٥، ٧١)، وأبو داود في كتاب الأشربة- باب العنب يعصر للخمر (٣٦٧٤)، وابن ماجه في كتاب الأشربة- باب لعنت الخمر على عشرة أوجه (٣٣٨٠).

(٣) لم أقف عليه.

ثُمَّ ذَكَر: (وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ)، كما ذَكَر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي في التنجيم أنَّ التنجيم نوع مِن السِّحْرِ[1]، وكوْن التنجيم نوع مِن السِّحْرِ فذَكَر المؤلف هذا الحديث هنا ليبين عِظَمَ هذا الجُرم الذي هو التنجيم.

(وَقَاطِعُ الرَّحِمِ)، والله عَزَّ وجَلَّ قال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[2]، وفي الحديث الصحيح «أَنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ صِلْ مَنْ وَصَلَنِي وَاقْطَعْ مَنْ قَطَعَنِي»[3]. أيضًا قطيعة الرَّحِم كبيرة مِن الكبائر.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[4].

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ[5] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»[6].

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»[7] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ[8] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب- باب في النجود (٣٩٠٥)، مرفوعًا: «من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر».

(٢) سورة محمد: ٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب من وصل وصله الله (٥٩٨٩)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٥).

(٤) سورة الواقعة: ٨٢.

(٥) هو الصحابي: كعب بن عاصم الأشعري، قال ابن أبي أويس: كنيته أبو مالك، ويقال: اسم أبي مالك عمرو أيضًا له صحبة، وقال لي أبو صالح عن معاوية بن صالح عن حاتم بن حريث عن مالك بن أبي مريم الحكمي سمع عبد الرحمن بن غنم سمع أبا مالك الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها»، انظر: التاريخ الكبير: (٧/ ٢٢١).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز- باب التشديد في النياحة (٩٣٤).

(٧) ما قبله.

(٨) هو: الصحابي زيد بن خالد الجهني. مختلف في كنيته؛ فقيل: أبو زرعة، وأبو عبد الرحمن، وأبو طلحة. شهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة

إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»(١).

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ(٢) مَعْنَاهُ، وَفِيهِ قَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءَ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(٣).

بعد هذا ذَكَر مسألة الاستسقاء بالأنواء وهي النجوم، وهي متعلقة بمسألة التنجيم، لكنْ مِن باب عَطْفِ الخاص على العام؛ ولأنَّ أكثر أنواع التنجيم في هذه الأُمَّة في ذاك الزمن مسألة الاستسقاء بالأنواء، إضافة إلى أنه ربَّما خَفِي هذا الأمر على بعض المسلمين أنه مِن التنجيم المُحَرَّم، وقضية رَبْط إنزال المطر بهذه النجوم، وهذا معنى قول المؤلف: باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

يقول: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(٤).

عن أبي مالك الأَشْعَرِيّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ، الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»(٥).

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(٦). بمعنى أنكم تجعلون أنَّ النجوم هي سبب نزول المطر، وهذا مِن باب

يوم الفتح. حديثه في الصحيحين وغيرهما. قال ابن البرقي وغيره: مات سنة ثمان وسبعين بالمدينة، وله خمس وثمانون. وقيل: مات سنة ثمان وستين. وقيل: مات قبل ذلك في خلافة معاوية بالمدينة. انظر: الاستيعاب (ص: ٢٤٩ ترجمة ٨١٥)، والإصابة (٢/ ٦٠٣ ترجمة ٢٨٩٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٨٣)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) سورة الواقعة: ٧٥ - ٨٢.

(٤) سورة الواقعة: ٨٢.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) سورة الواقعة: ٨٢.

الافتراء ومِن باب الكذب ومِن باب جَحْد النعمة ونسبة النعمة إلى غير المُنعم، فالذي أنزل المطر والذي يُصَرِّفُهُ هو الله عَزَّ وجَلَّ وَحْدَهُ، لا علاقة لهذه النجوم بها، ولهذا جاء في تفسير: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1]. أيْ تقولون: مُطِرْنَا بِنَوْء كذا وكذا. وسيأتي الحديث أنه فَسَّر هذه الآية.

ثُمَّ ذَكَر حديث أبي مالك، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ)، وإذا ذَكَر النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ هذا الأمر مِن فِعْل أهل الجاهلية أو مِن أمْر الجاهلية فإنه يأتي في مَعْرِض الذم، بمعنى أنَّ هذا مِن أمور الجاهلية، وجاء الإسلام لإزالة هذه الأمور، جاء الإسلام لنقل المسلمين ممَّا كانوا عليه في الجاهلية وعادات الجاهلية إلى تعاليم الإسلام، فمِنَ الأمور التي كان عليها أهل الجاهلية وبقيت في المسلمين لَمْ يستطيعوا أنْ يتخلصوا منها تمامًا.

ذَكَر النبي صلى الله عليه وسلم: (الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ)، وذَكَر أنهم لا يستطيعون أنْ يتركوها لكنْ ينبغي للمسلم أنْ يجاهد نفسه، (الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ)، والله عَزَّ وجَلَّ قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾[3]. وأبو ذَرّ لـمَّا عَيَّر ابن مسعود وقال له: يا ابن السَّوْدَاء، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[4]. (الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ)، بمعنى التفاخر بالقبائل. بعد الإسلام لا فَخْرَ إلّا بالإسلام. هذه القبائل وهذه الأنساب يتعلم منها الإنسان ويعرف منها ما يصل بها رحمه فقط، أمَّا قضية أنْ تكون مجالا للفخر والتعالي بها فهذا مِن أمْر الجاهلية وليس مِن الإسلام، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا قيل له: إنَّ عقيل باع شرف قريش، عندما باع دار الندوة، قال: «لَيْسَ لِقُرَيْشٍ بَعْدَ الإِسْلَامِ شَرَفٌ إِلَّا الإِسْلَامُ»[5]، انتهى شرفها بحسبها وبيوتها وما يعتزون به، الشرف الحقيقي هو الإسلام.

(وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ)، بمعنى التَّنَقُّص مِن الآخرين، فلان ذو نَسَب كذا وفلان ذو نَسَب كذا، فهذا أيضًا مِن

---

(١) سورة الواقعة: ٨٢.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٣) سورة سبأ: ٣٧.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب ما ينهى عن السباب واللعن (٦٠٥٠)، ومسلم في كتاب الأيمان- باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس (١٦٦١).

(٥) لم أقف عليه.

أمْر الجاهلية التي نَهَى الإسلام عنها. ولهذا يقول شيخ الإسلام: الطعن في الأنساب مِن عَمَل الجاهلية المذموم. والمسلم قد يكون فيه شيء مِن هذه الخصال المُسَمَّى بجاهلية ويهودية ونصرانية، لكنْ لا يوجب ذلك كُفْره.

ثُمَّ قال: (**وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ**)، وهذا هو الشاهد مِن إيراد الحديث على هذا الباب، أيْ نِسْبَة السُّقْيَا ومجيء المطر ونزول المطر إلى هذه النجوم، فهذا أيضًا مِن أمور الجاهلية أنهم يربطون نزول الأمطار وحصول الخير بهذه النجوم.

«**وَالنِّيَاحَةُ**»، وهي رفْع الصوت والنحيب على الميِّت، لِمَا في ذلك مِن التَّجَزُّع والتَّسَخُّط والاعتراض على قَدَر الله عَزَّ وجَلَّ. البكاء لا يُمنع منه المسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم دمعت عينه، وقال: «**إِنَّ العَيْنَ لَتَدْمَعُ، وَإِنَّ القَلْبَ لَيَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبُّ**»[1]، لكنْ لا يتجاوز المسلم مِن الدمع ومِن البكاء إلى التسخط. ومِن الأعمال التي تدل على التسخط وعدم الرضا بما قضاه الله عَزَّ وجَلَّ وقَدَّرَه: النياحة، مَن شَقَّ الجيوب، ورفع الصوت بالبكاء والنَّدْب (وافلاناه، وافلاناه) فهذه مِن النياحة التي نَهَى عنها النبي صلى الله عليه وسلم وذَكَر أنها مِن أمور الجاهلية.

وقال: (**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ**)، أيْ تُبْعَث مِن قبرها، (**وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ**). السِّرْبَال: الثياب أو القميص. القَطِرَان: قيل المقصود منه الرَّصاص، وقيل نوع يُسَمَّى الآن (القار)، وكان موجودا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو نوع مِن المعادن ممَّا تخرجه الأرض.

(**وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**)، والجَرَب هو المرض المعروف الذي يصيب صاحبه بالحِكَّة، فالنبي صلى الله عليه وسلم تَوَعَّد هذه النائحة أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ سيبدلها بثوبيها -بهذين الثوبين- (**سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**). رواه مسلم.

ثُمَّ ذَكَر أيضًا في «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حديث زيد بن خالد الجُهَنِي قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح -أيْ صلاة الفجر- بالحُدَيْبِيَة، سنة ستّ مِنَ الهجرة عام الحُدَيْبِيَة، وهُمْ في المنطقة التي يقال لها الآن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم إنا بك يا إبراهيم لمحزونون (١٣٠٣)، ومسلم في كتاب الفضائل- باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال (٢٣١٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «إِنَّ العَيْنَ لَتَدْمَعَ، وَإِنَّ القَلْبَ لِيَحْزَنَ، وَإِنَّا لِفُرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ، لَمَحْزُونُونَ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبُّنَا».

(شبيك) قرية مِن مكَّة، على إثْر سماء كانت مِن ليل، السماء المقصود بها المطر، على إثْر مطر أيْ مُطروا في الليل وهم نائمون، فلمَّا انصرف أقبل على الناس، أيْ التفت إليهم كعادته عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أنه غيَّر مكانه ووقف يتكلَّم فيهم. قال: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟)، هذا الأسلوب يستخدمه النبي صلى الله عليه وسلم وهو مِن باب لَفْت الانتباه، ومِن باب أنَّ الأمر مُهِمّ فانتبهوا إليه. أنت عندما تسأل الشخص الذي تتحدث إليه عن أمْر ستخبره أنت به تريد أنْ ينتبه إليك، فالنبي صلى الله عليه وسلم أراد أنْ يشد الانتباه إليه، فقال: (**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**) البارحة، قالوا: الله ورسوله أعلم، وهذا مِن أدب الصحابة رضي الله عنهم. الشيء الذي لا يعلمونه مباشرة: الله ورسوله أعلم. الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لـمُعَاذ[1]: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟»، قال: الله ورسوله أعلم[2].

قال: (**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ**). أصبح هؤلاء الذين مُطروا في الليل منهم مؤمن ومنهم كافر، (**فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ**)، الذي نَسَب الفضل لأهله حقيقة هو المؤمن، فالله عَزَّ وجَلَّ هو الذي خَلَق المطر، وهو الذي يُسَيِّرُ الرياح بهذا المطر، وهو الذي يُنْزِلُهُ حيث شاء، لا علاقة لهذه النجوم والكواكب بذلك، (**فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي**) حقا، «**كَافِرٌ بِالكَوَاكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوَاكِبِ**»[3]. قال أهل العِلْم: فإنْ اعتقد أنَّ هذه الكواكب لها تأثير مع الله عَزَّ وجَلَّ في نزول المطر فهذا شِرْك أكبر؛ لأنه اعتقد أنَّ هناك نافعا مع الله عَزَّ وجَلَّ، وإنْ اعتقد أنها سبب مِن الأسباب فهذا شِرْك أصغر لا يُخرج صاحبه مِن المِلَّة.

---

(١) هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي ثم الجشمي. أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود. توفي في طاعون عَمَوَاس سنة ثماني عشرة. انظر: الاستيعاب (ص: ٦٥٠ ترجمة ٢٢٧٠)، وأسد الغابة (٥/ ١٨٧ ترجمة ٤٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد- باب اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٨٣)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

يقول: ولهما مِنْ حديث ابن عباس في معناه، وفيه قال بعضهم: لقد صَدَق نَوْء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، إلى قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾[1]. بمعنى أنَّ هؤلاء اعتقدوا وربَّما جرى على ألسنتهم كما توارثوه عن الجاهلية أنَّ هذا المطر بسبب وجود هذا النَّوْء، وأنَّ النَّوْء هو الذي أثر في نزول المطر، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ هذا الوعيد الشديد، وأنكم تجعلون هذا الرزق الذي هو المطر تنسبونه لغير الله عَزَّ وجَلَّ، وهذا كذب، وفيه وعيد شديد. لكن ينبغي أنْ يُعْلَمَ أنَّ الإنسان إذا قال: مُطِرْنا في نَوْء كذا وكذا، فإنْ كان يعتقد أنَّ النَّوْء سبب أو أنَّ النَّوْء أثَر في نُزُول المطر فلا شك أنَّ هذا غير مشروع. الخلاف على حَسَب اعتقاد صاحبه، ومَن قال: مُطِرْنا في نَوْء كذا وكذا ويقصد الوقت، ولا أثر لهذا النَّوْء، وإنَّما مُطِرْنا كما يقال: في ***، مُطِرْنا في الخريف، كزمن ووقت، فهذا لا إشكال فيه؛ لأنَّ العِلَّة منتفية. والعِلَّة أنْ يكون للنَّجم تأثير في نزول المطر، وهذا غير موجود. لكنْ إذا كان إطلاق مِثْل هذا اللفظ قد يفهم منه السامع أنَّ للنَّجم تأثير في ذلك، فينبغي تركه مِن باب دَرْء المفسدة، ومِن باب سَدّ الذَّرَائِع، وحماية جَنَاب التوحيد. هذا الجاهل ربَّما عندما يسمع منك هذا الكلام: مُطِرْنا في النَّجم الفولاني، يعتقد أنَّ للنَّجم تأثير.

ومِن التنجيم المُحَرَّم -معاشر الإخوة- ما هو موجود الآن، أو ما يُسَمَّى بـ(علم الأبراج) هذا وللأسف صار له مدارس ومفكرين، وربَّما تَبَنَّى ذلك مؤسسات وهيئات، وربَّما يكون لهم مقاصد مِن وراء ذلك، وأنتم تلاحظون أنَّ هذا منتشر الآن في بعض القنوات وهناك مواقع في الشبكة العنكبوتية تُعْنَى بهذا الأمر. وهذا مِن التنجيم المُحَرَّم، ما يُسَمَّى بـ(حظك) أو (برجك) وُلِدْتُ في هذا البُرْج، أو هذا البُرْج تَحْسُن التجارة فيه، أو يَحْسُن تَجَنُّب السَّفَر فيه، كُلّ هذا مِن التنجيم المُحَرَّم، لكنْ قد يرتفع إلى أنْ يكون منافيًا لأصل التوحيد، وقد يكون منافيًا لكمال التوحيد.

أيضًا يا إخواني ممَّا له ارتباط وهو منتشر بين الناس، وإنْ كانت كلمة وللأسف جَرَتْ على ألسنتهم وكثير إنْ شاء الله منهم لا يعتقدون معناها، لكنَّها متضمنة لمعنى الباب، ألَا وهي: حُسْن الطالع وشُؤْم الطالع، تكثر في الألعاب الرياضية، لماذا هُزِمْتم؟ لسوء الطالع، انتصرنا لحُسْن الطالع، نراه في وسائل الإعلام، وفي المقابلات، ومع أبناء الموحدين، وربَّما في بعض الأحداث، لسوء الطالع حصل كذا، لحُسْن الطالع حصل كذا، ما هو حُسْن

(١) سورة الواقعة: ٧٥ - ٨٢.

الطالع وسوء الطالع، هل تدرون ما هو حُسْن الطالع وسوء الطالع؟ النجوم، وهو رَبْطُ هذه الأحداث بهذه النجوم، بلا شك أنَّ الكثير لا يعتقد هذا الاعتقاد وإنَّما سَمِع الناس يقولون قولًا فردده، وإلّا لا يفقه معناه، وإنْ قلت له هذه اللفظة تعني كذا وكذا، قال لك: أعوذ بالله، استغفر الله. فينبغي أنْ يتنبه الناس ألَّا يتساهلوا بمثل هذه الألفاظ التي تقدح في التوحيد.

التوحيد يا إخوان جوهرة، أدنى ما يأتيها يقدح فيها ويُؤَثِّر فيها، ولهذا لَمَّا جاء الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ما شاءَ الله وشِئْتَ. ماذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم؟ وهو يعلم أنَّ هذا الرجل ما جعله لله نِدًّا؟ قال: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًا، مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1]. تَأَدُّبٌ حتى في اللفظ. ولَمَّا جاء اليهودي وقال: إنكم تشركون. فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، مِن باب التأدب حتى في الألفاظ، في ما يتعلق بجناب الله عَزَّ وجَلَّ وجناب التوحيد ينبغي أنْ نتحرز أشد التحرز، وهذا أمْر يُعْتَبَر مدخل مِن مداخل الشيطان، ولهذا لاحِظ كيف أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سَدّ الذرائع كلها المفضية إلى القَدْح في التوحيد، أمور بسيطة جدًّا لو نظرت إليها مجردة لا أثَرَ لها، لكنْ لَمَّا كانت ربَّما تُفضي إلى ما يقدح في التوحيد، نَهَى عنها النبي صلى الله عليه وسلم، وحَذَّر منها أشد التحذير. وبالله التوفيق.

* * *

الأسئلة

السؤال: مَا حكم من يذْهب إِلَى الكهانِ والسحرة بِحُجَّةِ أَنَّهُ سيناظرهم ويكشف حقيقتهم للناس؟

الجواب: النبي صلى الله عليه وسلم نهانا عن الذهاب لهؤلاء، وذَكَر أنَّ «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ فَصَدَّقَهُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ »[2]. والحديث الآخر: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[3].

قال أهل العِلْم: إذا كان هذا حال السائل فما بال المسؤل؟

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٨٣)، بلفظ: «**جعلتني لله عدلًا**»، وقال شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

لكنْ إذا كان الذهاب لهم لامتحانهم، ولإظهار فسادهم على الناس، أو للتأكد لرفعهم لولاة الأمر وقطع دابرهم وشرهم، أو لمناظرتهم ممَّن هو أهل للمناظرة بأنْ يكون مُتَسَلِّحا بالعِلْم الشرعي، وعلى دراية بشرهم وخبثهم فلا بأس ولا مانع، بل هذا مِنَ الأمور الشرعية، ومِنَ الأمور التي ينبغي التعاون عليها، وماعدا ذلك فلا يجوز.

السؤال: ظهر في الآونَةِ الأخيرة علم يسمى علم الطاقة، ويشمل عَلَى قانون الجذب وتحليل الشخصية عَن طَرِيق الخط. فَهَلْ هَذَا من السحرِ والكهانة؟

الجواب: نعم هذا موجود الآن، في (الإنترنتِ) وغيره، مِن خلال مثلًا التوقيع يُحَلِّل شخصيتك. غالبا يستخدمون هذا الأمر مِن خلال التوقيع وليس مِن خلال مُجَرَّد الكتابة، يقول لك وَقِّع، ومِن خلال هذا التوقيع تُحَلَّل الشخصية، وبالطبع يزعمون، إذا كان هذا كما يزعمون أنهم جمعوا توقيع ملايين مِن الناس ثُمَّ حَلَّلُوا شخصياتهم ووجدوا أنَّ الغالب ممَّن يسلك هذا الأسلوب في التوقيع أنه صاحب الشخصية المَرِحَة غالبا. قالوا مثلًا وجدنا (٧٠) أو (٨٠) في المائة ممَّن هذا توقيعهم يتميزون في شخصيتهم بهذا الأمر، نقول إذا كان الأمر مَبْنِيٌّ على غَلَبَةِ الظن، واتضح للناس أنَّ هذا هو الشيء الذي بنيتم عليه، نقول لَعَلَّ الأمر يسير وهذا يُبنى دائمًا على مسألة كما يُسَمَّى الاستبانات والاستقراء ورَصْد الحالة ورَصْد الواقع. لكنَّ مُجَرَّد كتابة وإخبار عن أمور غيبية لهذا الشخص، فلا شك أنَّ هذا نوع مِن ادِّعاء عِلْم الغيب ونوع مِن الكهانة؛ لأنَّ هذا الشيء ليس قائمًا على سبب مُجَرَّد، هذا قائم على غير أساس. ولهذا هناك فَرْق، فقد يأتينا شخص أمام هذه المرأة الحامل ويقول: في بطنك ذَكَرٌ أو في بطنك أنثى، نقول أنت كاهن وتتكهن، بخلاف ما إذا جاءت وعرضت نفسها على طبيبة وعملت لها أشعة ممَّا تُسَمَّى بالصوتية، وقالت في بطنك ذَكَرٌ أو أنثى قلنا لها صدقت، فهذا قائم على سبب حقيقي، سبب تجريبي، سبب جعله الله عَزَّ وجَلَّ سبب. أمَّا هذا قائم على الحَدْسِ والظن وهذا نوع مِن الكهانة.

السؤال: هل يؤثر السحر في نفس الإنسان فيخرج الجنين من بطن أُمِّهُ ناقصًا عضوًا أو مشوَّهًا؟

الجواب: السِّحْر عن طريق الجن والشياطين، وربَّما إذا كان يستطيعون أنْ يُمْرضوا هذا الحَيّ القوي الشديد فمِن باب أوْلى أنْ يُؤَثِّروا في هذا الجنين، وأنتم تعلمون أنَّ الجن أعطاهم الله عَزَّ وجَلَّ خاصية القُدْرَة على التلبس بالإنس، ولهذا غالبًا الساحر يستخدم هذا الشيطان ليربط شيطان في هذا الإنسان المسحور، فيشل حركته، فيصيبه

بالعمى، أو يفعل به بعض الأمراض، فيقع كما فَعَل هذا الشيطان وربَّما أثَّر في واقع هذا الجنين.

وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

* * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فكما رَغِبَ الإخوة أنْ نبدأ بالأسئلة في كُل لقاء، ثُمَّ الدرس بإذن الله تعالى.

الأسئلة

السُّؤَالُ : هَلْ يَدْخُلُ فِي التَنْجِيمِ التَنَبُؤُ بِأَحْوَالِ الطَقْسِ الَّذِي نَرَاه اليَوْمَ فِي النَشْرَةِ الإِخْبَارِيَّةِ؟

الجَوَابُ : ذهب بعض المشايخ والعلماء المعاصرين إلى أنه يدخل في التنجيم المنهيِّ عنه، وذهب البعض الآخر إلى أنَّ هذه النَشَرَات ما دامت أنها قائمة على أمور علمية، وأنه ليس فيها تَنَبُّؤٌ بِعِلْم الغيب، وليس فيها أيضًا رَبَطٌ بهذهِ الأحوال بأمور النجوم، وإنما هي قائمة على قياسات عندهم، فأحيانًا تكون هذه القياسات موافقة، وأحيانًا تختلف أحوال الجو، فتأتي الأمور على غير ما أخبروا به، ولهذا أجاز البعض بناءً على ذلك. وكما ذَكَرْتُ لكم عندما يلاحظون عن طريق الأقمار الصناعية أنَّ السُحُبَ متجهة صَوْبَ المشرق، وهي الآن نفترض أنها على بَحْرِ العَرَب، وسُرْعَةُ الرياح كذا ، يقولون مثلًا: غدًا أو بعد غدٍ ستكون هذه السُحُبِ في المنطقة الفلانية، بناءً على هذه السرعة، ولكنْ أحيانًا يختلف اتجاه الرياح، فلا يأتي كما توقعوا.

السُّؤَالُ : هَلْ يَجُوزُ حَلُ السِّحْرِ أَمْ لَا؟ وَإِذَا كَانَ نَعَمْ، بِمَاذَا يُحَلُّ؟ وَإِنْ كَانَ لَا، كَيْفَ يُصْنَعُ سَحُورِ؟

الجَوَابُ : الله عَزَّ وجَلَّ إذا حَرَّمَ أمرًا، أو نَهَى عن أمرٍ، يسَّر للعباد ما هو جائز، فالمحظور هنا أنْ يُحَلَّ السِّحْر بِسِحْرٍ مِثْله وهي النُّشْرَةُ المُحَرَّمَة، ولكنْ كما ذَكَر المؤلف بالأمس، ونَقَلَ عن ابن القَيِّم رحمه الله: أنَّ السِّحْر يُحَلُ بالأدوية الشرعية، كالرُقْيَة الشرعية، وكالأدعية، وإذا كان هناك أدوية مُجَرَّبَةٌ، كأنْ يرى المسحور، أو يُرَى له أنَّ السِّحْر وُضِعَ له في المكان الفلانى، فيُبْطَلُ هذا السِّحْر، فينحلُّ سِحْرُهُ بإذن الله عَزَّ وجَلَّ، كما حَصَل للنبي صلى الله

عليه وسلم كما في «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»، لـمَّا سَحَرَه لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمٍ في مِشْطٍ ومُشَاطَةٍ في طَلْعِ نَخْلٍ في بِئرِ زَرْوانَ، أُبْطِلَ هذا السِّحْرُ، فانحل السِّحْرُ الذي أصاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإنْ كان هذا عن طريق الملائكة[1].

السُّؤَالُ : فِي حَدِيثِ «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»[2]، عَطَفَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السِّحْرَ عَلَى الشِّرْكِ، فَهَلْ هُوَ لِلْمُغَايَرَةِ؟ أَو من ذِكْرِ الخَاصِ بَعْدَ العَامِ؟

الجَوَابُ : هذه السَّبْع الموبقات التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم ليست في درجة واحدة في الإثم، فلا شك أنَّ أعظمها وأسوأها الشرك بالله عَزَّ وجَلَّ، إضافة إلى السِّحْرِ إذا كان فيه شرك و يأتي عن طريق الجِنِّ والشياطين، أمَّا ما ذَكَرَه عليه الصلاة والسلام في بَقِيَّة السَّبْعة، فلا تَصِلُ إلى حَدِّ الشرك أو السِّحْرِ، فتكون الواو هنا استئنافية، كما قال سبحانه في سورة الأنعام[3]: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[4]، فليست هذه الأمور في درجة واحدة في الإثم، بل كما ذَكَر المفسرون أنه بدأ بالأقل والأصغر.

السُّؤَالُ : هَلْ مِنَ الكِهانَةِ والعِرافَةِ قِرَاءةُ أَبْرَاجِ الحَظِ فِي الصُحفِ والمَجَلَّاتِ والقَنَوَاتِ الفَضَائِيةِ؟

الجَوَابُ : ينطبق على هذا ما ينطبق على إتيان الكُهَّان، وقد ذَكَرْنا هذا سابقًا: أنَّ ما يُسَمَّى بأبراج الحَظِّ هو نوع مِن التنجيم، فمتابعتها وقراءتها للاستفادة والتطبيق لا شك أنه يَصْدُقُ عليه ما يَصْدُقُ على مَنْ أتى كاهنًا فسأله أو صَدَّقَهُ.

السُّؤَالُ : إِيرَادُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ لِبَعْضِ الأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ، فَهَلْ هَذَا يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِ الكِتَابِ أَو يَجْعَلُ فِيهِ حُجَّةً لِلطَّعْنِ فِي الكِتَابِ؟

الجَوَابُ: لا، وأمَّا سبب إيراد المؤلف رحمه الله لبعض الأحاديث التي فيها ضَعْف، أو رأى بعض المتأخرين أنَّ فيها ضَعْفًا. فيا إخواني التصحيح والتضعيف مسائل اجتهادية، لأنها مبنية على ماذا؟ سلامة السَّنَد، وسلامة المَتْن،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام- باب الطب والمرضى والرقى (٢١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (٢٧٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٣) هكذا قال الشيخ، والصواب: سورة الأعراف.

(٤) سورة الأعراف: ٣٣.

والشيخ رحمه الله لَمْ يُورِد حديثًا أجمع العلماء على ضَعْفه، وما أورده مِنْ الأحاديث التي فيها ضَعْفٌ، إمَّا أنه يرى أنها صحيحة كما يرى غيره، وهناك طائفة أخرى ترى أنَّ الحديث ضعيف، وأحيانًا يكون السبب الاختلاف في أحد الرواة، البعض يُوَثِّقه والبعض يَجْرَحُهُ، هذا أمْرٌ. الأمر الآخر يُحْتَمَل أنَّ الشيخ لَمْ يبلغه، ماذا؟ وَهَنَ الحديث، كما ذَكَر شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه «رَدُّ المَلَامِ عَنِ الأَئِمَّةِ الأَعْلَامِ». واحتمال آخر، أنَّ الشيخ أورده وهو يعلم مثلًا أنَّ فيه ضَعْفٌ، لكنْ بالمتابعات والشواهد الأخرى الصحيحة، ورأى أنَّ إيراد هذا الحديث بهذا اللفظ لصراحته، وإنْ كان أصله ثابت مِنْ طريقٍ آخر وبلفظ آخر. على كُلِّ حال هذا لا يُثَرِّبُ على الشيخ، ولا يُقَلِّلُ مِنْ قيمة الكتاب وقَدْرِ الكتاب، ولا زالت كُتُبُ أهل الإسلام، وكُتُبُ أهل العِلْم فيها بعض الأحاديث الضعيفة، ولا يُقَلِّلُ هذا مِنْ شأنها.

السؤال : ألا يكون ذكر الشيخ لسند الحديث عذرا له؟

الجواب : بلا شك، وقد ذكَّرني الأخ أيضًا وجه آخر، وهو قولهم: أنْ مَن أسند فقد أعذر، والشيخ رحمه الله أيضًا يذكر الحديث خاصَّة الذي فيه مقال، ويذكر مَن رواه، فكأنه يُحِيلُ القارئ إلى أنْ يُراجِع إسناد الحديث عند أبي داود، أو عند التِّرْمِذِيِّ، أو عند الحاكم، وربَّما هو اجتهد مِن خلال نظره في الإسناد، أو مِن خلال تصحيح بعض أهل العِلْم الحديث، أنه اطمئن ومال إلى ذلك.

السؤال : هَل يَجُوز الذهاب للكهان أو العُراف بِسَبَبِ فقدان قِطْعَة من الألماس ثمينة جدًّا؟

الجواب : لَا يَجُوزُ الذهاب لِهَؤُلَاءِ بِأَيِّ حَال من الأَحْوَالِ، لِأَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عَن ذَلِكَ نهيًا مطلقًا، وإنَّما يلجأ الإنسان إلى الطُّرُق الشرعية، فيلجأ إلى الله عَزَّ وجَلَّ بالدعاء، أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يرد عليه ضالته، ومَن ترك لله شيئًا عوضه الله خيرا منه[1].

السؤال : هل النجم لَهُ تعلق بمولِد الإِنْسَان إن كَانَ نجمه بخير فَهُوَ خَيْر، وَإِلَّا فَلَا؟

الجواب : هذا هو التنجيم المُحَرَّم، وهو كما قلنا لكم وهو ما يُسَمَّى الآن بعِلْم الأبراج، لا علاقة للنجوم بما يجري في المُغَيَّبَاتِ، فهي مُسَخَّرَة، مرغومة، مُسَيَّرة كسائر المخلوقات.

السؤال : هَل يمكن أَن نقول: وخلقت النجوم لِحِكم أُخْرَى لَا نعلمها، يعلمها الله جَلَّ وَعَلَا؟

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام- باب تحريم الكهانة (٢٢٣٠).

الجواب : بلا شك أنَّ هذه المخلوقات التي نراها، نعرف مِن الحِكمِ فيها ما نص عليه الشارع الحكيم، وقد ذكر الله عَزَّ وجَلَّ في كتابه أنَّ الفكرة مِن خَلْق هذه النجوم للأمور الثلاثة التي ذَكَرْتُ بالأمس، هل هناك حِكَمٌ أخرى؟ ربَّما هناك حِكَم لا نعلمها، الله يعلمها.

السؤال : الطِّيَرة حُرِّمت بسببٍ لَيْسَ شرعي، وَتَكُون شركًا أكبر إِذَا ظنها مستقلة بِنَفْسِهَا، وَتَكُون أصغر إِذَا جعلها سببا، لأنَّهَا لَيْسَت سببا لا شرعيا، وَلا بالتجربة؟ فمَا تعليقكم عَلَى ذَلِكَ؟

الجواب : نعم، هذا الكلام صحيح، إنِ اعتقد أنَّ هذه المشاهدات أو المسموعات مِن الطير، وغيرها تعلم الغيب، أو أنها تنفع وتَضُر بذاتها أو مع الله عَزَّ وجَلَّ، فلا شك أنَّ هذا شرك، وإنِ اعتقد أنها سبب فهذا شرك أصغر، لأنه لَمْ يَقُم الدليل الشرعي على أنها سبب شرعي، ولَمْ يَقُم الدليل الحِسِّي النظري على أنها سبب دنيوي، فالتعلق بها تعلق على غير الله عَزَّ وجَلَّ.

***

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين، قال المؤلف رحمه الله تعالى:

بَابٌ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾[1]، **وَقَوْلِهِ:** ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾[2].

عَنْ أَنَسٍ[3] **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:** «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

(٢) سورة التوبة: ٢٤

(٣) هو: الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة، الأنصاري، الخزرجي، النجاري، المدني، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته من

وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1] أَخْرَجَاهُ.

وَلَـهُمَا عَنْهُ[2] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْـهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[3].

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى...» إِلَى آخِرِهِ[4].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[5] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ -وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ- حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّـةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا»[6]. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[7] قَالَ: (المَوَدَّةُ).

انتقل بعد ذلك المؤلف إلى الكلام على المَحَبَّة. والمَحَبَّة عَمَلٌ قلبي، بل ذكَر ابن القَيِّم رحمه الله أنها مِـن أعظـم

النساء، وتلميذه، وتبعه، وآخر أصحابه موتًا، وروى عنه علمًا جمًّا، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة، دعا له النبي بالبركة، فرأى من ولَده وولَدِ ولَدِه نحوًا من مئة نَفْسٍ. مات سنة إحدى وتسعين. انظر: الاستيعاب (ص٥٣ ترجمة ٤٣)، والإصابة (١/ ١٢٦ ترجمة ٢٧٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب حب الرسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان (١٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان- باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٤).

(٢) أنس بن مالك.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب الحب في الله (٦٠٤١).

(٥) هو: عبد الله بن عباس البحر أبو العباس الهاشمي حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي، الهاشمي، المكي، الأمير -رضي الله عنه. مولده: بشعب بني هاشم، قبل عام الهجرة بثلاث سنين. صحب النبي صلى الله عليه وسلم نحوًا من ثلاثين شهرًا، وحدث عنه بجملة صالحة. توفي سنة ثمان وستين، وله إحدى وسبعين سنةً. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٠-٣٥٣).

(٦) أخرجه العدني في «الإيمان» (ص ١٨).

(٧) سورة البقرة: ١٦٦.

أعمال القلوب، والتي يجب أنْ تكون لله خالصة، وهي مَحَبَّة العبودية المستلزمة للتَّأَلُّه، والتعظيم، والذل، والطاعة، والانقياد. **وَلِهَذَا قَسَّمَ أَهْلُ العِلْمِ المَحَبَّةَ إِلَى قسمين:**

قِسْم مُشْتَرَك، وقِسْم مختص.

والمشتركة ثلاثة أنواع:

المَحَبَّة الطَّبَعية: كمَحَبَّةِ الجائع للأكل، ومَحَبَّة الظمآن للماء، ونحو ذلك.

ومحبة إشفاق ومودة: كمَحَبَّة الوالد لولده، والولد لوالده.

ومحبة أنس وألفة: كمَحَبَّة مَن اشتركوا في أمْر مُعَيَّن، كمَحَبَّة الأصدقاء، ومَحَبَّة الشركاء.

وهذه الأنواع مِن المَحَابِّ: مَحَبَّة طبعية لا تُؤَثِّر في عقيدة المسلم. أمَّا المَحَبَّة المختصة وهي القِسْم الثاني، وهي الخاصَّة بالله عَزَّ وجَلَّ، ولا يجوز أنْ يصرف شيء منها لغيره سبحانه وتعالى وهي مَحَبَّة ماذا؟ التعظيم، والانقياد، والذل، والخضوع، والتَّأَلُّه، وهذه هي التي أشرك فيها المشركون، فناسب أنْ يذكرها هنا المؤلف، ليُبَيِّن أنَّ هذه المَحَبَّة الخاصة إذا صُرفت لغير الله عَزَّ وجَلَّ، فإنها تقدح في أصل التوحيد، وتُخرج صاحبها مِن دائرة الإسلام إلى دائرة الشرك. واستدل بقول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾[1] أيْ: يُساوونهم بالله في المَحَبَّةِ والتعظيم، وهذا هو اختيار شيخ الإسلام رحمه الله في معنى الآية. ولهذا قال سبحانه عن المشركين: ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[2] ماذا؟ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] أيْ: سَوَّوْا بين هذه المعبودات، وبين خالقهم في ماذا؟ في المَحَبَّةِ. ويقول سبحانه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾[4] أيْ: يعدلونه بغيره في المَحَبَّةِ. وشرك المشركين قائم على هذا النوع، أنهم أحَبُّوا معبوداتهم كمَحَبَّة الله عَزَّ و جَلَّ، ولهذا دعاهم ذلك إلى صَرْف العبادة لهذه المعبودات، فدعوها مِن دون الله، وذبحوا لها مِن دون الله عَزَّ وجَلَّ، واستغاثوا بها، واستعانوا بها.

والشرك في هذه الأُمَّة أيضًا الواقع الآن هو مِن هذا النوع، فالذين لجأوا إلى هذه الأضرحة، ولهؤلاء الأولياء،

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

(٢) سورة الشعراء: ٩٧.

(٣) سورة الشعراء: ٩٨.

(٤) سورة الأنعام: ١.

أو مَن يُسَمُّونهم بأولياء، صرفوا لهم العبادة لأجْل ماذا؟ لأجْل المَحَبَّة التي وقعت في قلوبهم لهؤلاء، وغَلَوْا في محبتهم حتى ساووهم بالله عَزَّ وجَلَّ، فصرفوا لهم العبادة مِن دون الله. بل هناك في هذه الأُمَّة مَن غلا في مَحَبَّة النبي صلى الله عليه وسلم، والذي سيأتي أنَّ مَحَبَّته مِن لوازم ماذا؟ مِن لوازم الإيمان، لكنَّ مَن تجاوز بهذه المَحَبَّة الحد الشرعي فقد خرج عن دائرة الإيمان، هؤلاء الذين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم مِن دون الله، كما رددوا أبيات البوصيري:

يا أكرم الخلق مَا لِي من ألوذ بِهِ * سواك عِنْد حدوث الحادث العمم**

ما الذي حملهم على ذلك؟ المَحَبَّة، ولكنْ ليست المَحَبَّة الشرعية، إنما المَحَبَّة الشركية. ولهذا لَمَّا جاء الوفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، خشي النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يدخل عليهم الشيطان مِن هذا المدخل، فنهاهم عن ذلك، وقال: «قُولُوا قَوْلَكُمْ وَلَا يَسْتَجِرَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[1]. الذي أوقع النصارى فيما أوقعهم فيه، وزعموا أنَّ الإله – تعالى الله عن ذلك – حَلَّ في عيسى، وأنَّ الآلهة ثلاثة، الذي حملهم على ذلك ماذا؟ مَحَبَّة عيسى، والغلوّ في مَحَبَّته.

إذًا المَحَبَّة هي أصل شرك المشركين، وغالب مَن وقع في الشرك الذي دفعه إلى ذلك ابتداءً المَحَبَّة.

ثُمَّ قال رحمه الله: وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[2] هنا موضوع الولاء والبراء، والمَحَبَّة في الله والبُغْض في الله، والموالاة في الله والمعاداة في الله.

مِن لوازم المَحَبَّة اتباع ماذا؟ المحبوب، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[3] ومِن لوازم المَحَبَّة التي تعتبر مَحَبَّة عبودية أنْ يُقَدِّم الإنسان ماذا؟ مراد هذا المحبوب على مراده، ولهذا امتحن الله عَزَّ وجَلَّ أهل الإيمان بمِثْل هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[4] هذا مِن باب الابتلاء لمثل هذا، لأجْل أنْ يعرف الله عَزَّ وجَلَّ صِدْق هذه المَحَبَّة التي يتعبد بها الإنسان لله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا جعل ابن القَيِّم رحمه الله رَأْس

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب- باب في كراهية التمادح (٤٨٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٢) سورة التوبة: ٢٤.

(٣) سورة آل عمران: ٣١.

(٤) سورة التوبة: ٢٤.

الأمر المَحَبَّة، ولَمَّا مثَّل المؤمن في مسيره إلى الله عَزَّ وجَلَّ بحال الطائر بين الخوف والرجاء والمَحَبَّة. قال: المَحَبَّة تمثل الرَّأْس، ولهذا إذا قُطع الرأس هلك الطائر. فالمراد هنا بالمَحَبَّة ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى أنْ قال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ هذه مَحَبَّة العبودية، مَحَبَّة الطاعة.

ثُمَّ ذكر حديث أَنَس بن مَالِكٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو ثابت في «الصَّحِيحَيْنِ» – أنه قال: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). فقوله عليه الصلاة والسلام: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ) هذا نفي كمال الإيمان، الواجب أم المستحب؟ نفي كمال الإيمان الواجب الذي يُذم تاركه، لو كان كمالًا مستحبا لَمْ يُذم تاركه، فلو أتى إنسان وقَدَّم مَحَبَّة الولد والوالد على النبي صلى الله عليه وسلم، هل يُذم أو لا يُذم؟ يُذم، فتبين أنَّ المنفي هنا كمال الإيمان الواجب، الذي يُذم تاركه ويتعرض للعقوبة. لا يؤمن الإيمان الواجب أحدكم حتى أكون أحَبَّ إليه مِن ولده ووالده والناس أجمعين. فتقديم محابِّ النبي صلى الله عليه وسلم، ومراد النبي صلى الله عليه وسلم على محابِّ النفْس ومراد النفْس هذا مِن لوازم الإيمان، مِن لوازم الإيمان الواجب. ولهذا مَن قدَّم شيئا مِن حظوظ نَفْسه على مراد الرسول صلى الله عليه وسلم فإيمانه ماذا؟ ناقص. وهذا الحديث ممَّا استدل به أهل السُّنَّة على أنَّ الأعمال داخلة في مُسَمّى الإيمان؛ لأنَّ المَحَبَّة عَمَلٌ قلبي، خلافًا لمذهب المُرْجِئَة الذين أخرجوا الأعمال عن مُسَمّى الإيمان، ولهذا ادَّعى قوم مَحَبَّة الله عَزَّ وجَلَّ – كما ذكر الحَسَن وغيره – فابتلاهم الله عَزَّ وجَلَّ بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[1]. هذا دليل صِدْق المَحَبَّة الحقة، إذا كان الإنسان فِعْلًا مُحِبٌّ لله عَزَّ وجَلَّ مَحَبَّة إيمانية، مَحَبَّة عبودية، فيلزمه الاستسلام الكامل التام لمراد الله عَزَّ وجَلَّ، ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ طاعة الرسول مِن طاعة الله عَزَّ وجَلَّ، «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ»[2].

في «صَحِيح البُخَارِيّ» أنَّ عُمَر[3] رضي الله عنه أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: لأنت يا رسول الله

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام- باب قول الله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ (٧١٣٧)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٨٣٥).

(٣) هو: عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص أمير المؤمنين ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة. أسلم بمكة قديما وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وولي الخلافة عشر سنين وخمسة أشهر

أحَبَّ إليَّ مِن ولدي ووالدي إلّا مِن نفسي، قال: «لَا يَا عُمَر، حَتَّى من نَفْسك» قال: والله لأنت الآن أحَبَّ إليَّ مِن ولدي ووالدي وحتى مِن نفسي، فقال: «الْآنَ يَا عُمَرُ»(١). الآن حَصَلَ لك الإيمان، فحتى النَّفْس وهي أغلى ما يملكها الإنسان يجب عليه أنْ يكون النبي صلى الله عليه وسلم أحَبَّ إليه مِن نَفْسه، ولكنْ ينبغي أنْ يُعلم أنَّ هذه المَحَبَّة - كما أسلفتُ - ليست مُجَرَّد دعوى، وإلّا لو كان الأمر مبنيا على هذه الدعاوى، لكان الأمر سهلًا ويسيرًا، ولكنْ لابد مِن دليل على هذه الدعوى ألَا وهي؟ ماذا؟ الاتباع، الطاعة، الامتثال. إذا تعارض عند الإنسان مرادان: مراد النَّفْس، ومراد النبي صلى الله عليه وسلم، قدَّم مراد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يتأتى إلّا بالاستسلام التام والانقياد التام للنبي صلى الله عليه وسلم في كل ما أمَر به وفي كُل ما نهى عنه؟ ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٢)، هذه هي المَحَبَّة الصادقة، المَحَبَّة للنبي صلى الله عليه وسلم المستلزمة لمَحَبَّة الله عَزَّ وجَلَّ، وهذا هو حقيقة الولاء. لكنْ كوْن الإنسان ضعيف أمام أوامر الله عَزَّ وجَلَّ، وأمام أوامر النبي صلى الله عليه وسلم، وأمام شرْع الله عَزَّ وجَلَّ، ومستسلم وممتثل لِمَا يدعوه إليه هواه ونفسه وشيطانه مِن معصية الله عَزَّ وجَلَّ، فهذا دليل على ماذا؟ على ضَعْف هذه المَحَبَّة.

ثُمَّ قال: ولهما أيْ للبخاري، عنه أيْ عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ)، ثلاث، أيْ: ثلاث خصال، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ. هل للإيمان حلاوة؟ نعم، الله عَزَّ وجَلَّ مَثَّلَ الإيمان بالشجرة الطيبة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(٣). يقول شيخ الإسلام رحمه الله: هذه الشجرة لها أصل، ولها جذع، ولها فروع، ولها ورق، ولها ثمر، حلاوة هذه الثمرة لا يجدها إلّا مَن اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث، حلاوة الإيمان، لذة الإيمان، لا يمكن أنْ يستمتع بها إلّا مَن استكمل هذه الثلاث خصال، لاحظوا (وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ)، هنا تمثيل لأمر حِسِّي، فالحلاوة هذه - حلاوة الثمرة - مهما وصفها الإنسان، هل يمكن للسامع أنْ يدرك حقيقة هذه

وقتل يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة وهو أول من اتخذ الدرة. (أسد الغابة: ١/ ٨١٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور - باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم (٦٦٣٢).

(٢) سورة النساء: ٦٥.

(٣) سورة إبراهيم: ٢٤.

الحلاوة؟ لا، مِثْل حلاوة العسل، مهما وصفت للشخص لا يمكن أنْ يتصور ذات اللذة إلّا بماذا؟ بالطعم، بأنْ يتذوق هو بنفسه، كذلك حلاوة الإيمان، لا يمكن للإنسان أنْ يدرك هذه الحقيقة إلّا أنْ يستكمل هذه الخصال الثلاثة، ما هي؟ «أَن يَكُون الله وَرَسُولُه أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهما»، ولهذا مَن وصل إلى هذه الدرجة سهلت عليه الطاعة، الناس يتلذذون بالنوم على الفُرُش وهو ماذا؟ يتلذذ بالتهجد، وبمناجاة الله عَزَّ وجَلَّ.

قد يجد أحدنا في بداية الأمر شيئًا مِن المشقة، وشيئًا مِن مجاهدة النَّفْس في ذلك، لكنْ إلى أنْ تُخَالِط هذه المعاني بشاشة القلب، فيتلذذ بهذا الأمر، كما نُقل عن الفُضَيْل وغيره أنه قال: لو يعلم الملوك ... كلمة مشهورة.

شيخ الإسلام رحمه الله يقول: إنَّ في الدنيا جنَّة مَن لَم يدخلها لَم يدخل جنَّة الآخرة، أيُّ جنَّة هذه؟ جنَّة الطاعة. أليس المؤمن يسمع صليل السيوف، ويرى لمعانها، ويتقدم إلى أرض المعركة؟ ما الذي يدفعه إلى ذلك؟ لذة الطاعة، هان عنده كل شيء حتى هذه النَّفْس وهي أغلى ما يملك يقدمها رخيصة في سبيل الله ، ما السبب؟ هذا الإيمان الذي عَمَر هذا القلب، «أَن يَكُون الله رَسُولِه أحب إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُما»، أَحَبَّ إليه مِن هذه الدنيا وما فيها، فإذا كان الله عَزَّ وجَلَّ يريد مِنِّي أنْ أقدِّم هذه النَّفْس قدمتها، إذا كان الله عَزَّ وجَلَّ يريد مِنِّي أنْ أهجر فراشي، وأثِبَ مِن هذا الفراش إلى مناجاته، تقدمت بِكُلّ يُسْر وسهولة دون أيّ مشقة، لماذا؟ لأنَّ هذا محبوبًا لله عَزَّ وجَلَّ.

ثُمَّ قال: (وَأَن يُحبّ المرء لَا يحبه إِلا لله عَزَّ وَجَلَّ)، أنْ لا يحب هذا الشخص إلّا لأجْل عقيدته وإيمانه، لا يحبه لأجْل أنه مِن قبيلته، أو أنه مِن عشيرته، أو أنه مِن بني جِنْسه، أو أنه مِن محيطه، أو لماله، أو لأيّ غرض آخر، لا يحبه إلّا لله عَزَّ وجَلَّ، وهذه حقيقة الولاء، هذه هي حقيقة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ لأنَّ مِن شروط «لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ» مَحَبَّة هذه الكلمة، ومَحَبَّة أهلها، القائمين بها، المنتسبين بما تضمنته، وبُغض ما ناقض ذلك.

ثُمَّ قال: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» بمعنى: أنْ يكره أنْ يعود إلى الظلام، أنْ يعود إلى الكفر، إلى النفاق، إلى الفجور بعد أنْ أنقذه الله عَزَّ وجَلَّ، لماذا؟ لأنه عرف الحَقّ، وتلذذ قلبه بهذا الإيمان، فإذا وصل إلى هذه الدرجة يستحيل أنه يتمنى الرجوع إلى حالته الأولى، فإذا حدَّثَتْه نَفْسه بالرجوع إلى ما كان عليه مِن المعاصي أو الفجور أو الكفر، إذا كان الإنسان انتقل مِن الكفر، فهذا دليل على أنَّ قلبه حتى الآن لَم يتلذذ بحقيقة الإيمان، لكنْ إذا وصل إلى هذه الدرجة يكره أنْ يعود إلى تلك الحالة، كما يكره أنْ يُلْقَى في النار.

يقول وفي رواية للبخاري: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى»[1] بمعنى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم نفى أنْ يتلذذ المؤمن بالإيمان حقيقة، إلّا أنْ يستكمل هذه الخصال الثلاثة.

يقول: وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: (مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ).

قوله: (**أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ**) تقدمت الإشارة إليها، أنَّ الدافع لهذه المَحَبَّة لأجْل الله عَزَّ وجَلَّ، والدافع للبغض لأجْل الله عَزَّ وجَلَّ لا لأجْل حظوظ النَّفْس، «ووالى فِي اللهِ» هذه مِن لوازم المَحَبَّة، مِن لوازم المَحَبَّة إذا أحببت في الله فيجب عليك أنْ تُوالي، والموالاة المقصود بها ماذا؟ النصرة، الموالاة هي النصرة، بمعنى أنْ تنصر هذا الذي أحببته في الله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في «الصَّحِيحِ»: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»[2]، فهذه مِن لوازم المَحَبَّة، فلابد مِن الموالاةِ، «وعادى فِي اللهِ» هذه مِن لوازم ماذا؟ البُغض، المعاداة مِن لوازم البُغض.

الموالاة عند أهل السُّنَّة – الموالاة والمعاداة – تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مَن تُصرف له كامل المَحَبَّة، وكامل الموالاة، وهؤلاء مَن؟ المؤمنون الخُلَّص، المؤمن الذي استكمل درجات الإيمان، والذي ظهر عليه أنه استكمل درجات الإيمان مِن القيام بما أوجب الله عَزَّ وجَلَّ عليه، والانتهاء عمَّا نهى الله عَزَّ وجَلَّ فيما يظهر للناس، فهذا يجب أنْ تُصرف له كامل المَحَبَّة، وكامل الموالاة.

القسم الثَّاني: مَن يُصرف له كامل البُغض والمعاداة، وهؤلاء مَن؟ الكفار، مَن خرج عن دائرة الإيمان، مَن ليس له في الإيمان حظ، ليس له في الإسلام حظ، فهذا يجب أنْ يبغض جملة وتفصيلًا، ويُعَادَى في الله عَزَّ وجَلَّ.

القسم الثالث: مَن يُحَب مِنْ جهة ويُبغَض مِنْ جهة أخرى، لماذا؟ يجتمع في حَقِّهِ المَحَبَّة والبغض، والموالاة والمعاداة، وهذا النوع هو الذي خالف فيه الوعيدية والمُرْجِئَة، فهذا القِسْم ليس موجودا عند المُرْجِئَة، ولا عند الخوارج، والمعتزلة؛ لأنَّ أولئك عندهم فقط، إمَّا أنْ يحَب الإنسان مَحَبَّة كاملة، أو يبغَض بغضًا كاملًا. أمَّا أهل السُّنَّة فقالوا: لا، قد يجتمع في حَقّ الشخص الواحد أنْ يُحَبّ مِنْ جهة ويُبْغَض مِنْ جهة، متى يُحَبّ ومتى يُبْغَض؟

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب الحب في الله (٦٠٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغضب-باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا (٢٤٤٣).

المؤمن العاصي يُحَبّ بقَدْر ما فيه مِن الإيمان، ويوالَى بقَدْر ما فيه مِن الإيمان، ويُبْغَض ويُعَادَى بقَدْر ما فيه مِن المعصية.

نعود إلى النوع الثاني ألَا وهو: مَن يُبْغَضُ بغضًا كاملًا وهو مَن خرج عن دائرة الإيمان. والمقصود هنا بالبغض يا إخوان: أنْ يُبْغَضُ هذا الشخص لأجْل ماذا؟ لأجْل كُفْره وعقيدته، لكنْ لو أحبه الإنسان لأجْل أخلاقه، لأجْل تعامله، فهل يؤثِّر هذا على دينه؟ واضح السؤال؟ عندي كافر أُبغضه لأجْل عقيدته ودينه، هذا النصراني أبغضه لأنه يقول: إنَّ الله ثالث ثلاثة، لكنَّ الرجل على جانب كبير مِن الأخلاق، وعلى جانب كبير مِن حُسْن التعامل، وعلى جانب كبير مِن الوفاء بالعهد، فهل يمكن أنْ أحبه لأجْل هذه المعاني؟ وهل يؤثِّر هذا في الولاء والبراء؟ هذا يُسَمَّى المَحَبَّة الطبعية، لا ننسى تقسيم المَحَبَّة، المَحَبَّة الطبعية التي لا ينبني عليها جانب التَّعَبُّد، واضح؟ ولهذا قال الله عَزَّ وجَلَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] مَن المقصود بهذا؟ عمُّه أبو طالب، والله عَزَّ وجَلَّ أباح لنا نكاح أهل الكتاب، وهل يُعقل أنْ يأخذ الرجل امرأة لا يحبها؟! فالمَحَبَّة بين الزوجين مِن الأسس التي تقوم عليها العلاقة الزوجية، لكنَّ هذه تُسَمَّى محبة طبَعية لا تؤثِّر على دين الإنسان، لكنْ لا يجوز له أنْ يحبها لأجْل عقيدتها، بل يجب عليه أنْ يُبْغِضُ هذا الجانب فيها، أمَّا المَحَبَّة الطَبَعية فهذه لا يُؤاخَذ الناس عليها، وهذا ما أُوقِع فيه كثير مِن إخواننا – غفر الله لنا ولهم في هذا الوقت – في قضية الولاء والبراء، فبعضهم فهمها فهمًا خاطئًا، ولهذا نقلوا صورة ربَّما سيئة لغير المسلمين، وهذا غير صحيح، أيضًا لا يلْزم مِن البغض، أو المعاداة الاعتداء على حقوق هؤلاء المحترمة إذا كانوا ماذا؟ معاهَدين، سواء أكانوا عندنا في بلادنا، أو كُنَّا عندهم في بلادهم، فهم دخلوا بعهد وميثاق، وأيضًا نحن دخلنا بلادهم بعهد وميثاق، فيجب أنْ نحترم أموالهم، نحترم أعراضهم، نحترم عهودهم ومواثيقهم، وهذا مِن لوازم الإيمان، ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم حذَّر أشد التحذير مِن الاعتداء على المُعاهَد، فكُلّ هذه الأمور ينبغي للمؤمن أنْ يستحضرها في موضوع الولاء والبراء.

ثُمَّ قال: «وَلَنْ يجد عبد طعم الإِيمَان وَإِن كثرت صَلَاته وصومه حَتَّى يَكُون كَذَلِكَ». يعني: مهما أكثر الإنسان مِن الطاعات لن يجد لذة الإيمان وحلاوة الإيمان إلّا باستكمال هذه الخصال، ولهذا قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا

(١) سورة القصص: ٥٦.

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[1]، فالعداوة والبغضاء بَدَتْ مِنَّا حتى تؤمنوا بالله عَزَّ وجَلَّ وحده.

ثُمَّ قال: «وَقَد صَارَت عَامَّة مؤاخاة النَّاس عَلَى أمر الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجدِى عَلَى أهله شَيْء»، القائل مَن؟ ابن عَبَّاسٍ، وفي جيل مَن؟ في جيل الصحابة، وكبار التابعين، يقول: غَالِب مؤاخاة الناس صارت لأجْل الدنيا، كيف لو أدرك ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنه وأرضاه زمننا هذا، ماذا سيقول؟ الآن الأصل في تعامل الناس، ومَحَبَّة الناس، وبغض الناس، لأجْل هذه الدنيا، بل وللأسف قد نجد ممَّن يظهر عليهم أنهم مِن أهل الخير وأهل الصلاح، مِن العداوة والبغض والتنافر واللمز والهمز لأجْل حظوظ النفس، بل ربَّما جرَّ هذا الأمر إلى الافتراء والكذب والكلام عن النيَّات والمقاصد لأجْل ماذا؟ نعم، بعضهم يلبِّسه بلباس الشرع، وهذا مِن تلبيس الشيطان، لأجْل حظوظ النَّفْس، وهذا يتنافى مع الإيمان.

والله عَزَّ وجَلَّ بيَّن أنَّ كُل مَحَبَّة زائلة، ولا قيمة لها إلّا ما كانت في الله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا قال: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[2]، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾[3] يوم القيامة تنتهي هذه المصالح، ويبقى الذي كان لله وحده.

بَابٌ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[5].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾[6].

---

(١) سورة الممتحنة : ٤.

(٢) سورة الزخرف :٦٧.

(٣) سورة البقرة : ١٦٦.

(٤) سورة أل عمران : ١٧٥.

(٥) سورة التوبة : ١٨.

(٦) سورة العنكبوت : ١٠.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ الله، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ الله، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ الله لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»[2].

وَعَنْ عَائِشَةَ[3] رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»[4] رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ).

لَمَّا ذَكَرَ المؤلف المَحَبَّة، وأنها مِن مقامات العبودية، وأنه لا يجوز أنْ تُصرف إلّا لله عَزَّ وجَلَّ، ناسب أنْ يذكر أيضًا أنَّ مِن مقامات العبودية الخوف، بل ذكر ابن القَيِّم في «المدارج» أنَّ الخوف مِنْ أَجَلِّ المقامات، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[5]، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ﴾[6]. ثُمَّ ذكر قول الله وعَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[7].

---

(١) هو: الصحابي أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان الإمام، المجاهد، مفتي المدينة، سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر بن عوف بن الحارث بن الخزرج. واسم الأبجر: خدرة. وقيل: بل خدرة هي أم الأبجر. وأخو أبي سعيد لأمه هو: قتادة بن النعمان الظفري، أحد البدريين. استشهد أبوه مالك يوم أحد، وشهد أبو سعيد الخندق، وبيعة الرضوان. وحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر، وأطاب، وعن: أبي بكر، وعمر، وطائفة. وكان أحد الفقهاء المجتهدين. مات سنة أربع وسبعين. . انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٦٣-١٦٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٥/ ١٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٢٢١/ ٢٠٧).

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين، زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأشهر نسائه، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين، وهي بنت سبع، وابتنى بها بالمدينة وهي ابنة تسع، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أري عائشة في المنام في سرقة من حرير فقال: «إن يكن هذا من عند الله يمضه» فتزوجها بعد موت خديجة بثلاث سنين، ولم ينكح صلى الله عليه وسلم بكرًا غيرها، وتوفي عنها صلى الله عليه وسلم وهي بنت ثمان عشرة سنة وكان مكثها معه صلى الله عليه وسلم تسع سنين. قال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل. توفيت سنة ثمان وخمسين، ودفنت بالبقيع. انظر: الاستيعاب (٢/ ١٠٨-١١٠) «أُسْد الغابة» (٣/ ٣٨٣-٣٨٥) الإصابة (٨/ ١٦-٢٠).

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١/ ٢٤٧).

(٥) سورة الأنبياء: ٢٨.

(٦) سورة الأحزاب: ٣٩.

(٧) سورة آل عمران: ١٧٥.

الخوف على ثلاثة أقسام:

الأول: ما يُسَمَّى بخوف السِّر، وهو أنْ يخاف مِن غير الله عَزَّ وجَلَّ، كأنْ يخاف مِن طاغوت أو وَثَـن أو مَـن يُطْلَق عليه أنه وَلِي، أنْ يصيبه بمكروه بنفسه مِن غير سبب، وهذا الخوف هو الذي لا يجوز أنْ يُصرـف لغـير الله، وهو الواقع عند عُبَّاد القبور، فيخاف مِن صاحب هذا القبر أنْ يصيبه بمكروه أو يصيب أولاده أو يصيب بلـده بمكروه، ولهذا يبادر أنْ يتقرب إليه بأنواع القُرَب.

النوع الثَّاني: أنْ يترك بعض ما أمَر الله عَزَّ وجَلَّ، أو يرتكب شيئًا ممَّا نهى الله عَزَّ وجَلَّ عنه، خوفًا على منصب أو جاه أو نحو ذلك، وهذا صاحبه مرتكب لذنب.

النوع الثالث: الخوف الطَّبَعِي، وهو أنْ يخاف الإنسان مِن حَيّ قادر أنْ يصيبه بمكروه، وفي قُدرة هذا الحي أنْ يصيب هذا الشخص، كأنْ يخاف الإنسان مِن ماذا؟ مِن سَبُع، أو مِن مَلِك ظالم أنْ يُوقع به، وهذا خوف طَبَعي لا يؤاخذ الإنسان عليه، كما أخبر الله عَزَّ وجَلَّ عن نَبِيِّه موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[1] هذا خـوف طَبَعـي، ولهذا نهى الله عَزَّ وجَلَّ عباده أنْ يخافوا هؤلاء – أولياء الشيطان –، وأمرهم أنْ يصرفوا الخوف الحقيقي لِمَـنْ؟ لله سبحانه وتعالى، وكما جاء أنَّ كُل مَن خِفْتَ منه هربت منه، إلّا الله سبحانه وتعالى، إذا خِفْتَه هربت إليه.

ثُمَّ ذكر قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّـلَاةَ وَآتَـى الزَّكَـاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾[2] ذكر هذه الآية بعد قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللهِ﴾[3]، بيَّن الله عَزَّ وجَلَّ في هذه الآية أنَّ عِمَارة المسجد أو المساجد ليس ببنائها، ولا بتشييدها، ولا بتزيينها، وإنَّما العمارة حقًّا هي بماذا؟ أنْ تُعمـر بذكْر الله عَزَّ وجَلَّ، وبطاعته ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ الشاهد: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ بمعنى لَم يخف إلّا الله عَزَّ وجَلَّ، وهذا هو الخوف الذي يتعبد الإنسان ربه به.

أيضًا قوله سبحانه: ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾[4]، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ

(١) سورة القصص : ٢١.

(٢) سورة التوبة : ١٨.

(٣) سورة التوبة : ١٧.

(٤) سورة الأحزاب : ٣٩.

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾[1]، أهل الإيمان فَرُّوا مِن عذاب الله عَزَّ وجَلَّ ، فهذا الرجل خاف الناس أكثر مِن خوفه مِن الله عَزَّ وجَلَّ، وهذه نزلت في المنافقين ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾، الله عَزَّ وجَلَّ هنا يقول أنَّ هذه صفات المنافقين، فعلى المؤمن أنْ لا يخشى إلّا الله، وأنْ لا يخاف إلّا الله وحده، ولهذا أهل الإيمان أُوذوا في الله عَزَّ وجَلَّ، ولكنهم ماذا؟ أصابهم الألم مِن أذى الناس، لكنهم صبروا، لأنهم يعلمون أنَّ عذاب الله عَزَّ وجَلَّ أشد وأنكى، فصبروا على ألم الناس، وعذاب الناس، وفتنة الناس، لينالوا رضا الله عَزَّ وجَلَّ، ويسلموا مِن عذابه، ولهذا أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَلَا يخشون أحدا إِلَّا الله﴾ لا يخشون كائنا مَن كان إلّا الله سبحانه وتعالى.

ثُمَّ ذكر حديث أبي سعيد مرفوعًا: (إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ) الحديث فيه ضعف، ولَعَلَّهُ يصح موقوفًا عن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، إنَّ مِن ضَعْف اليقين الذي جعل هذا الإنسان يُرضي الناس بسخط الله عَزَّ وجَلَّ ما سببه؟ ضَعْف اليقين، أنه ليس على يقين تام أنَّ النافع الضار حقًّا هو الله عَزَّ وجَلَّ، وأنَّ ما عند الله خير وأبقى، وأنَّ عذاب الله عَزَّ وجَلَّ أعظم مِن عذاب الناس، ولهذا لَمَّا ضعفت هذه الجوانب عنده قدَّم ماذا؟ قدَّم مرضاة الناس في سخط الله عَزَّ وجَلَّ، والأصل أنْ يعكس، أنْ يُرضِيَ الله عَزَّ وجَلَّ وإنْ سخط عليه الناس.

(وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ) عَزَّ وجَلَّ، بأنْ تضيف لهم الحمد، وكأنَّ هذا الرزق متوقف على فعلهم، وهذا مِن ضَعْف اليقين، بَل مِن المفروض أنْ تحمد الله عَزَّ وجَلَّ أنْ سخَّر هؤلاء؛ لأنَّ هؤلاء مثلك ضعاف، لولا أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ سخَّرهم لَمَا حَصَلَ لك هذا الرزق عن طريقهم، ولهذا يجب أنْ تحمد المُنعم في الأصل وهو الله سبحانه وتعالى، ومَن بيده النفع والضر.

لكنْ هل يتنافى هذا مع حديث: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ»[2]؟ لا، بل مِن خُلُق المسلم ومِن كمال إيمانه، أنْ يشكر الناس إذا أَسْدَوْا إليه معروفًا، لكنْ يعرف الحق لأهله، وأنَّ أصل هذا المعروف بيد الله عَزَّ

(١) سورة العنكبوت : ١٠.

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» في كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (١٨٧٨)، وأبو داود في كتاب الأدب – باب في شكر المعروف (٤٨١١)، وأحمد في «مسنده» (١٠٨٥٠ – ٢٢/ ٣٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» بلفظ: «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ».

وجَلَّ، وإنَّما سخَّر هؤلاء فَهُم سبب مِن الأسباب.

«وَأن تذُمهم عَلَى مَا لم يؤتك الله عَزَّ وَجَلَّ، إن رزق الله لَا يجره حرص حريص وَلَا يرده كراهية كاره» وهـذا سيأتي إنْ شاء الله في باب القضاء والقَدَر. والصحابة رضي الله عنهم بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم أنْ لا يسألوا الناس شيئًا، بمعنى أنْ يتعلقوا بالله في كُل شيء، يقول الراوي: «حَتَّى إن أحدهم ليسقط سوطه، وَهُوَ عَلَى راحلته -يسقط عَلَى الأَرْض، وهناك من يمشي جنبه راجلا- مَا يسأله أَن يناوله سوطه». بل ينيخ الراحلة فيأخذ سـوطه بيده ، اعتمادًا على الله عَزَّ وجَلَّ وحده.

ثُمَّ ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من التمس رضـا الله بسـخط النَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضى عَنْهُ النَّاس، ومن التمس رضا النَّـاس بسـخط الله سـخط الله عَلَيْـهِ وأسـخط عَلَيْـهِ النَّاس)، رواه ابن حِبَّان في «صَحِيحِهِ» وهو حديث حَسَن، وهذا الحديث له سبب أنَّ مُعَاوِيَة رضي الله عنه كتب إلى عائشة يطلب منها أنْ تنصحه وتختصر، فكتبت إليه بهذا الحديث رضي الله عنها.

«من التمس رضا الله بسخط النَّاس» وهذا كما يشهد له الحديث الآخر: «من ترك لله شَـيْئًا عوضـه الله خـيرًا مِنْهُ»[1]، الأصل أنْ تلتمس رضا الله عَزَّ وجَلَّ، وأنْ تبتعد عن سخطه الذي هو شدة الغضـب، بغـضِّ النظـر هـل رضي عنك الناس أم سخِطوا، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يغضب لنفسه أبدًا إلّا أنْ تُنْتَهَك محارم الله عَزَّ وجَلَّ[2]، هنا يغضب لله عَزَّ وجَلَّ، وهذه حقيقة الإيمان.

بَابٌ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3].

وَقَوْلِهِ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ ﴾[4].

وَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الْآيَةَ[5].

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل - باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام (٢٣٢٨).

(٣) سورة المائدة : ٢٣.

(٤) سورة الأنفال : ٦٤.

(٥) سورة الأنفال: ٢.

وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[2] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قال الله تَعَالَى: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[3] قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾[4] الآيَةَ[5] رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

قبْل أنْ ننتقل إلى هذا الباب هناك نقطة أُحِبُّ أنْ أُنَبِّه عليها، وهي قضية التماس رضا الناس في سخط الله، والتماس سخط الله في رضا الناس. أقول: إنَّ الإنسان مهما بذل، ومهما قدَّم لن يرضى عنه الناس جميعًا، ولن يرضوا عنه، على كُل الأحوال حتى لو رضوا عنه في وقت سخطوا عليه في وقت آخر، ولهذا قال الحَسَن رضي الله عنه: لَمَّا رأيت الناس لَمْ يرضوا عن خالقهم، هل قَبِل الناس بأقدار الله عَزَّ وجَلَّ وسلَّموا لها؟ هل رضوا برزق الله عَزَّ وجَلَّ الذي آتاهم؟ يقول: لَمَّا رأيت الناس لَمْ يرضوا عن خالقهم، علمت أنهم لن يرضوا عن مخلوق. ولهذا يقطع الإنسان على نفسه هذا الأمر، ويلتمس مَن في رضاه سيُرْضِي عنه الناس، ومَن في سخطه سَيُسْخِّط عليه الناس.

انتقل بعد ذلك المؤلف إلى موضوع التوكل.

والتوكل هو: الاعتماد والتفويض، وهو اعتماد القلب وتفويض القلب، والتوكل عبادة قلبية يجب أنْ تُصرف لله عَزَّ وجَلَّ، فإذا صُرفت لغير الله، فهذا يعتبر قَدْح في التوحيد، فربَّما نافى أصل التوحيد، وربَّما نافى كماله، ولهذا يقول شيخ الإسلام رحمه الله: وما رجا أحد مخلوقًا، أو توكل عليه إلّا خاب ظنه فيه، ما توكل إنسان على مخلوق واعتمد قلبه عليه إلّا خاب ظنه فيه.

والتوكل معاشر الإخوة قسمان:

الأول: التوكل فيما لا يقدر عليه إلّا الله، كالتوكل على الأموات أو الأحياء، لكنْ فيما لا يقدرون عليه في جلْب

---

(١) سورة الطلاق: ٣.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) سورة آل عمران: ١٧٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٧٣.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ (٤٥٦٣).

المنافع، ودفْع المضار، وهذا لا يجوز أنْ يكون إلّا لله، فإذا صُرف لغير الله صار شركا.

القسم الثَّاني: التوكل على الحي الحاضر فيما يقدر عليه، فهذا جائز لكنْ بِشَرْط أنْ يكون مِن باب التوكيل، وليس مِن باب التوكل، أنْ يتوكل على الله في كُل أحواله حتى في هذا الشيء الذي يقدر عليه هذا الإنسان، لو أرسلت هذا الشخص ليشتري لي بضاعة مِن السوق أُوَكِّلُهُ بهذا الأمر لكنْ أتوكل على الله في هذا الأمر.

فالتوكل يجب ألّا يُصرف إلّا لله، وإذا فوضتُ مخلوقًا فيما يقدر عليه فأنا أوكّله في هذا الأمر، لكنَّ اعتماد القلب يجب ألّا يكون إلّا على الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. في اللغة العربية إذا تَقَدَّمَ المعمول على العامل فيدل على ماذا؟ على الحَصْر، ولهذا هنا تَقَدَّمَ المعمول، أصل الكلام: توكلوا على الله إنْ كنتم مؤمنون، ولكنْ لَمَّا تَقَدَّمَ المعمول: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ﴾ دَلَّ على أنَّ التوكل لا يجوز أنْ يُصرف إلّا لله وحده، ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ﴾ في الآية الأخرى ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[2]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[3]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[4] وهنا لفتة جميلة في: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ﴾ يعني اعتمد بقلبك على مَن؟ على الله عَزَّ وجَلَّ الحي الذي لا يموت، أمَّا توكلك على الأحياء -على المخلوقين- فهؤلاء سيموتون وَا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فضلًا أنْ يملكوا لغيرهم، فإذا توكلت فلا تتوكل إلّا على الحي الذي لا يموت، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[5].

والنبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي سبق في القِسْم الأوَّل لَمَّا ذكر السبعين ألْفا الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب ذكرهم أنهم ماذا؟ «الَّذِينَ لا يَتَطَيَّرُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[6]، ولهذا صار هذا المقام مِن أعلى المقامات، الاعتماد الكامل، والتفويض الكامل على الله عَزَّ وجَلَّ، هذا

---

(١) سورة المائدة: ٢٣.

(٢) سورة يونس: ٨٤

(٣) سورة هود: ١٢٣.

(٤) سورة الفرقان: ٥٨.

(٥) سورة التوبة: ١٢٩.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو (٥٧٠٥)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة (٢١٨).

لا يتأتى لكُلّ إنسان إلّا مَن قوي إيمانه، ووثِق بالله عَزَّ وجَلَّ الثقة التامة المطلقة، ولهذا تعرفون قِصَّة خالد رضي الله عنه لَـمَّا شرب السُّمَّ؛ لأنه توكل على الله حَقّ التوكل. ولهذا اختلف العلماء في قضية أنْ يتبرع الإنسان بكامل ماله كما صنع أبو بكر رضي الله عنه، قالوا: يُكره أنْ يفعل الإنسان هذا الأمر، لماذا؟ وأبو بكر رضي الله عنه فَعَلَ هذا الأمر وأثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: ومَن هو في درجة أبي بكر في قوة الاعتماد والتوكل على الله عَزَّ وجَلَّ؟ لكنَّ مَن عداه ربَّما يتبرع بماله فيضعف عنده التوكل واليقين فيندم فيخسر الدنيا والآخرة.

ثُمَّ ذكر قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ إلى أنْ قال: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]، هذا هو الشاهد: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بمعنى: أنه حَصَر التوكل على الله عَزَّ وجَلَّ.

ثُمَّ ذكر قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. ما معنى ﴿حَسْبُكَ اللهُ﴾؟ الله كافيك، وكافي المؤمنين، هذا هو القول الصحيح في معنى الآية، الله حسبك وأيضًا حسْب المؤمنين، وليس كما ظنه البعض معناه: الله حسبك والمؤمنون أيضًا حسبك، فإنَّ الحَسْب الذي هو الكافي لا يكون إلّا على الله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[3] النصر، والتأييد لا مانع، فالله عَزَّ وجَلَّ أيَّده وأيَّده بالمؤمنين، ولكنَّ الحَسْب على الله وحده.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[4]، بمعنى أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ هو حَسْبُنا وحده، ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ بمعنى الله كافينا وحدنا[5].

ثُمَّ قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[6] وهنا أيضًا فيه لفتة جميلة لَم يقل: ومَن يتوكل على الله فله كذا وكذا مِن الأجر، بَل ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ بمعنى أنَّ الله سبحانه وتعالى كافيه هَمّ الدنيا وهَمّ الآخرة، ولا حصر لذلك.

---

(١) سورة الأنفال: ٢.

(٢) سورة الأنفال: ٦٤.

(٣) سورة الأنفال: ٦٢.

(٤) سورة آل عمران: ١٧٣.

(٥) هكذا قال الشيخ، والصواب: وحده.

(٦) سورة الطلاق: ٣.

ثُمَّ قال: وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: (﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال له الناس: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾) رواه البُخَارِيُّ.

هذه الكلمة قالها إبراهيم لَمَّا رُمي بالمنجنيق في النار، وجاء في التفسير: أنَّ جبريل أتاه في الهواء، فقال له: هل لك حاجة؟ قال: «أما إِلَيْك فَلَا، وأما إِلَى ربي فنعم»، وقال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، فأمر الله عَزَّ وجَلَّ النار فانقلبت بردًا وسلامًا عليه.

والنبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحد - كما ثَبَتَ عن النبي صلى الله عليه وسلم في «صَحِيح البُخَارِيّ» - لَمَّا ولَّى المشركون، ثُمَّ توقفوا بعد هزيمة المسلمين، وبعد أنْ قُتِل منهم مَن قُتِل وبلغوا حمراء الأسد، اجتمع أبو سفيان بمَن معه وعزموا على أنْ يعودوا مرَّة أخرى فيقطعوا - كما زعم - شأفة المسلمين، وبلّغوا راكبًا مَرَّ بهم أنْ يبلِّغ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أنهم عازمون على العودة إليهم، والنبي صلى الله عليه وسلم في المقابل اجتمع مع سبعين مِن أصحابه فلحقوا بهم فأدركهم هذا الراكب، وأخبرهم بعَزْم أبي سفيان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»(١).

بَابٌ

قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلَّا الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ ﴾(٢).

وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾(٣).

وعن ابن عَبَّاسٍ(٤) رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن الكبائر؟ فقال: «الشِّرْكُ بِالله، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ (٤٥٦٣).

(٢) سورة الاعراف: ٩٩.

(٣) سورة الحجر: ٥٦.

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٢٥٣/ ١٣٠٢٣) موقوفًا.

وعن ابن مسعود[1] رضي الله عنه قال: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ»[2] رواه عبد الرَّزَّاق.

أيضًا ذكر المؤلف بعد أنْ ذكر المَحَبَّة والخوف والتوكل، ناسب أنْ يذكر أيضًا أنَّ مِن نواقض التوحيد، ومِن القادح في كمال التوحيد الأمن مِن مَكْر الله عَزَّ وجَلَّ، فالأمن مِن مَكْر الله عَزَّ وجَلَّ قد ينافي كمال التوحيد، وقد ينافي أصل التوحيد، ولهذا ذكره المؤلف هنا. وبدأ ذلك بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3]. وأهل العِلْم ذكروا أنَّ المؤمن ينبغي أنْ يكون بين الخوف والرجاء، ألّا يغلب عليه الخوف فينتقل إلى ماذا؟ اليأس، وألّا يغلب عليه جانب الرجاء فيصل إلى الأمن. ولهذا الفَرْق بيْن الرجاء الذي هو ضِدّ الخوف، وبين الغرور الذي هو نوع مِن الأمن مِن مَكْر الله عَزَّ وجَلَّ ، الفَرْق بينهما أنَّ الرجاء يكون بعد العمل، كما ذكر ابن القَيِّم رحمه الله، أنَّ الإنسان يعمل ويقدِّم الطاعات، ثُمَّ يرجو الله عَزَّ وجَلَّ، هذا هو الرجاء الصحيح، أمَّا أنْ يقصّر في الطاعة، فهذا لا يُسَمَّى رجاء، إنما يُسَمَّى أمنا، ويسمى غرورا.

والمؤمن في مسيره إلى الله والدار والآخرة بين الخوف والرجاء – كما ذكر ابن القَيِّم وكما أسلفتُ – كحال الطائر، لكنْ حال الصحة وحال الحياة –قال أهل العِلْم كما قال سليمان الداراني وغيره–: عليه أنْ يغلّب جانب ماذا؟ جانب الخوف، لماذا؟ لأنه أدعى أنْ يجتهد في طاعة الله عَزَّ وجَلَّ، وأحرى أنْ يكون حائلًا له أنْ يقع في ما نهى الله عَزَّ وجَلَّ عنه مِن المعاصي والكبائر. وأمَّا إذا ودّع هذه الدنيا وحضرت وفاته، فعليه أنْ يغلِّب جانب ماذا؟ الرجاء؛ لأنَّ الآن انتهت الأعمال،لَم يبقَ بيده إلّا الرجاء، ولهذا جاء في الحديث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ

---

(١) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي. من أكابرهم، فضلًا وعقلًا، وقربًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. نظر إليه عمر يومًا وقال: وعاء ملئ علمًا. وولي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيت مال الكوفة. ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاما سنة ٣٢هـ. (تهذيب الكمال: ١٦/ ١٢١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ٤٥٩/ ١٩٧٠١)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٥٦/ ٨٧٨٤).

(٣) سورة الأعراف :٩٩.

الظَّنَّ بِرَبِّهِ»[1]، ويقول الله عَزَّ وجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»[2].

لَمَّا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[3]، قالت عائشة[4]: يا رسول الله كلنا يكره الموت، -هل معنى هذا أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ سيكره لقاءنا- فقال: «لَا يَا ابنة الصديق، لَكِن الْمُؤْمِن إِذَا حضرته الوَفَاة، ورأى مَا أعده الله عَزَّ وَجَلَّ لَهُ من النعيم أحب لقاء الله»[5]، أحَبَّ الانتقال إلى هذه الدار، ولهذا جاء في الحديث الآخر أنَّ المؤمن يقول: «عجلوني عجلوني»[6]؛ لأنَّ الذي ينتظره خير وأفضل مِن الشيء الذي ترك، وأمَّا الفاجر والكافر إذا رأى ما أعدَّه الله عَزَّ وجَلَّ له مِن العذاب والنكال، كره لقاء الله فكره الله لقاءه.

لكنْ ينبغي أيضًا أنْ نتنبه هنا إلى أمْر: أنَّ حُسْن الظن وسوء الظن عَمَل قلبي صِرْف، مبني على ماذا؟ على أعمال الجوارح، فكون الإنسان يُحسن الظن بربه إذا حضرت وفاته، هذا مبني على ماذا؟ على أعماله السابقة، ما سطّرته يداه، فإنْ قدَّم خيرًا أَحْسَن الظن بربه، حتى لو أراد أنْ يسيء الظن لا يمكن؛ لأنه إذا استعرض حياته ماذا يرى؟ صلاة، قيام، صدقة، طاعة لله عَزَّ وجَلَّ، اجتناب عن محارمه، ولهذا يُحْسِن الظن بربه، لكنَّ ذاك الشخص البطَّال العاصي الذي ضرب في كُلّ معصية بسهم لو أراد أنْ يُحْسِن الظن بربه ما استطاع، فهو عمل قلبي مبني على أعمال الجوارح.

ولهذا مسألة الأمن مِن مَكْر الله عَزَّ وجَلَّ هذا أمْر مُتَعَلّق بالقلب، ولهذا لا يجوز أنْ يأمن الإنسان مِن مَكْر الله عَزَّ وجَلَّ، كما أنه لا يجوز أنْ ييأس مِن رَوْح الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩١)، (٤/ ١٠٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (٢٦٨٣).

(٤) تقدمت ترجمتها.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ (٧٥٠٤)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (٢٦٨٥).

(٦) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

وقد صَف الله سبحانه وتعالى الخُلَّص من عباده بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾(١)، بين الخوف والرجاء، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾(٢)، ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٣)، لاحظوا الخوف والطمع والرجاء أتى بعد ماذا؟ بعد العَمَل، ويقول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(٤)، سألت عائشة رضي الله عنها - كما ثَبَتَ في الصحيح-: يا رسول الله أهُم الذين يسرقون ويزنون و... قال: «لَا يَا ابنة الصديق، هم الَّذِينَ يصلون ويصومون ويتصدقون ثُمَّ يخافون ألا يقبلها الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ»(٥). ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾(٦).

ويقول السلف رحمهم الله: مَن عَبَد الله عَزَّ وجَلَّ بالخوف وحده فهو حروري - بمعنى غلّب جانب الخوف - فهو حروري أيْ خارجي، ومَن عَبَد الله عَزَّ وجَلَّ بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومَن عَبَد الله بالحب وحده فهو زِنْدِيق، هذه حال غُلاة الصوفية، لا يصومون، ولا يصلون، ولا يفعلون أيَّ خير، ويقعون فى كُل المنكرات، ويزعمون أنهم يحبون الله عَزَّ وجَلَّ، وأنَّ هذه المَحَبَّة كافية أنْ توصلهم إلى مرضاة الله عَزَّ وجَلَّ. ومَن عَبَد الله عَزَّ وجَلَّ بالحب والخوف والرجاء فهو المؤمن.

يقول: وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾(٧)، وعن ابن عَبَّاسٍ(٨) رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكبائر، فقال: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ»(٩) رواه البَزَّار بإسناد حسن.

---

(١) سورة الزمر: ٩.

(٢) سورة الأنبياء: ٩٠.

(٣) سورة السجدة: ١٦.

(٤) سورة المؤمنون: ٦٠.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن- باب ومن سورة المؤمنون (٣١٧٥)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦٢).

(٦) سورة البقرة: ٢١٨.

(٧) سورة الحجر: ٥٦

(٨) تقدمت ترجمته.

(٩) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٢٥٣/ ١٣٠٢٣) موقوفًا.

الله عَزَّ وجَلَّ قال: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1]؛ لأنَّ فيه إساءة ظن بالله عَزَّ وجَلَّ، كوْن الإنسان ييأس مِن رَوْح الله عَزَّ وجَلَّ، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾[2] فالقنوط مِن رحمة الله عَزَّ وجَلَّ هذه صفة الكفار، بل المؤمن مطلوب منه أنْ يعمل، وإذا وقع في ذنب أنْ يقلع وأنْ يستغفر، ولا ييأس مِن رَوْحِ الله عَزَّ وجَلَّ، لكنْ كما ذكرت لكم كوْن الإنسان يقصّر في طاعة الله عَزَّ وجَلَّ أو يقع فيما نهى الله عَزَّ وجَلَّ عنه، ثُمَّ يقول: أرجو رحمة الله عَزَّ وجَلَّ، فهذا يُسَمَّى غرورا. إذًا معنى اليأس مِن رَوْحِ الله: أنْ يقطع الرجاء والأمل مِن الله عَزَّ وجَلَّ، وكما ذكرت هذا فيه إساءة ظن بالله عَزَّ وجَلَّ وجهل بسعة رحمته سبحانه وتعالى ومغفرته وجوده.

ثُمَّ قال: وعن [ابْن عَبَّاسٍ][3] رضي الله عنهما قال: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ»[4]، وهو أشد أنواع اليأس.

إذًا مِن هذه النصوص يتبين أنَّ اليأس مِن رحمة الله عَزَّ وجَلَّ الذي تحمل صاحبها على أنْ يُسيء الظن بربه سبحانه وتعالى، وأنْ يُسيء الظن بسعة رحمة الله عَزَّ وجَلَّ، أنَّ هذا قادح في أصل التوحيد، وبقدر ما يكون عند الإنسان مِن اليأس بقدر ما ينقص توحيده. فالأصل أنْ يُحسن الإنسان الظن بربه سبحانه وتعالى، وإذا عمل طاعة أنْ يرجو ثوابها، وأنْ يخاف مِن عدم قبولها، لكنْ لا يحمله هذا الخوف إلى اليأس، كما أنَّ مَن فعل ذنبًا، فعليه أنْ يستغفر، ويبادر كما قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾[5]، بادر إلى التوبة، لكنْ لا تقنط أو تيأس مِن رَوْحِ الله عَزَّ وجَلَّ، اصدق مع ربك في التوبة، وأمل خيرًا أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ سيغفر لك، وإذا وصلت إلى هذه الدرجة فقد شابهت أباك آدم، ومَن شابه أباه فما ظلم.

آدم وقع في المعصية، وقع في الذنب، وقع فيما نهاه الله عَزَّ وجَلَّ عنه، لكنه ماذا؟ عَلِم أنَّ رحمة الله عَزَّ وجَلَّ

---

(١) سورة يوسف: ٨٧

(٢) سورة الزمر: ٥٣

(٣) هكذا قال الشيخ، والصواب: ابن مسعود.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ٤٥٩/ ١٩٧٠١)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٥٦/ ٨٧٨٤).

(٥) سورة الزمر: ٥٣

واسعة، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]، ولهذا تاب الله عَزَّ وجَلَّ عليه، لاحظ لَمَ ييأس مِن رحمة الله عَزَّ وجَلَّ، بادر بالتوبة فتاب الله عليه، بخلاف إبليس، وهذه حال اليائس الذي فَعَل ذنب، ويئس مِن رحمة الله عَزَّ وجَلَّ، فطرده الله عَزَّ وجَلَّ مِن رحمته.

بَابُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[2].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»[3].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[4] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[5].

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ[6] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»[7].

وَعَنْ أَنَسٍ[8] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[9].

---

(١) سورة الأعراف: ٢٣

(٢) سورة التغابن: ١١.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٢١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٦٦)، وفي «شعب الإيمان» (٧/ ١٩٦/ ٩٩٧٦).

(٤) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة ٥٩هـ. (تهذيب الكمال: ٣٤/ ٣٦٦).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (٦٧).

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز- باب ليس منا من ضرب الخدود (١٢٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب تحريم ضرب الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية (١٠٣).

(٨) تقدمت ترجمته.

(٩) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد- باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٦)، وابن ماجه في كتاب الفتن- باب الصبر على البلاء

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا اِبْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[1]، حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

انتقل بعد ذلك أيضًا إلى مسألة لها علاقة بالإيمان بالله عَزَّ وجَلَّ، فمِن لوازم الإيمان بالله عَزَّ وجَلَّ الصبر على أقدار الله عَزَّ وجَلَّ، فالصبر على أقدار الله مِن لوازم الإيمان بالله، مِن لوازم سلامة المعتقد، وممَّا يقدح في عقيدة المسلم التسخُّط مِن أقدار الله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا عقد المؤلف هذا الباب ليبين وجوب الصبر على أقدار الله.

وَالصَّبْرُ فِي اللغةِ: هو الحبس والكف، وأمَّا المقصود به هنا فهو الرضا بما قضاه الله وقدّره. وكما سيأتي إنْ شاء الله في باب القضاء والقَدَر كما فسَّره ابن عَبَّاسٍ: أنْ يعلم أنَّ ما أصابه لَمْ يكن ليخطئه وما أخطأه لَمْ يكن ليصيبه. فحَبْس النفس عن الجَزَع، هو الصبر على أقدار الله عَزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ ما يصيب الإنسان هذا أمْر سَبَق به القَدَر، وفي الحديث الصحيح: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يوم القِيَامَةِ»[2].

ثُمَّ ذكر هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[3] بعد أنْ قال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾[4]، أيّ مصيبة وقعت في هذه الأرض فقد سبق بها عِلْم الله عَزَّ وجَلَّ، سبقت بها مشيئة الله، سبق بها خَلْق الله، هذا ممَّا كتبه الله عَزَّ وجَلَّ عليك، ليس قبْل أنْ تُخلق، بل قبْل أنْ تُخلق السماوات والأرض بخمسين ألْف سنة[5]، فما قَدَّره الله عَزَّ وجَلَّ كائن، ولهذا مَن يؤمن بالله يهد قلبه، يقول ابن عَبَّاسٍ: يهد قلبه فيعلم أنَّ ما أصابه لَمْ يكن ليخطئه، وما أخطأه لَمْ يكن ليصيبه. هذه هي الهداية، فالمؤمن الحق سيوفَّق إلى هذا القَدْر مِن الإيمان بالقضاء والقَدَر.

ثُمَّ ذكر أثر عَلْقَمَة رضي الله عنه في معنى الآية: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها مِن عند الله فيرضى

(٤٠٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢١١٠).

(١) ما قبله.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة- باب في القدر (٤٧٠٠)، والترمذي في كتاب القدر- باب ما جاء في الرضا بالقضاء (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٨).

(٣) سورة الأعراف :٢٣.

(٤) سورة التغابن : ١١.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب القدر- باب حجاج موسى وآدم عليهما السلام (٢٦٥٣).

ويُسلّم، وهذا مِن أعظم لوازم الإيمان بالقضاء والقَدَر، أليس مِن لوازم الإيمان أنْ يؤمن الإنسان بأصول الإيمان الستة؟ ولا تصحُّ عقيدة مسلم إلّا باستكمال هذه الأصول الستة، فإذا أخَلَّ بشيء منها، أَخَلَّ بعقيدته، واختل توحيده وإيمانه، ومِن هذه الأصول الستة الإيمان بالقضاء والقَدَر. ما المقصود بالإيمان بالقضاء والقَدَر؟ ليس الإيمان بالقضاء والقَدَر ما يردده الإنسان بلسانه، يقول: آمنت بقضاء الله وقدَره، هذا لا قيمة له. الإيمان بالقضاء والقَدَر هو ما جاء في الحديث: «وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[1]، ولهذا لا بد مِن الصبر على أقدار الله عَزَّ وجَلَّ.

«واعلم أَن الأمة لَو اجْتَمعُوا عَلَى أَن ينفعوك بِشَيْء لم ينفعوك إِلَّا بِشَيْء قَدْ كتبه الله لَك، وَلَو اجْتَمعُوا عَلَى أَن يضروك بِشَيْء لم يضروك إِلَّا بِشَيْء قَدْ كتبه الله عَلَيْك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[2]، انتهى الأمر. ولهذا المؤمن الحق هو الذي لا يحزن على ما مضى، لا يأسى على ما مضى، ولا يقلق ويتحسر مِمَّا لَمْ يأتِ، لماذا؟ لأنه يعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ كُل ما جرى، وما سيجري، إنَّما هو بقضاء الله وقَدَره، سيسَلِّم ويستسلم. لكنْ سنذكر لاحقا أنه لابد مِن فِعْل السبب. فمِن لوازم الإيمان بالقضاء والقَدَر، ومِن لوازم الصبر على القضاء والقَدَر، أنْ يفعل الإنسان السبب، بل أنَّ السبب أو فِعْل السبب جزء مِن الإيمان بالقضاء والقَدَر.

أيضًا في الحديث الصحيح: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ لَا يَقْضِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خيرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[3]، ولهذا هو يتقلب ما بين الشكر والصبر.

يقول: وفي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حديث أبي هُرَيْرَةَ[4] رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٨٢)، وأبو داود في كتاب السنة- باب في القدر (٤٦٩٩)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب في القدر (٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الشيخ الألباني في كتاب «التوسل» (٣٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق- باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩)، من حديث صهيب بن سنان الرومي بلفظ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

(٤) تقدمت ترجمته.

«اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[1]. النبي صلى الله عليه وسلم: قال هاتان الخصلتان مِن أعمال أهل الجاهلية، أهل الكفر، وهماس (**الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ**)، والشاهد: (**النِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**)؛ لأنَّ النياحة على المَيِّت فيها شيء مِن ماذا؟ التَجَزُّع وعدم الصبر على القَدَر، (**هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ**)، يعني شُعْبَة مِن شُعَب الكفر، وليس مَن قامت به شُعْبَة مِن شُعَب الكفر أنه يكفر، ويخرج عن دائرة الإسلام، كما أنَّ مَن قامت به شُعْبَة مِن شُعَب الإيمان لا يلزم أنْ يستكمل كامل الإيمان. ولهذا جاء الكفر هنا مُنَكَّرًا، فالمقصود به الكفر الأصغر كما ذكر أهل العِلْم، بخلاف ما إذا كان مُعَرَّفًا.

قال: (**الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ**)، وَتَقَدَّمَ الكلام في قضية الطعن في النّسَب، أنْ يطعن في نسب شخص مِن الأشخاص، أنَّ فلانا ليس ابن فلان، أو فلان ليس مِن العائلة الفلانية، أو ليس مِن القبيلة الفلانية، بناءً على التشهّي وهوى النَّفْس، فهذا مِن أمور الجاهلية، وذَكَرَه النبي صلى الله عليه وسلم أنه مِن خصال الكفر.

أيضًا: (**النِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**)، وهي رفْع الصوت بالندب والتجزع، أمَّا مُجَرَّد الحزن والبكاء، فهذا لا يُلام عليه، النبي صلى الله عليه وسلم ماذا قال لسعد لَمَّا رُفعت إليه ابنة ابنته ونفسها تقعقع، دمعت عينا النبي صلى الله عليه وسلم، فقال سعد: ما هذا؟ قال: «رحمة يضعها الله عَزَّ وَجَلَّ فِي قلوب من شَاءَ من عباده»[2]. ولَمَّا مات ابنه إبراهيم قال: «إن القلب ليحزن وَإِن العَيْن لتدمع وَلَا نقول إِلَّا مَا يرْضِي الرَّبّ»[3]. فالحزن والبكاء لا يُلام عليه الإنسان، هذا أمْر جِبلِّي. ولهذا لَمَّا ذكر شيخ الإسلام قصة الفُضَيل لَمَّا أتاه خبر وفاة ابنه عِليّ، يقال: إنه ابتسم، يعني مِن باب التسليم المطلق لِمَا قضاه الله وقدّره، قال شيخ الإسلام: لكنَّ حال النبي صلى الله عليه وسلم أكمل مِن حال الفضيل؛ لأنه جمع بين الصبر والشكر، الفُضَيل ما استطاع أنْ يجمع بين الاثنين، والنبي صلى الله عليه وسلم في موضع الحزن حزن وبكى، فالحزن والبكاء ليس مِن النياحة المَنْهِيّ عنها التي تتنافى مع الصبر على أقدار الله، والتي تقدح في التوحيد.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز - باب في البكاء على الميت (٣١٢٥) بلفظ: «إِنَّهَا رَحْمَةٌ وَضَعَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاء».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم إنا بك يا إبراهيم لمحزونون (١٣٠٣)، ومسلم في كتاب الفضائل- باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال (٢٣١٥).

ثُمَّ ذكر حديث ابن مَسْعُودٍ[1] مرفوعًا عند «البُخَارِيِّ» و«مُسْلِم»: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[2].

(ضَرَبَ الخُدُودَ)، أشار إلى الضرب على الخدود؛ لأنه هو الغالب في حال الحزن، ولكنْ لو جاء إنسان وضرب صدره، أو ضرب منكبه، فيعتبر ممَّن تَجَزَّع وممَّن هو داخل في هذا النص، أيضًا شَقُّ الجيوب وهو الموضع الذي يُدخل معه الرأس، وهذا غالبًا أهل الجذع يسلكون هذا المسلك، أيْ: يشق جيبه. لاحظ كُلّ هذه أعمال ليس المقصود فقط حزن قلب ودمع عين، لا، هناك أعمال شق، ولطم.

أيضًا ذكر أنَّ ممَّن ورد فيهم هذا الوعيد (وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ)، كالدعاء إلى القبائل والعصبية، وأيضًا مثله التعصب للقبائل والمشائخ ممَّا ليس له أصل في الشرع، فكُلّ هذا مِن دعوى الجاهلية.

أمَّا قوله عليه الصلاة والسلام: (لَيْسَ مِنَّا) فهذا ورد في أحاديث كثيرة وهي مِن أحاديث الوعيد التي تُجرى على ظاهرها، ولهذا نقل شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض السلف أنهم كرهوا أنْ تُؤَوَّل مِثْل هذه النصوص. ما معنى أنْ تُؤَوَّل؟ بمعنى تُفسَّر؛ لأجْل أنْ لا يضعف فيها جانب الوعيد، فالأصل أنْ تُحْمَل على ظاهرها، ولا يعتقد الإنسان أنَّ فيها تكفير وإخراج عن دائرة الإسلام، لكنْ يجب أنْ تبقى على ظاهرها، لتحمل هذا المعنى (لَيْسَ مِنَّا)، ليس على طريقتنا، ليس على منهجنا، ليس مِن مِلَّتِنَا، مَن فعل هذه الأمور.

قال بعض أهل العِلْم: معنى (لَيْسَ مِنَّا)، أيْ ليس مِنَّا على الطريقة الكاملة، فالمقصود الكمال؛ لأنَّ هذه الأمور إذا ضُمَّت إلى أحاديث ونصوص أخرى، لا تخرج الإنسان عن دائرة الإسلام الكامل، وإنَّما تقدح في كمال التوحيد، وفي كمال الإيمان.

ثُمَّ قال: حديث أنس[3] رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا»[4] أيْ: أصابه ببعض المصائب والبلايا، ليطهِّره مِن الذنوب والخطايا، والنبي صلى الله عليه

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز- باب ليس منا من ضرب الخدود (١٢٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب تحريم ضرب الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية (١٠٣).

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد- باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٦)، وابن ماجه في كتاب الفتن- باب الصبر على البلاء

وسلم ذكر أنَّ المؤمن يُكفِّر الله عَزَّ وجَلَّ له بكُلِّ شيء يصيبه حتى الشوكة يُشَاكُهَا[1]، وهذا مِن رحمة الله عَزَّ وجَلَّ بالمؤمن، أنَّ كُل ما يصيبه في هذه الدنيا يكفِّر به مِن ذنوبه، لأجْل ماذا؟ لأجْل أنْ يَقْدِم على الله عَزَّ وجَلَّ، وهو خالص سليم مِن هذه الذنوب والخطايا، لا يحتاج إلى أنْ يُطهر بالنار.

الحديث الآخر: «لَا يزال البلاء بالمؤمن حَتَّى يمشي عَلَى الأَرْض مَا عَلَيْهِ من خطيئة»[2]، وهذه مِن رحمة الله عَزَّ وجَلَّ، أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يبتلي هذا العبد المؤمن إلى أنْ يصل إلى درجة أنه يمشي على الأرض كحال الملائكة ليس عليه أيّ خطيئة، أيّ ذنب.

وفي الحديث الآخر: «أشد النَّاس بلاءً الأنبياء ثُمَّ الأمثل فالأمثل»[3]. فمِن إرادة الله عَزَّ وجَلَّ الخير بعبده المؤمن أنه إذا اقترف شيئًا مِن الخطايا والذنوب أنْ يصيبه بشيء مِن المصائب، ليكفِّر الله عنه هذه الخطايا، وليمحِّص الله عَزَّ وجَلَّ عنه هذه الذنوب.

(وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وهذا ليس علامة خير، أنَّ الإنسان لا يُبتلى بشيء مِن أنواع البلايا، أيًّا كانت هذه البلايا، فإنَّ هذه كما ذكر هنا علامة شر، وذلك أنَّ الإنسان يَقدُم على الله عَزَّ وجَلَّ ولَم تُكفَّر عنه سيئة، فيحتاج إلى ماذا؟ التطهير، فقد لا يطهر إلّا بالنار، قد لا يكون معه حسنات ترجح بسيئاته، قد لا تناله شفاعة الشافعين، فيحتاج إلى أنْ يطهَّر بالنار.

الشاهد مِن الأثَر أنَّ المؤمن إذا أصابه الله عَزَّ وجَلَّ بعقوبة عليه أنْ يصبر، وأنْ يعلم أنَّ هذا مِن الله، وبقَدَر الله عَزَّ وجَلَّ، وأنَّ الله أراد به خيرًا. ولهذا دائمًا التسليم بالقَدَر فيه خير؛ لأنك لا تدري، حتى لو ظهر لك أنَّ هذا الأمر الذي حصل لك شر، أو هذا الشيء الذي صُرف عنك خير إنْ كُنْت ترجوه، لا تدري ما يُخفي لك القدر، ربَّما يكون هذا الخير الذي كُنْت تسعى إليه جاهدًا، أنْ يكون لو حصل لك لكان سببًا لهلاكك، سببًا لضلالك،

(٤٠٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢١١٠).

(١) أخرجه البخاري في كتاب المرضى- باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم في كتاب البر والصلة- باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد- باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجة في كتاب الفتن- باب (٤٠٢٣). وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣٦٩)، وقال شعيب الأرنؤوط : «حديث صحيح لغيره».

سببًا لانحرافك، فصرفه الله عَزَّ وجَلَّ عنك لأمرٍ عَلِمه وجهلته أنت، ولهذا المطلوب منك أنْ تفعل السبب، لكنْ إذا جاء الأمر على غير ما تريد ، أنْ تصبر على قَدَر الله وتسلِّم لأمر الله عَزَّ وجَلَّ.

ثُمَّ ذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا اِبْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)، حَسَّنَه التِّرْمِذِيُّ. أيْ مَن رضي بما قضاه الله عَزَّ وجَلَّ وقدَّره عليه مِن الابتلاء، فله الرضا مِن الله عَزَّ وجَلَّ، والجزاء الوافر مِن الله عَزَّ وجَلَّ، والله سبحانه يقول يوصف بالرضا ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1]، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[2]. وقد أنكر هذه الصفة الجَهْمِيَّة، ومَن تبعهم مِن المعتزلة والأشاعرة. فهنا (فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا)، بمعنى أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يرضى عنه، ويثيبه على هذا الرضا بقضاء الله وقدره، أمَّا مَن سخط فجزاؤه السَّخط، والسَّخط هو أشد أنواع الكراهية، هو نوع مِن الكُرْه لكنَّه أخفُّ.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[3].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[4] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[5]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ[6] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَى قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ»[7] رَوَاهُ أَحْمَدُ.

---

(١) سورة البينة : ٨.

(٢) سورة الفتح : ١٨.

(٣) سورة الكهف : ١١٠.

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق- باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٠)، وابن ماجه في كتاب الزهد- باب الريا والسمعة (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٣٣).

انتقل بعد ذلك أيضًا إلى بعض الأعمال التي تنافي كمال التوحيد أو أصل التوحيد، ألَا وهو الرياء.

والرياء مصدر رَاءَى يُرَائِي مُرَاءَاة، وهو أنْ يُرِيَ الناس أنه يعمل عملًا على صفة وهو يضمر خلافها.

وعُرِّف الرياء بأنه إظهار العبادة أو تحسين العبادة على خلاف ما في قلبه.

وعرَّفها بعض أهل العِلْم أنها: مراعاة الخَلْق على حساب الخالق. أنْ يُراعي بعمله هذا الخلق، كلام الناس، نظر الناس على حساب الإخلاص لله عَزَّ وجَلَّ في هذه العبادة.

الشاهد: أنَّ الرياء: أنْ يُظهر الإنسان أو أنْ يَظْهر منه خلاف ما في باطنه وقرارة نفسه.

الرياء قد يأتي على أصل جميع الأعمال وهو الرياء الأكبر، وهو النفاق الأكبر، بحيث أنْ تكون أعماله كُلّها مُراءاة للناس، فهو يُظهر للناس أنه يؤمن بالله، يؤمن بالملائكة، يؤمن بالرسل، يُصَلّي، يصوم، لكنَّه في الباطن منسلخ مِن هذا كُلّه، مُكَذِّب لهذا كُلّه، وهذه حال المنافقين، وهذا مناقض تمامًا لأصل التوحيد، لا يبقى معه شيء مِن التوحيد، بل حال هذا أشد مِن حال الكفار، ولهذا توعدهم الله عَزَّ وجَلَّ بأنهم في الدَرْك الأسفل مِن النار، وأنهم يخادعون الله وهو خادِعُهم.

ومِن الرياء ما يكون في يسير العمل، أو في بعض الأعمال دون بعضها، بمعنى أنَّ الأصل أنَّ الإنسان في عبادته لله عَزَّ وجَلَّ، لكنْ قد يطرأ عليه الرياء في عمل ما، سواءً في أصله أو في كماله. مثال ذلك: أنْ يقوم الإنسان يتنَفّل مثلًا سُنَّة الضحى لأجل الناس ابتداءً، أصلا هو ما يتنفل لله، فلأجل نظر الناس قام وصلَّى الضحى، نقول: هذا الرياء أتى على أصل هذه العبادة، والقول الصحيح في هذا أنها فاسدة، وأنها باطلة، وأنه آثِم على هذا الفعل، لماذا؟ لأنه أشرك مع الله عَزَّ وجَلَّ في هذا العمل.

وأحيانًا يكون الرياء ليس في أصل العمل وإنما في كمال العمل، رجل قام يُصَلّي في الأصل لله عَزَّ وجَلَّ، لكنَّه حَسَّنها أو زاد في ركوعها وسجودها لأجْل نظر الناس. هنا اختلف أهل العِلْم، شيخ الإسلام يقول: إنْ كان طارئا عرض لقلبه ودافعه وأبعده، فهذا إنْ شاء الله لا يُؤَثِّر عليه؛ لأن هذا مِن الشيطان وهو يحاول أنْ يفسد على الإنسان عَمَله، وأمَّا إنِ استمرأه، عرض على قلبه فاستمرأه واستسلم له، فبعض أهل العِلْم يقول: إنَّ هذه العبادة تفسد جملة وتفصيلا في أصلها. وبعضهم قال: إنْ غَلَبَ الرياء عليها أفسدها، وإنْ كان في يسير منها فينقص أجره بقَدْر ما صاحبها مِن الرياء، وعلى كُل حال فهذا ذنب عظيم ينبغي للمؤمن أنْ يتحرز منه؛ لأنه يقدح في توحيده

وفي إيمانه.

ذكر المؤلف قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1].

الشاهد: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، هذا مِن باب التأكيد ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ نُقل عن عُمَر، ونُقل عن الفُضَيْلِ أنهما قالا: العمل الصالح هو ما كان خالصا صوابا. خالصا: أيْ لوجه الله عَزَّ وجَلَّ، وصوابا: ما كان على السُّنَّة. ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أيْ: لا يرائي، أنْ يكون هذا العمل خالصًا لوجه الله عَزَّ وجَلَّ، لا يراعي فيه مخلوقًا كائنًا مَن كان، ولهذا كما ذكرت لكم بالأمس قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2]، أيْ: أخلصه وأصوبه، ما قال: أكثركم عملا. والأعمال عند الله عَزَّ وجَلَّ لَا تتفاوت وتعظم بكثرتها، وإنما بما صاحبها مِن الإخلاص، وبما قام بقلب صاحبها مِن الإخلاص، فإذا راعى العبد كلام الخَلْق أو نظر الخَلْق نقص هذا العمل وإنْ كان كثيرًا، بل ربما أفسد هذا العمل. في «صَحِيح البُخَارِيّ» أنَّ عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «يَا رَسُولَ الله عَبْد الله بْن جدعان كَانَ يطعم الحجاج»، - يُطْعِم مَن؟ وُفود الرحمن، حتى ذكر ابن كثير أنه فيما ذُكِرَ: أنَّ القِدْر الواحد لا يحمله إلّا العُصبة مِن الرجال، يطعمهم مجانًا دون مقابل- «فَهَلْ ينفعه هَذَا العَمَل؟» -ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟- «لَا يَا ابْنَة الصِّدِّيق، لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[3]، ما كان هذا العمل خالصًا لوجه الله، فَعَلَه سُمْعة ورياءً وفخرًا وخُيَلاء، فلَم ينتفع بهذا العمل.

في مقابل ذلك في «صَحِيح البُخَارِيّ» ذكر النبي صلى الله عليه وسلم المرأة البَغِيّ، مَن هي البَغِيّ؟ ليست الزانية، إنما التي اتخذت الزنا حرفة، تتكسب بفرجها، غفر الله لها لأجْل ماذا؟ هل أطعمت الحجاج؟ هل أطعمت المصلين؟ سقت كلبًا.

يقول ابن القَيِّم: سقت حيوانًا مِن أخَسِّ الحيوانات، حتى ليس مِن أشرف الحيوانات، لَم تسق جملًا ولا خيلًا

---

(١) سورة الكهف: ١٢٠.

(٢) سورة الملك: ٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٢١٤).

ولا طائرًا، سقت هذا الكلب، الذي نُهي المسلم أنْ يتخذه إلّا لحاجة، وغفر الله لها هذا الذنب العظيم بهذا العمل اليسير. يقول رحمه الله: لأجْل ما قام بقلبها مِن الإخلاص، غُفر لها بسبب الإخلاص لا بسبب العمل.

أبو طالب يا إخوان مِن أعظم مَن قدَّم خدمة للإسلام، صبر وصابَر، ونافح عن النبي صلى الله عليه وسلم، صبر على اللأواء، صبر على المقاطعة، قوطع ثلاث سنوات في الشِّعْبِ، أكلوا أوراق الشجر، ومع ذلك صبر على هذا الأمر، في حماية النبي صلى الله عليه وسلم، أو أنْ ينال النبي صلى الله عليه وسلم سوء، ومع ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في «صَحِيح البُخَارِيّ»: «فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ»[1]، لأنه لَم يكن هذا العمل خالصا لوجه الله عَزَّ وجَلَّ.

في المقابل ذاك الرجل الذي خرج يقاتل مع النبي صلى الله عليه وسلم ما سجد لله سجدة ودخل الجنَّة لماذا؟ لأنَّ هذا العمل كان خالصا لوجه الله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا يحذر المسلم أشد الحذر مِن الرياء. فهنا مِن القوادح التي تقدح في التوحيد الرياء.

يقول عن أبي هُرَيْرَةَ مرفوعًا: (قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) أيْ: إذا قصد بهذا العمل مخلوقًا تركته وعمله. الله عَزَّ وجَلَّ أغنى عن الشرك، أغنى الشركاء عن الشرك، أيُّ عمل يخالطه شيء مِن الشرك يدع هذا العمل، الله عَزَّ وجَلَّ لا يقبل مِن الأعمال إلّا ما كان خالصًا له سبحانه وتعالى.

ثُمَّ ذكر حديث أبي سعيد مرفوعًا: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟) قالوا: بلى قال: (الشِّرْكُ الخَفِيُّ). سمَّاه شركًا خفيًّا، لخفائه على الناس، وخفائه حتى على الشخص، وأيضًا قوة الداعي إليه، وشدة التخلص منه.

أكثر ما يُبْتَلَى به أهل الإيمان هذا الداء، الشيطان في غالب الأحيان يَئِسَ مِن أهل الإيمان الذين قام الإيمان في قلوبهم أنْ يصرفهم عن هذا الإيمان، أو أحيانا أنْ يوقعهم في المنكرات، لكنْ سَهُلَ عليه أنْ يبتليهم بهذا الداء الخطير، ألَا وهو الرياء. النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب قصة أبي طالب (٣٨٨٥)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم (٢١٠).

الدَّجَّالِ؟) لماذا؟ لأنَّ المسيح شره ظاهر، شره واضح للعيان يستطيع الإنسان أنْ يتحرز منه، يهرب منه، والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر أنه لا يدخل مكَّة والمدينة، يبتعد عنه، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالابتعاد عنه، لكنَّ الرياء ؟ لا، فهو خفي، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «إن الشِّرْكَ فِي هَذِهِ الأمة أخفى من دبيب النَّمْلَة السَّوْدَاء عَلَى صخرة سوداء فِي ظلمة الليل»[1]. ذكر أهل العِلْم أنَّ هذا هو الشرك الخفي الذي هو الرياء.

قال: (يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهَ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ). والله عَزَّ وجَلَّ قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[2]. وفي الحديث الآخر في «صحيح مسلم»: «أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ» مَن؟ «قارئ القُرْآن والمجاهد». أوَّل مَن تُوقَد بهم النار، كُلّ واحد يقول: قرأت القرآن فيك، جاهدت فيك، «يَقُول الله عَزَّ وَجَلَّ: كذبت، قرأت ليقال: قارئ، فيؤمر بِهِ إِلَى النارِ، قاتلت ليقال: مجاهد، وَقَد قِيلَ»[3]، حصل لك ما أردت، أمَّا اليوم فهذا العمل لا قيمة له؛ لأنك لَم ترد به وجه الله عَزَّ وجَلَّ.

هنا مسألة: هل محبَّة الإنسان أنْ يُحمد على العمل هل هذا يُؤَثِّر في إخلاصه؟ الجواب: لا. إذا عمل الإنسان عملًا طيبًا وعمل عملًا خيِّرًا ثُمَّ حمده الناس، ولَم يستشرف إلى هذا الأمر، ولَم يكن الدافع لعمله هذا حَمْدُ الناس، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم سُئِل عنه فقال: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[4]، لكنْ إذا استشرفت نَفْسه إلى هذا الشيء، أو كان الدافع لعمله شيء مِنْ ذلك، فقد وقع في الرياء، لكنْ إنْ صَلَّى، عمل خَيْرا، صنع معروفًا، فعل أمرًا، فصار له أثر كبير جدًّا فحمده الناس على ذلك فلا شك أنَّ هذا إنْ شاء الله مِن عاجل بشرى المؤمن وليس مِن الرياء.

أيضًا إذا كان إظهار الإنسان لعمله بقصد أنْ يقتدي به غيره في الخير، هل يعتبر هذا مِن الرياء؟ الجواب: لا،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٥٨) بلفظ: «الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ».

(٢) سورة هود: ١٥.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة بلفظه كاملًا: «أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ»، وَذَكَرَ مِنْهُمْ قَارِئَ القُرْآنِ: «يُؤْتَى بِهِ فَيَعْرِفُ فِعْلَهُ، قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: قَرَأْتُ القُرْآنَ، تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَهُ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَهُ لِيُقَالَ: قَارِئٌ» حَتَّى يَأْتِيَ النَّاسُ يَصْفُونَ خَلْفَكَ الصُّفُوفَ، وَتَفْخَرَ بِذَلِكَ «فَقَدْ نِلْتَ هَذَا فِي الدُّنْيَا، فَيُسْحَبُ فَيُطْرَحُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ».

(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره (٢٦٤٢) من حديث أبي ذر.

والدليل على ذلك: لَـمَّا حضر الوفد الذين رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما فيهم مِن الفاقة والحاجة، فتمعَّر وجه النبي صلى الله عليه وسلم، يعني كيف هؤلاء بين أظهر المسلمين بهذه الحالة؟! فقام وخطب الناس وحثَّهم على الصدقة، فجاء رجل بِصُرَّة مِن ذهب أمام الناس، فوضعها في حَجَر النبي صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ تسابق الناس إلى الصدقة، فاجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم صدقات كبيرة، فتهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم فرحا واستبشارا، ولَم ينكر على ذاك الرجل، بل أثنى عليه وبشّره بهذا العمل، وقال: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»[1]، فإذا أظهر الإنسان عمله بقصد أنْ يقتدي الناس به، يعنى إذا كان مِن الأشخاص الذين يقتدى بهم فعلًا، ودعي مثلًا للتبرع، أو في عمل، أو في مجال مِن المجالات، في مكتبة ابن القَيِّم رحمه الله، وقام أمام الناس ووضع مالا عند الشيخ فهد، ليقتدي الآخرين، نقول: هذا عمل خير، بشرط أنْ لا يكون الدافع له الذي قام بقلبه لأجْل أنْ يحمده الناس، بل لأجْل أنْ يقتدي الناس به، فلا مانع.

هذا وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ الآيَةَ[2].

وفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[3] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[4].

بعد ذلك ذكر المؤلف رحمه الله باب مِن الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، هذا الباب مرتبط بالباب الذي قبله وهذا العمل نوع مِن الرياء، ولكنَّه أخَصُّ مِن الرياء، وذكر بعض الشُّرَّاح أنه أسوأ مِن الرياء؛ لأنَّ أصل العمل لأجْل ماذا؟ الدنيا، أراد به عَرَضًا مِن الدنيا، بخلاف المُرائي، فالمُرائي قد يكون أصل العمل لله عَزَّ وجَلَّ

(١) أخرجه مسلم من حديث جرير، كتاب الزكاة- باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٢) سورة هود: ١٥.

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) أخرجه «البخاري» في كتاب الجهاد والسير- باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧).

كما ذكَرْنَا لكم، وإنما الرياء يطرأ على هذا العمل، فيحسِّن هذا العمل، أو يزيد في هذا العمل، أو يُكثر مِن هذا الشيء لأجْل مُراءاة الناس.

مِن ناحية أخرى شيخ الإسلام رحمه الله قال: إنَّ الذي أراد بعمله الدنيا أعْقَلُ مِن المُرائي،كيف أعْقَلُ مِن المُرائي؟ يعني أكثر عقلًا مِن المُرائي، فهذا الشخص فَعَلَ هذا الشيء لفائدة محسوسة ملموسة يطمح إليها، بخلاف المُرائي، يرائي كلام الناس، والناس ليس لمدحهم ولا لذمهم حد، ولهذا قال: ومريد العمل بالدنيا هذا أعْقَلُ مِن المُرائي، وكلاهما خاسر.

إذًا مِن الشرك، ممَّا ينافي كمال التوحيد الواجب، ويُحبط الأعمال أنْ يريد الإنسان بعمله عَرَضًا مِن أعراض الدنيا، وكما قلت لكم أنَّ بعض أهل العِلْم عَدَّه أعظم مِن الرياء وأسوأ مِن الرياء؛ لأنَّ مريد الدنيا قد تغلب إرادته على جميع أعماله، فتكون أعماله كلها لأجْل الدنيا، لا يخرج يجاهد إلّا لأجْل أنْ يصيب عَرَضًا مِن الدنيا، لا يحج إلّا لأجْل أنْ ينال مِن هذه الدنيا، بخلاف المُرائي، المُرائي قد يخرج يحج في الأصل لله عَزَّ وجَلَّ لكنْ يطرأ عليه الرياء، يجاهد لله عَزَّ وجَلَّ لكنْ يطرأ عليه الرياء.

ذكر قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1]. ابْن عَبَّاسٍ يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أيْ: ثوابها، إنْ كان يريد بعمله ثواب الدنيا، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أيْ: مالها، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أيْ: نعطيهم ما أرادوا كاملًا غير منقوص، وهذا مِن الابتلاء والامتحان مِن الله عَزَّ وجَلَّ لهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾: لا يُنقَصون؛ لأنهم أرادوا بهذه الأعمال الدنيا، فأعطاهم الله عَزَّ وجَلَّ على قَدْر مرادهم.

ولهذا ذكر بعض أهل العِلْم أنَّ الكافر إذا عمل أعمالًا خيّرة، فهل يُثاب عليها أم لا؟ قيل: أنه يثاب عليها في الدنيا، وهذا مِن كمال عَدْل الله عَزَّ وجَلَّ، هذا الشخص قَدَّم عملًا خيِّرًا، مَثَلًا: تبرع لمشروعات خيِّرة، تصدَّق على الفقراء، أقام مستشفيات للمساكين، بَرَّ بوالديه، قدَّم خدمة للناس، فالله عَزَّ وجَلَّ يجازيه على هذا العمل، لكنْ قالوا: إنه يجازى في الدنيا، فربما أمَدَّ الله عَزَّ وَجَلَّ له في عمره، ربما أعطاه الله عَزَّ وجَلَّ مِن الصحة ما لَم يعطِ غيره، ربما أعطاه مِن المال، ربما صرف عنه مِن السوء، واستدلوا على ذلك بهذه الآية، هذا الرجل لَمَّا أنفق هذه النفقات

(١) سورة هود: ١٥، ١٦.

يريد الحياة الدنيا لا يريد الآخرة، كحال عَبْد الله بن جدعان، كحال أبي طالب، يريد الحياة الدنيا، فالله عَزَّ وجَلَّ قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾، لكنَّ في الآخرة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾، لا حسنات له، قَدِمَ إلى الله عَزَّ وجَلَّ وقد استوفى جميع حسناته، استهلكها. وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[1]، أثبت لهم أعمالهم ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾،لَم ينتفعوا بهذا العمل، إنْ كان فيها خير فانتفعوا بها في الدنيا.

ويقاس عليه كُل مَن عمل طاعة وعبادة أراد بها، ماذا؟ عَرَضًا مِن الدنيا، فإنَّ الله عَزَّ وجَلَّ ربما يعطيه على ماذا؟ على ما أراد، أنت أردت بهذا العمل الدنيا، قد يُعْطَى مِن الدنيا حظه في ذلك، لكنَّ هذا يعتبر معصية وذنب، أوَّلًا إنْ كانت طاعة لا ينتفع بهذه الطاعة، ثُمَّ أيضًا ليس الأمر عند هذا الحدّ فَحَسْب، بل سيُسْأل عن ذلك ويحاسب عليه.

ثُمَّ قال: وفي الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**تعِس عبد الدينار**)، (**تعِس**) بكسر العين، أيْ: سقط وهلك، وهذا مِن باب الدعاء، أيْ: دعاء مِن النبي صلى الله عليه وسلم عليه بالهلاك، لماذا؟ لماذا دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك (**تعس عبد الدرهم**)؟ وسمَّاه النبي صلى الله عليه وسلم عبدا للدرهم، فقد استعبده هذا الدرهم، ولهذا عمل هذه الطاعة لأجْل الدرهم، فكأنه اتخذ هذا الدرهم معبودا مِن دون الله عَزَّ وجَلَّ، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[2]، يقول الشِّنْقِيطِيّ رحمه الله: وليس معناه أنَّ الهوى صَنَم يُصلَّى له ويُركَع ويُسجَد، وإنما إذا استسلم لهواه في معْصية الله عَزَّ وجَلَّ، وقاده هواه إلى ما يُغضِب الله عَزَّ وجَلَّ، وإلى ما يُخالف أمْر الله عَزَّ وجَلَّ، فقد اتخذه إلهًا.

كذلك هنا لَمَّا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**تعس عبد الدرهم**) بمعنى أنَّ هذا الدرهم استعبده، وعمل هذه الطاعة لأجْل الدرهم، فكأنه تقرب إلى هذا الدرهم بهذه العبادة.

(**تعس عبد الخميصة**)، فالنبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا قال: (**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة**) أنَّ غالب التجارات في ذاك الوقت مرتبطة بهذه الأمور، إمَّا بالأموال أو بهذه الأعيان، كناية عن

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

(٢) سورة الجاثية: ٢٣.

ارتباط الإنسان بالدنيا، وعمل الآخرة لأجْل الدنيا، فهذه كناية عن أمور الدنيا، الخميصة: المقصود بها القطعة مِن الفضة، وأمَّا الخَمِيلَة: فالمقصود بها نوع مِن الثِّيَاب.

(**إن أُعطي رضي، وَإِن لم يُعطَ سخط**) يعني رضاه وسخطه مرتبط بماذا؟ بهذه الدنيا، فإنْ أُعطي منها رضي، وإنْ مُنع منها سخط، لا لأجْل الله عَزَّ وجَلَّ، فعله وعمله لأجْل هذه الدنيا، ولهذا قال ابن عُمَرَ رضي الله عنه عن الخوارج الذين خرجوا على عُثْمَان ورامو قتله، وقتلوه فعلًا رضي الله عنه وأرضاه، - قال: «إِنَّمَا هِيَ هَذِهِ الدُّنْيَا»، يعني ما خرجتم لله، كذبتم إنْ قُلْتُمْ: إنَّا خرجنا لله، أو لرفع راية الإسلام، «إِنَّمَا هِيَ هَذِهِ الدُّنْيَا إن أُعطيتم مِنْهَا رضيتم وَإِن منعتم سخطتم»، سخطكم هذا لا لأجْل الله، ورضاكم لا لأجْل الله، ولهذا دارت عليهم الدوائر.

(**وَإِن لم يعطَ سخط، تعس وانتكس**)، أيْ: هذا أيضًا مِن باب معاودة المرض، والدعاء مِن النبي صلى الله عليه وسلم عليه أنْ ينقلب على رأسه.

(**وَإِذَا شيك فَلَا انتقش**)، هذا مِن باب الاستعارة، إذا أصابته الشوكة فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش، قيل: إنه مِن باب الدعاء عليه أنه يُصاب بهذا الداء وبهذا المرض، فلا يُيَسر الله عَزَّ وجَلَّ له أنْ يستطيع إخراج هذا الأمر اليسير.

ثُمَّ قال: (**طوبى لعبد آخذ بعِنان فرسه**)، (**طوبى**): قيل: إنها اسم شجرة في الجنَّة، وقيل: إنها لفظ يدل على الثناء والمدح. (**لعبد آخذ بعنان فرسه فِي سَبِيلِ الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه**)، (**فِي سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ**) وهذه كناية عن ماذا؟ عن التواضع، وأنه اشتغل بمراد الله عَزَّ وجَلَّ وبطاعة الله عَزَّ وجَلَّ عن نَفْسه، وأنه بذل كُل شيء له سبحانه.

(**إن كَانَ فِي الحراسةِ كَانَ فِي الحراسةِ، وَإِن كَانَ فِي الساقةِ كَانَ فِي الساقةِ**)، هذا فيه إشارة إلى أنه لا يريد بهذا الجهاد حظ النَّفْس، إنْ كان في المقدمة فهو في مقدمة الجيش، وإنْ كان في المؤخرة، يعني وضعه القائد في المؤخرة، أو كان عمله في المؤخرة كان في المؤخرة، لا يضره أنْ كان قائدًا أو كان مَقُودًا لماذا؟ لأنَّ الدافع له إرادة وجه الله عَزَّ وجَلَّ. (**وَإِن كَانَ فِي الساقةِ كَانَ فِي الساقةِ**) أيْ: إنْ كان في آخر الجيش فهو فيها. (**وَإِن اسْتَأْذَنَ لم يؤذن لَهُ، وَإِن شَفَعَ لم يُشَفَّع**) لماذا؟ لأنه ليس مِن أهل الجاه، ليس ممَّن يتطلعون إلى المناصب، إلى العُلُوِّ، غير معروف، ولهذا إذا استأذن على الرؤساء، على الملوك، استأذن في أمْر مِن الأمور، لَم يُؤذَن؛ لأنه لا يُعرَف، (**وَإِن شَفَعَ**)؛ لأنَّ الغالب الذي

يشفع أصحاب الجاه، أصحاب المكانة، أصحاب المنزلة هم الذين إذا شفعوا شُفِّعوا، فهذا الرجل إنْ شفع لَمْ يُشفَّع، وإنِ استأذن لَمْ يُؤذَن له. لكنَّ هذا لا يضره فقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بأنْ يبلغ هذه الدرجة في الجنَّة؛ لأنَّ عمله هذا لا لأجْل الدنيا وإنما لأجْل الآخرة.

***

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الأسئلة

السؤال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء: «إِذَا فَاخَرْتَ فَفَاخِرْ بِقُرَيْشٍ»[1]. يسأل السائل هل هذا الحديث صحيح؟ وهل هذا من عمل الجاهلية؟

الجواب: الحديث رواه البزار، وعلى كل حال إن صح الحديث فمعناه: لو حق لإنسان أن يفاخر بنسبه لَحُقَّ لقريش، يشهد لهذا الحديث الآخر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ» ... إلى أن قال: «وَاصْطَفَى قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ مِنْ خِيَارٍ»[2]. وهذا ما استدل به شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» على فضل جنس العرب على غيرهم. لكن لا يدل هذا على أن الإنسان يفتخر بحسبه أو بنسبه، ليس بعد الإسلام للمسلم نسب إلا الإسلام.

السؤال: ما الفرق بين التوكل والتوكيل؟ ولو مثلتم لنا.

الجواب: التوكل كما عرَّفناه بالأمس هو اعتماد القلب، واعتماد القلب لا يكون إلا على الله عز وجل، أما التوكيل فيصح؛ لأنه في أمور محسوسة وأمور تَتَأَتَّى للبشر، ولهذا على المسلم أن يتوكل على الله في كل أموره وإذا أراد أمرا من الأمور التي يستطيعها البشر أن يوكلهم على هذا الشيء. وكما ذكرنا بالأمس لو وكلت شخصا أن يُخرج عنك صدقة الفطر، توكله وتتكل على الله عز وجل في ذلك، بمعنى قلبك يعتمد على الله، وتوكله فيما

(١) أورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٦)، وقال: « رواه البزار وفيه سليمان بن أبي كريمة وهو ضعيف ».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي صلى عليه وسلم (٢٢٧٦)، من حديث واثلة بن الأسقع.

يستطيعه، أن يشتري لك الصدقة ويخرجها.

السؤال: ما حكم استخدام بعض التمارين النفسية، البرمجة العصبية، التي تخلو من المحاذير الشرعية والمخالفات، والأمور الوهمية؟

الجواب: بالنسبة لمسألة البرمجة العصبية إذا كانت القضية قائمة على قضية طريقة الإقناع، والأسلوب، والبلاغة، وترتيب الأفكار، وطريقة التَّوَجُّه للناس، وطريقة استخدام الوسائل، فلا إشكال في هذا، لكن التوسع في هذا الباب كما هو الحال عند البعض، كقضية المشي على الجمر والمشي على الزجاج ونحو ذلك، فهذه الذي يظهر أنها نوع من الشعوذة.

السؤال: ما علاقة باب الإيمان بالصبر على الأقدار في كتاب التوحيد، لماذا عقد المؤلف هذا الباب؟

الجواب: ذكرنا بالأمس أن الإيمان بالقدر فيه التسليم لحكم الله عز وجل وعدم الاعتراض على الله في حكمه وهذا لا شك له علاقة بباب الإيمان بالقضاء والقدر الذي هو الأصل السادس من أصول الإيمان، وأيضا له علاقة بالإيمان بالله عز وجل. وهو التسليم لحكمه سبحانه وتعالى، فمن لوازم الإيمان به سبحانه وتعالى أن يُسَلِّمَ المرء لقضائه وقدره الذي هو حكمه.

السؤال: بماذا يُجاب من أَشْكَل عليه تعذيب الله للعصاة يوم القيامة على ذنوبهم وهو الذي قدره؟

الجواب: بلا شك هذه الشبهة هي التي أوقعت القدرية النفاة الذين هم المعتزلة في بدعتهم، وصار من أصول المعتزلة العدل، ويعنون بالعدل أن الله عز وجل لم يخلق أفعال العباد، لتبادر هذه الشبهة إلى أذهانهم، كيف يخلق الله عز وجل أفعال العباد ثم يعذبهم عليها، وهذه شبهة فاسدة، وذلك أن الله عز وجل أعطى العبد السمع والبصر والعقل وجعله قادرا أن يفعل أو لا يفعل، لم يُجبره على هذا العمل، وإن قدَّره على هذا الشخص، لكن لم يجبره على هذا العمل، كما يُظَن كحال الريشة في مهب الريح. وأرسل له رسولا، وأنزل له الكتب، وبيّن له طريق الحق وطريق الضلال، وطريق الجنة وطريق النار، فإذا سلك هذا الطريق سلكه بمحض إرادته أم هو مجبور على هذا؟ سلكه بمحض إرادته. ولهذا الإنسان إذا سمع المؤذن يستطيع أن يقوم ويتوضأ ويذهب إلى المسجد، ويستطيع أن يبقى في فراشه إلى أن يخرج الناس من الصلاة، ليس هناك من يمنعه وليس هناك من يدفعه إلى الصلاة، إذًا هذا الفعل هو فعل للإنسان حقيقة، وهو الفاعل لفعله حقيقة، وهو الذي سيُسأل عن هذا الفعل

حقيقة. قضية لماذا قدَّر الله عز وجل على هذا الخير ولماذا قدَّر على هذا الشر، هذا باب واسع ومن أراد التوسع في هذا الأمر فليرجع إلى كتاب «شفاء العليل» للإمام ابن القيم رحمه الله، فقد ساق هذه الإيرادات خطوة خطوة، بما إن شاء الله يُقنع القارئ.

السؤال: أشكل عليَّ القول: بأن الأعمال لا تتفاوت عند الله بالكثرة؟

الجواب: نعم، يعني ليست العبرة بكثرة الأعمال فحسب عند الله عز وجل، بل العبرة بحسن الأعمال، لا شك إذا اجتمع الحسن والكثرة هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، لكن لو جاءنا إنسان وكان يسبح الله عز وجل بعد الصلاة، سبحان الله والحمد لله والله أكبر سبعين مرة، ومداوم على هذا العمل، وشخص آخر يسبح ثلاث وثلاثين مرة، أيهم أكثر عملا؟ صاحب السبعين، وأيهما أفضل، صاحب الثلاث والثلاثين؛ لأن هذا وافق السنة، وهذا خالف السنة، فليست العبرة بكثرة العمل.

السؤال: هل مراعاتي لجماعة مسجدي وإتباعي لرغباتهم يعتبر من الرياء؟

الجواب: لا، بل هذا من السنة إذا لم يكن في ذلك إخلال بشيء من واجبات الصلاة، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يُراعي حال أصحابه في الصلاة، ولهذا كان إذا بكروا بَكَّر، وإذا تأخروا تأخر، إذا سمع صياح الصبي عجَّل في الصلاة، وأنكر على معاذ عندما كان يطيل بهم صلاة العشاء ولم يراعي حال من خلفه، كانوا أصحاب زراعة ولهذا يأتون مُتْعَبِين، فأحدهم قطع الصلاة، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ**»[1]. فمراعاة حال المصلين هذا من السنة، وهذا من فقه الإمام، لكن بشرط ألا تكون هذه المراعاة على حساب واجبات الصلاة، أو صفة الصلاة، أو سنن الصلاة.

السؤال: ماذا عن شروح كتاب التوحيد للشيخ محمد؟

الجواب: الكتاب ولله الحمد له مجموعة من الشروح والتعليقات، وقد شرح هذا الكتاب العلماء قديمًا، وحديثًا من المعاصرين، لكن بلا شك من أوسعها وأفضلها وأشملها شرح حفيده الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه «تيسير العزيز الحميد»، وهناك أيضا «فتح المجيد»، وهناك أيضا «شرح الشيخ محمد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان- باب من شكا إمامه إذا طول (٧٠٥)، ومسلم في كتاب الصلاة- باب القراءة في العشاء (٤٦٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

العثيمين رحمه الله»، شرح واضح ومبسط.

***

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. قال رحمه الله تعالى:

بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ

فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ[1] يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟![2].

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3] أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ[4].

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ[5]: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾[6] فَقُلْتُ لَهُ: «إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟

---

(١) هو: عبد الله بن عباس البحر أبو العباس الهاشمي حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي، الهاشمي، المكي، الأمير -رضي الله عنه. مولده: بشعب بني هاشم، قبل عام الهجرة بثلاث سنين. صحب النبي صلى الله عليه وسلم نحوًا من ثلاثين شهرًا، وحدث عنه بجملة صالحة. توفي سنة ثمان وستين، وله إحدى وسبعين سنةً. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٠-٣٥٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٠/ ٢١٥).

(٣) سورة النور: ٦٣.

(٤) انظر «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٨٣).

(٥) هو: عدي بن حاتم بن عبد الله الطائي، أبو وهب وأبو طريف: أمير، صحابي، من الأجواد العقلاء. كان رئيس طيئ في الجاهلية والإسلام. وقال ابن الأثير: خير مولود في أرض طيئ وأعظمه بركة عليهم. وكان إسلامه سنة ٩ هـ، وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي. وفقئت عينه. عاش أكثر من مئة سنة. وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بجوده المثل. توفي سنة ٦٨هـ. (تهذيب الكمال: ١٩/ ٥٢٤).

(٦) سورة التوبة:٣١.

فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم»[1] رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

انتقل المؤلف إلى هذا الباب، ألا وهو باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّم الله فقد اتخذهم أربابا. وذلك أنه لما كانت الطاعة من أنواع العبادة، نبه المؤلف بهذه الترجمة أن من خصائص الله عز وجل، ومن خصائص ربوبيته، أن له الحق وحده في التحليل والتحريم، في الطاعة المطلقة، وما عداه فلا تجب طاعته إلا إذا كانت تَبَعًا لطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول: (بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ)، (مَنْ) هنا إما أن تكون شرطية وجوابها (فقد اتخذهم أربابا) وهذا هو الذي يظهر، وإما أن تكون موصولة بمعنى (الذي) باب الذي يطيع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابا.

ذكر العلماء والأمراء؛ لأن غالبا هؤلاء هم الذين يتَّبعهم الناس، فهؤلاء في جانب الشرع الذين هم العلماء، وأولئك في جانب السياسة، وإلا لو أطاع أي مخلوق كائنا من كان في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذه ربا من دون الله عز وجل، لكنه نص على العلماء والأمراء؛ لأنهم غالبا هم الذين يغتر بهم الناس في ذلك.

ذكر أثر ابن عباس رضي الله عنه: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون قال أبو بكر وعمر).

يوشك: أي يقرب ويدنو، أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أي بعذاب من عند الله عز وجل، وهذا الأثر له قصة، أو له حادثة، وذلك أن ابن عباس رضي الله عنه كان يقول: إن السنة هي التمتع في الحج، أن يتمتع الإنسان في نسكه، بمعنى أن يلبي بالعمرة في أشهر الحج، ثم يتحلل منها ثم يُحْرم بالحج، ويستدل على ذلك بحديث: «لَو اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ»[2] قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَمَا سُقْتُ الهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً»[3]، وأَمْرُه عليه الصلاة والسلام لأصحابه الذين لم يسوقوا الهدي أن يتحللوا بعمرة، وقال: «دَخَلَتِ العُمْرَةُ فِي الحَجِّ»[4]،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن- ومن سورة التوبة (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التمني- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لو استقبلت**» (٧٢٣٠)، ومسلم في كتاب الحج- باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (١٢١٨) من حديث جابر.

(٣) ما قبله.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الحج- باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (١٢١٨).

فقالوا: ألعامنا هذا؟ قال: «بَلْ لِأَبَدِ الآبَادِ»[1]، ولهذا ابن عباس كان يرى التمتع. مَن كان يناظره كان يرى القِران، ويستدل برأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأنهما لم يكونا يريان التمتع، فغضب عليه ابن عباس، وقال هذا الكلام: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء)، والسبب أنكم قابلتم قول الرسول صلى الله وعليه وسلم، وعارضتم قول الرسول صلى الله عليه وسلم بقول غيره -بقول أبي بكر وعمر- فإذا كان هذا مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهما اللذان أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نقتدي بهما كما في «الصحيح»: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[2]، «إِنْ يَتَّبِعُوهُمَا يَرْشُدُوا»[3]، يعني أبا بكر وعمر، «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»[4]. إذا كان هذا الأمر مع هذين الصحابيين الجليلين فما الظن بمن قابل قول النبي صلى الله عليه وسلم وعارضه بقول آحاد الناس. وهذا هو الشاهد من إيراد المؤلف لهذا الأثر.

ولهذا يقول الإمام الشافعي: أجمع العلماء على أن من استبانت له سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد كائنا من كان، من ظهرت له سُنة النبي صلى الله عليه وسلم واستبان وثبتت عنده فلا يجوز له بأي حال من الأحوال أن يدع هذه السُّنة ويتبع قول غيره.

ثم قال: وقال الإمام أحمد -إمام أهل السنة-: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته.

العجب يطلق ويراد به أحيانا الاستحسان كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه التيامن[5]. ويطلق ويراد به الإنكار، ومنه قول الله عز وجل: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾[1]، فالمقصود

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الحج- باب فسخ الحج (٢٩٨٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٨٥)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث حسن بطرقه وشواهده دون قوله: «تمسكوا بعهد عمار» وهذا إسناد ضعيف».

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب- باب مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٣٦٦٢)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٩٧)، من حديث حذيفة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٤٢) بلفظ: «إِنْ يُطِعِ القَوْمُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا».

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٦)، وأبو داود في كتاب السنة- باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم- باب ما جاء في الآخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

(٥) المجموع (١ / ٣١٩).

الإنكار على هؤلاء. ومقصود الإمام أحمد هنا الاستحسان أم الإنكار؟ الإنكار، يُنكر على قوم عرفوا الإسناد وصحته، أشار هنا إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يُذم صاحبه، من قلد شخصا لم تبلغه الحجة فلا يُذم على هذا الأمر؛ لأن هذا قُصارى ما انتهى إليه اجتهاده إن كان من أهل الاجتهاد، لكن الذم يتوجه لمن عرف الإسناد وصحته، بمعنى عرف الدليل، ثم يذهب إلى خلاف ما دل عليه هذا الدليل، بناء على ماذا؟ ليس بناء على دليل آخر عنده، وإنما بناء على رأي فلان أو فلان، ولهذا قال: يذهبون إلى رأي سفيان، المقصود به: سفيان الثوري رحمه الله، وكان له أتباع، وكان له مذهب كالأئمة الأربعة، لكن اندثر هذا المذهب. فالإمام أحمد يُنكر على هؤلاء الذين عرفوا الإسناد ثم يذهبون إلى رأي سفيان الذي يكون مخالفا فيه لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا فقط من باب التمثيل، وإلا حاشا سفيان أن يخالف سُنة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إذا خالف المتبوع حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز للتابع أن يتابعه على هذا الأمر، وهذا الذي ألف لأجله شيخ الإسلام رحمه الله كتابه «رفع الملام». فهؤلاء الأئمة معذورون في مخالفة أي حديث، وكما ذكر الشيخ: قد يكون هذا الحديث لم يبلغ هذا الإمام، قد يكون هذا الحديث لم يثبت عنده، قد يكون هذا الحديث يرى هذا الإمام أنه منسوخ، قد يرى هذا الإمام أن له تأويل، فهو معذور في ذلك، لكن التابع المقلد للإمام الذي بانت له السنة وظهرت له الحجة وثبت عنده الحديث فلا يجوز له أن يدع الحديث لرأي هذا الإمام أو لغير الإمام.

ثم قال: والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ﴾[2]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

استدل الإمام أحمد على من ترك قول النبي صلى الله عليه وسلم بقول أحد في هذه الآية: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، يخالفون عن أمره الذي ثبت الآن عنده أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تصيبهم الفتنة، وفسر الفتنة بالشرك، ولهذا نُقل عن الإمام الضَّحَّاك أنه قال: يطبع على قلبه بسبب هذه المخالفة فلا يُؤْمَنُ أن يُظهر الكفر بلسانه.

يقول شيخ الإسلام: فإذا كان المخالف أمره قد حُذِّر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد

---

(١) سورة الصافات: ١٢.

(٢) سورة النور: ٦٣.

يكون مُفْضِياً إلى الكفر أو إلى العذاب الأليم. الله عز وجل لما حذَّر من خالف أمره أن عقوبته ربما تكون الكفر أو العذاب الأليم، فهذا يدل على أنه ربما يُفضي هذا المخالف إلى الكفر أو إلى العذاب الأليم.

يقول: لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

الزيغ هذا حصل له بسبب أنه رد السنة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1].

ولهذا يسأل البعض، هؤلاء لا نقول غير المسلمين، هؤلاء المسلمون الذين ضلوا في باب الاعتقاد ممن يوصفون بالعلم والمعرفة، بل ويوصفون بالعقول من المتكلمين وغيرهم، كيف لم يهتدوا بعقولهم إلى الحق مع سهولته وقربه إليهم، هم مسلمون ويقرءون كلام الله عز وجل، فلماذا لم يوفَّقوا للحق كما وُفِّق غيرهم؟ عِلْمًا أنهم بلغوا من العلم مبلغه، وبلغوا من الذكاء مبلغه. الإمام الرازي رحمه الله يعتبر من أذكياء العالم، ومع ذلك يقول عنه شيخ الإسلام: إنه يذكر في المسألة الواحدة أكثر من اثني عشر قولا، القول الحق لا يعرفه ولهذا لا يذكره، يعني ليته ذكر القول الحق ورده أو نقضه، يذكر في المسألة أكثر من عشرة أقوال القول الحق ليس من بينهم، ما السبب؟ والسبب قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ لأنهم التمسوا الحق من غير طريقه. ولهذا قال الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال * وأكثر سعي العالمين ضلال**

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى أن جمعنا فيه قيل وقال**

وإلا لو سلكوا ما سلك أهل السنة والجماعة، أنهم صَدَرُوا عن كتاب الله وسنة رسوله، وَوَرَدُوا عليهما، لوُفِّقوا للحق كما وُفِّق غيرهم للحق.

هذه الآية: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾. أيضا استدل بها الإمام مالك رحمه الله لَـمَّا سأله رجل من أين أُهِل؟ قال: أنا أريد العمرة، وهو من أهل المدينة، قال: من أين أُحْرِم ؟ قال: من حيث أَهَلَّ النبي صلى الله عليه وسلم، من ذي الحليفة، قال: لا يا أبا عبد الله، أريد أن أحرم من المسجد - مسجد رسول الله - يعني أعقد الإحرام من المسجد. كم بين المسجد وذي الحذيفة؟ قرابة سبعة كيلومترات، في هذه الحدود، قال: أخشى عليك الفتنة، قال: أي فتنة في أمتار أزيدها، أي فتنة في كوني ما أحرمت من ذي الحليفة ولكني أحرمت قبل، من مسجد

---

(١) سورة الصف: ٥.

النبي صلى الله عليه وسلم، من الروضة الشريفة. قال: ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، كونك خالفت أمر النبي صلى الله عليه وسلم، أو فعل النبي صلى الله عليه وسلم، أحرم من هذا المكان وأنت تريد أن تحرم من مكان غيره، هذا فيه مخالفة. ولهذا الإمام أحمد رحمه الله يقول: نظرت في المصحف فوجدت في المصحف أكثر من ثلاث وثلاثين آية كلها تأمر بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا كان أيضا الله عز وجل حذَّر من أن رفع الصوت على صوته عليه الصلاة والسلام ربما يكون سببا في حبوط العمل، رفع الصوت فقط، فما الظن بالمخالفة؟! تأملوا قول الله عز وجل: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1]، كون الإنسان يرفع فقط صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم هذا مُؤْذِن أن تحبط أعماله، ولهذا أقسم الله سبحانه وتعالى بنفسه، قال: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، وهذا أعظم قسم في القرآن، ﴿حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[2]، كونك لا تُحكِّم، أهون من كونك تحكم غيره وتقابل حكمه بحكم غيره؟ وهذا هو الواقع في مثل حال هؤلاء الذين أشار إليهم المصنف رحمه الله.

ثم ذكر حديث عدي بن حاتم[3] الطائي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ...﴾ الآية[4]. فقلت: إنا لسنا نعبدهم. قال: «أَلَيْسُوا يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ»، فقلت: بلى، فقال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[5]. رواه أحمد والترمذي وحسنه، والحديث حسن كما ذكر المؤلف.

---

(١) سورة الحجرات: ٢.

(٢) سورة النساء: ٦٥.

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) سورة التوبة: ٣١.

(٥) بلفظ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾، صَرِيحُ العِبَارَةِ شِرْكُ الطَّاعَةِ بَيَّنَهُ اللهُ بِهَذَا النَّصِّ القُرْآنِيِّ عِنْدَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، وَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ عَدِي بْنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وَكَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ-: يَا رَسُولَ اللهِ، لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ: «أَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا يُحَرِّمُ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟» قَالَ: بَلَى قَالَ: «إِذًا تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣٥٣).

عدي بن حاتم رضي الله عنه كان نصرانيا ثم أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ابن حاتم الطائي المشهور. لَـمَّا سمع النبي صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾، توقع عدي رضي الله عنه أن العبادة تعني السجود، تعني الركوع، تعني الدعاء تعني الذبح، كما هو الحال الحاصل لكفار قريش، فمباشرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ما كنا نعبدهم، ما كنا نعبد هؤلاء الأحبار والرهبان، والحبر: عالم اليهود، والراهب: عالم النصارى، فقال: «أَلَيْسُوا»، ليست العبادة فقط مقصورة على هذه الأمور التي توقعت، «أَلَيْسُوا يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ»، «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»، قضية التحريم والتحليل؛ لأن التحليل والتحريم من خصائص الله عز وجل، ومن حقوق الله عز وجل التي لا يشركه فيها غيره، فمن اتخذ مع الله عز وجل مخلوقا يحلل ما حرم الله فيحله، ويحرم ما أحل الله فيحرمه، فقد عبده واتخذه ربا من دون الله.

بَابٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[1] الآيَاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[2].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[3].

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾[4].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ[5] [6] أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِـمَا

---

(١) سورة النساء: ٦٠.

(٢) سورة البقرة: ١١.

(٣) سورة الأعراف: ٥٦.

(٤) سورة المائدة: ٥٢.

(٥) هكذا قال، والصواب عبد الله بن عمرو.

(٦) هو: عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي ابن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب. الإمام، الحبر، العابد، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن صاحبه، أبو محمد.وقيل: أبو عبد الرحمن. وقيل: أبو نصير القرشي،

جِئْتُ بِهِ»[1] قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الْحُجَّة» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ: لَعَلِمَهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾[2].

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ الآخَرُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ»[3].

بعد أن ذكر المؤلف باب من أطاع الأمراء والعلماء في معصية الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله، عقد هذا الباب وذلك أن هذا الباب فيه الإنكار على من رد التحاكم إلى غير الله ورسوله، فله علاقة مباشرة بالباب الذي قبله.

ذكر الآية الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ﴾.

الطاغوت: مبالغة من الطغيان، وكل حُكم خالف حكم الله ورسوله فهو طاغوت، وكل حاكم يَحْكم بغير ما أنزل الله على رسوله فهو طاغوت، هذا على وجه الخصوص. والطاغوت على وجه العموم ما عرَّفه ابن القيم وذكرناه مرارا: مجاوزة الحد. هذه الآية: القول الصحيح نزلت في بعض المنافقين، ولهذا الله عز وجل نبه إلى أن من

السهمي. وأمه: هي رائطة بنت الحجاج بن منبه السهمية، وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنةً، أو نحوها. وقد أسلم قبل أبيه -فيما بلغنا-. ويقال: كان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله. وله: مناقب، وفضائل، ومقام راسخ في العلم والعمل، حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علمًا جمًا. يبلغ ما أسند: سبع مائة حديث، اتفقا له على سبعة أحاديث، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين. وكتب الكثير بإذن النبي صلى الله عليه وسلم وترخيصه له في الكتابة بعد كراهيته للصحابة أن يكتبوا عنه سوى القرآن، وسوغ ذلك صلى الله عليه وسلم . ثم انعقد الإجماع بعد اختلاف الصحابة - رضي الله عنهم - على الجواز والاستحباب لتقييد العلم بالكتابة. بمصر، ودفن بداره الصغيرة سنة خمس وستين. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٥-٨٩).

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٤)، وضعفه الألباني في «ظلال القرآن» (١٥)، وقال: «ضعيف».

(٢) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٠٧).

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٠٨).

لوازم الإيمان بالله عز وجل، والإيمان برسوله، والإيمان بما أنزل، التحاكم إلى شرعه، التحاكم إلى كتابه وسنته، وإذا تحاكموا إلى غير ما أنزل الله فقد تحاكموا إلى الطاغوت، ﴿وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾، هؤلاء الذين استبدلوا حكم الله عز وجل بحكم الطاغوت. وكما ذكرت لكم أن كل حكم يناقض حكم الله عز وجل أو يعارض حكم الله عز وجل فيعتبر طاغوتا.

ولعلي أشير هنا إلى ملحظ يقع فيه بعض إخواننا خاصة من يعيشون في البلاد غير الإسلامية، ما يسمى ببلاد الأقليات، خاصة في بلاد الغرب، وقد سمعنا من حال هؤلاء كثيرا، بل جلسنا مع من ابتُلي بهذا الأمر، وللأسف غالبا ما يقع هذا من النساء، من أخواتنا المسلمات، وذلك أن الزواج في تلك البلاد وأحكام النكاح والطلاق أو ما يسمى بالأحكام الشخصية، تلك الدول وَكَلَتْهَا إلى المراكز الإسلامية، فهي التي تعقد النكاح، وهي التي أيضا تحكم بالطلاق بين المسلمين إذا وقع منهم شيء من ذلك. لكن بعض النساء إذا وقع بينها وبين زوجها خلاف، واحتدم الأمر بينهما، وأرادت النكاية به، لجأت إلى المحاكم الوضعية عندهم، وذلك أن المحاكم عندهم تحكم بغير شرع الله في هذه القضية، هم إذا جاءهم الشخص ورفع القضية حكموا وألزموا المحكوم عليه بالحكم، وإذا ذهبا وتراضيا أن يتحاكما إلى المركز الإسلامي أو المسجد أو ما وضعه المسلمون في أمورهم الشخصية قُبِل الحكم وصُدِّق عندهم كجانب نظامي وقانوني، لكن المرأة تعلم أنها إذا ذهبت إلى المركز أو إلى المسجد أنه سَيُحكم بينهم بشرع الله ليس لها إلا المهر فقط، لكن إذا ذهبت إلى محاكمهم فسيُحكم لها بالبيت؛ لأنه ربما هذا البيت الذي اشتراه هذا الرجل وبه الأثاث، علما بأن الأثاث اشتراه الرجل، وبنصف ثروة وما يملك هذا الرجل، وهذا خلاف الشرع، فيُخشى على مثل هؤلاء أن يَصْدُق عليهم قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ﴾. تعلم المرأة أن هذا حكم الله عز وجل، ثم تلجأ إلى حكم الطاغوت من طَوَاعِيَة نفسها وبرضا نفسها، وتستبدل حكم الله عز وجل بهذا الحكم، يُخشى عليها أن يصدُق عليها مثل هذه الآية.

ثم ذكر قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[1].

مناسبة هذه الآية للباب أن التحاكم إلى غير الله عز وجل من أكبر الفساد في الأرض، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ

(1) سورة البقرة: ١١.

﴿لَـهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ﴾، والإفساد أحيانا يكون إفساد حسي كهدم البيوت، وإهلاك الحرث والنسل، وليس هذا هو المقصود في الآية، وقد يكون الإفساد معنويا، بإظهار الفساد في الأرض بمعصية الله عز وجل، بإظهار الشرك، بإظهار البدع، ومن ذلك التحاكم إلى غير ما أنزل الله، فالتحاكم إلى غير ما أنزل الله من الإفساد في الأرض، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَـهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، هذه هي حال المنافقين في كل زمان ومكان، كانوا فعلا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يتحاكمون إلى غير ما أنزل الله ويرون أن هذا من الإصلاح، كذلك في وقتنا هذا هناك من يدعو إلى استبدال حكم الله عز وجل بحكم البشر، إلى استبدال شرع الله عز وجل بتلك القوانين التي جلبوها من دول الكفر ويزعمون أنهم مصلحون، أنهم ما يريدون إلا الإصلاح، أن هذا هو الذي يناسب هذا الزمن، يدعون إلى مناقضة حكم الله عز وجل وشرع الله عز وجل في المرأة، وفي جانب الاقتصاد، وفي جانب الاجتماع، وفي جانب الطلاق، ويزعمون أنهم مصلحون، هذه هي حال المنافقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي زمننا هذا، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[1]، هذا الفساد الذي هو الفساد المعنوي، الشرك والبدع والمعاصي والكبائر ظهرت في البر والبحر بسبب ما كسبته أيدي الناس.

ثم أيضا قال: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾[2] والمناسبة أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح حقيقة والتحاكم إلى غيره هو الإفساد بل غاية الإفساد.

وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[3]، بمعنى أفحكم أهل الجاهلية يرتضون ويريدون، وحكم الجاهلية كانوا يتحاكمون إلى طواغيتهم، وإلى كُهَّانهم، وإلى غير ما أنزل الله عز وجل، فهؤلاء المنافقون يسعون إلى استبدال حكم الله عز وجل بحكم أهل الجاهلية، يريدون أن يكون أهل الإسلام في واقعهم وحياتهم ومعاشهم على ما كان عليه أهل الجاهلية، يتحاكمون إلى غير ما أنزل الله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[4]، فالذي يسعى إلى تغيير حكم

---

(1) سورة الروم: ٤١.

(2) سورة الأعراف: ٥٦.

(3) سورة المائدة: ٥٠.

(4) سورة النساء: ١١٥.

الله عز وجل هو في واقع الأمر من المشاقين لله عز وجل ولرسوله.

ثم قال: عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ). الحديث رواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه -كما ذكر المؤلف- الإمام النووي، أما ابن رجب فأشار إلى ضعف هذا الحديث، ولعل معناه صحيح حتى وإن كان في سنده مقال.

(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ)، الإيمان الكامل، (حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ)، والهوى هو الميل، والمقصود به هنا ميل النفس إلى ما يشتهيه الطبع، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لَا يُؤْمِنُ) المسلم إيمانا كاملا حتى يكون مستسلما لما جئت به ظاهرا وباطنا، وذكر هنا الهوى؛ لأن الهوى غالبا يدعو صاحبه إلى خلاف ما أراد الله وأراد الرسول، ولهذا ذكر بعض التابعين رحمهم الله قال: إن الله عز وجل ما ذكر الهوى في كتابه إلا ذمه، فلم يأتي الهوى إلا في معرض الذم.

شاهد هذا الحديث في كتاب الله عز وجل كثير، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1]. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، لاحظ وَصَفَهُم بالإيمان، فليس هذا من مقتضى الإيمان الذي اتصفوا به، ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾، بمعنى أن يكون لهم الاختيار يقبلون أو لا يقبلون، بل انتهى الأمر، إذا جاء حكم الله أو جاء حكم رسوله صلى الله عليه وسلم، لم يبق للإنسان خيار، انتهى الخيار. ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[2]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[3].

ثم نقل عن الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة. الخصومة الاختلاف والجدل في أمر ما، في أمر دنيوي، فقال اليهودي، واليهودي المنتسب إلى ملة موسى عليه السلام، وأما المنافق فهو الذي يُظهر الإيمان ويبطن الكفر: نتحاكم إلى محمد، أي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وهي ما يُعطاه الشخص ليحصل على أمر من الأمور، ليحصل هذا المُعْطِي الراشي يعطي هذا الرائش أو المرتشي مالًا أو هدية ليتحصَّل منه على شيء مطلوب. عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة؛ لأنهم أهل المال حرام، ولهذا لا يَتَعَفَّفُون عن مثل الرشوة والربا ونحوها، فاتفقا على أن يأتيا

(١) سورة الأحزاب: ٣٦.

(٢) سورة القصص: ٥٠.

(٣) سورة الجاثية: ٢٣.

كاهنا من جهينة فيتحاكما إليه، كعادة أهل الجاهلية، وسبق الكلام عن الكهان، وأن العرب كانت أحيائهم كل حي يتخذ كاهنا يرجعون إليه عند الاختلاف، وهذه من عادات الجاهلية، وهذا الحديث يدل على أن المنافق أشد كراهة لحكم الله من اليهود.

ثم قال: فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1]، يعني كأن الشعبي رحمه الله يرى أن سبب نزول هذه الآية هذه القصة بين المنافق واليهودي.

وقيل: نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهما: نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف هذا اليهودي الذي من طيء، وقد ثبت في صحيح السنة قصة قتله لما آذى النبي صلى الله عليه وسلم وآذى المسلمين، قصته مشهورة[2]. يقول: ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم: أكذلك؟ يعني سأله عمر وأراد أن يتأكد فعلا أنك لم ترض بالرسول صلى الله عليه وسلم ورضيت بكعب بن الأشرف، قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

هذا الأثر فيه ضعف، ولكن إذا ثبتت صحته فقد أجاب أهل العلم على فعل عمر هذا، كيف افتات على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ولي الأمر، هو الذي له حق تنفيذ الحدود. قيل: إن عمر رضي الله عنه لشدة غيرته لم يستطع أن يتمالك نفسه، وقيل لا، عمر بسبب قُربه من النبي صلى الله عليه وسلم واستوزار النبي صلى الله عليه وسلم اتخذه هو وأبا بكر وزيرا له، فكأنه في هذه الأمور يقوم مقام النبي صلى الله عليه وسلم كما هي الحال مثلا في الجهات التنفيذية الآن، فالقاضي قد يقوم مقام الحاكم.

هناك مسألة يكثر السؤال عنها: مسألة تحكيم القوانين الوضعية، تحكيم غير الشرع.

الله عز وجل وصف في كتابه من لم يحكم بما أنزل الله بثلاث صفات: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[3]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ

---

(١) سورة النساء: ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي- باب قتل كعب بن الأشرف (٤٠٣٧)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير- باب قتل كعب بن الأشرف طاوت اليهود (١٨٠١).

(٣) سورة المائدة: ٤٤.

(٤) سورة المائدة: ٤٧.

الظَّالِمُونَ﴾[1]. ثبت عن ابن عباس كما روي عنه ابن جرير رحمه الله لما تلا قول الله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، قال: كفر دون كفر، ولعل القول الواضح في هذه المسألة ما ذكره ابن القيم رحمه الله وفصل فيه، أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا أكبر، وقد يكون كفرا أصغر، فمن اعتقد أن الحكم بغير ما أنزل الله أفضل من الحكم بما أنزل الله فلا شك أن هذا كفر أكبر مخرج عن الملة، ومن اعتقد أن الحكم بغير ما أنزل الله، وهذه الحالة الثانية، مثل الحكم بما أنزل الله، متساويان، أيضا هذا فلا شك في كفره، ومن اعتقد وهذه الحالة الثالثة، أن الحكم بما أنزل الله أفضل وأجدر وأولى ولكن قال يجوز لي أن أحكم بغير ما أنزل الله فلا شك في كفره وأن هذا كفر أكبر؛ لأنه استحل أمرا معلوما من الدين بالضرورة، الحالة الرابعة: أن يعلم حكم الله عز وجل في قضية بعينها، ثم يحكم بخلاف حكم الله لأي غرض من الأغراض، لهوى أو رغبة أو رهبة أو حفاظا على منصب، فهذا هو الذي قال فيه ابن عباس: إنه كفر دون كفر، بمعنى أنه لا يخرج من الملة بهذا العمل. وقلما يسلم الإنسان خاصة من ابتلي بمثل هذا الأمر وجاء الحديث إن صح: «قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الجَنَّةِ»[2].

يسأل البعض: تطبيق هذه القوانين الوضعية ما حكمه؟

لا شك أن استبدال شرع الله عز وجل بهذه القوانين، وترك شرع الله عز وجل جملة وتفصيلا لا شك أن هذا كفر؛ لأن فيه تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله أمر ظاهر، فيه أحيانا تحليل الزنا، تُعطَى البنت والولد حق التصرف بعد سن الثامنة عشرة، لهم أن يزاولوا ما شاءوا، أحيانا فيه تحريم الطلاق، أحيانا فيه تحريم التعدد، أحيانا فيه إباحة شرب الخمر، وتقنين هذا الأمر، لكن هل الفاعل لذلك المطبق لذلك يكفُر بهذا العمل؟ هنا الذي ينبغي أن يُتنبه له، لا يلزم، يأتي هنا التكفير المطلق والتكفير المقيد، لا يلزم من كون هذا العمل كفر أن يكفر هذا الشخص الذي طبق هذا الأمر؛ لأنه ربما يكون جاهلا، وربما يكون متأولا، وربما يكون مغرر به من بعض علماء السوء عنده، بعض علماء السوء عنده يقولون هذا ليس فيه تحريم ما حلل الله، إنما هذا فيه ما يتناسب مع العصر، وليس فيه مضادة لحكم الله ولا مضاهاة لحكم الله.

---

(١) سورة المائدة: ٤٥.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية- باب في القاضي يخطئ (٣٥٧٣)، والترمذي في كتاب أبواب الأحكام- باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القاضي (١٣٢٢)، وابن ماجه في كتاب الأحكام- باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق (٢٣١٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٢٩٨).

ونُقل لي عن بعض مشايخنا غفر الله له أنه كان يقول بالتكفير، يقول: إلى أن قابلت -أنا لم أسمعه وإنما نقل إليّ منه بالسند المتصل- قال: إلى أن جلست مع أحد الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، يقول: فناصحته وذكَّرْته بالله عز وجل، فقال لي: يا شيخ والله إني أعلم علم اليقين أن حكم الله أفضل وأن حكم الله هو الذي يتناسب، وأن حكم الله، وأن حكم الله، ولكن ضعفت نفسي، وأخشى على منصبي، وأتى بهذه التأويلات التي يتأولها الإنسان الجاهل، يقول: فبعدها أمسكت عن قضية تكفير هؤلاء، ولهذا ينبغي أن نتنبه إلى هذا الأمر، الذي وقع فيه بعض إخواننا.

بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. الآيَةَ[1].

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!»[2].

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[3] «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً اِنْتَفَضَ لَـمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!» انْتَهَى[4].

وَلَـمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾[5].

انتقل بعد هذا إلى مسألة أيضا لها علاقة أيضاً بمسائل الاعتقاد وأمور التوحيد، وهي مَن جحد شيئا من الأسماء والصفات. فقوله: باب من جحد شيئا. والجحود هنا يكون بالإنكار والتكذيب، ويكون بالتأويل، فلا شك أن من جحد أَيْ مُنْكِرا وَمُكَذِّبا فهذا يعتبر كافرا، لا شك في ذلك، ومن جحد شيئا من الأسماء والصفات متأولا فإنه لا يكفر، وعلى هذا يُحمل ما وقع فيه كثير من أهل البدع من المتكلمين وغيرهم.

---

(١) سورة الرعد: ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب من خص بالعلم قومًا دون قوم (١٢٧).

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ٤٢٣/ ٢٠٨٩٥).

(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٤٤٥).

(**بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ**). الأسماء، قال أهل العلم: مأخوذة من السُّمُو وهو الارتفاع، أو من السِّمَة وهي العلامة، ولا يمنع أن يكون الاسم مأخوذ من الاثنين. المقصود: أسماء الله عز وجل وصفاته. التوحيد لا يمكن أن يَكْمُل إلا باستكمال أنواع التوحيد الثلاثة، فلو آمن إنسان بألوهية الله عز وجل وربوبيته وجحد أسمائه وصفاته فهذا لا يعتبر موحدا، ولهذا كَفَّر أهل العلم (الجهمية) الذين أنكروا الأسماء والصفات جملة وتفصيلا، حتى قال ابن القيم رحمه الله:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في * عشر من العلماء في البلدان**

أي خمسمائة، وذكر هؤلاء الخمسمائة الإمام اللَّالَكَائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»، وهذه هي المناسبة التي جعلت المؤلف يذكر هذا الباب في هذا الموضع، بمعنى أن التوحيد لا يكمل إلا بالإيمان بأسماء الله وصفاته.

ثم ذكر قول الله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، هذه الآية دليل على أن من كَذَّب باسم من أسماء الله عز وجل فيعتبر كافرا، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، وهذه الآية كما سيأتي لها سبب في يوم صلح الحديبية، لما كتب سُهَيل بن عمرو الصلح، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقال، أو قال كفار قريش: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، اكتب باسمك اللهم[1]. بعض أهل العلم قالوا: إنهم قالوها عنادا واستكبارا، وإلا فهم يُثبتون لله عز وجل أنه الرحمن. ومن أهل العلم من قال: لا، وأن هناك بعض المشركين كان ينكر هذه الأسماء، ولكن البعض الآخر منهم كان يُثبتها، ويدل على ذلك ما ثبت في بعض أشعارهم وفي بعض كلامهم من إثبات أسماء الله عز وجل وبعض صفاته.

الإيمان بأسماء الله عز وجل يستلزم أمورًا:

أولًا: الإيمان بأن أسماء الله عز وجل أعلام وأوصاف، بمعنى أنها ليست بأعلام محضة كما زعم المعتزلة، المعتزلة يثبتون الأسماء وينفون الصفات، لكن يقولون الأسماء أعلام محضة، يعني علم على هذا الشيء، ولا يدل على صفة، أي كوني أُسَمِّيه (عليم) لا يدل على أنه متصف بالعلم، أُسَميه (السميع) لا يدل على أنه متصف بالسمع، كما هي الحال في البشر، البشر الآن غالبا أسمائهم عبارة عن أعلام فقط، يُعرَفون بهذا الاسم، وإلا قد لا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط- باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣٤).

يكون المعنى المتصل به متناسب مع الاسم المسمى به، أليس يسمى الشخص خالد؟ هل هو خالد؟ يسمى بعض الأشخاص محمود، وربما يكون من أكثر الناس ذما في أخلاقه، تُسمى المرأة جميلة، وقد تكون قبيحة، ولهذا الأسماء بالنسبة للبشر قد تكون أعلام محضة، بخلاف أسماء الله عز وجل، فمن لوازم الإيمان بها أن نؤمن أنها أعلام متضمنة بأوصاف وليست بأعلام محضة.

الأمر الثاني: أنها مترادفة ومتباينة، مترادفة من حيث دلالتها على الذات، فالسميع والبصير والعليم والحكيم والقدير، كلها تدل على ذات واحدة، مترادفة، الترادف معناه الاختلاف في اللفظ والاتفاق في المعنى، فعندنا: سميع عليم حكيم قدير غفور ودود، كلها تدل على ذات واحدة، مترادفة في دلالتها على الذات واحدة، ومتباينة في معناها في دلالتها، فالسميع غير البصير، السميع يدل على السمع، والبصير يدل على البصر.

الأمر الثالث من لوازم الإيمان بالأسماء: أن الأسماء ليست محصورة بعدد معين، أسماء الله عز وجل لا حصر لها، والدليل على ذلك ما ثبت عند أبي داود وغيره -دعاء النبي صلى الله عليه وسلم-: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[1]، هذا يدل على أن من أسماء الله عز وجل ما لا يُعلم، ولهذا في حديث الشفاعة في «صحيح البخاري»: «سَيَفْتَحِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ مِنَ المَحَامِدِ مَا لَا أُحْسِنُهُ الآنَ»[2]. من استدل بحديث: «إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[3]، وقال: إن أسماء الله محصورة في تسعة وتسعين، فبماذا يُجاب؟ وحديث: (**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا**)، في «الصحيحين»، الذي لم يثبت تعداد هذه الأسماء التسعة والتسعين، هذه مدرجة. وبعض أهل العلم ضعفها، فهي ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. لكن (**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**)، هذا ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩١)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٧٤١٠)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم وإذا قال مائة إلا واحدة أو ثنتين (٢٧٣٦) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الـجَوَابُ: ليس في الحديث دلالة على الحصر، لم يقل: ليس لله إلا تسعة وتسعين اسما، لو قال ذلـك، لقلنـا: سَلَّمْنَا، قطعت جهيزة قول كل خطيب، لكن الحديث يدل ظاهره أن لله تسعة وتسعين اسما من أحصى هذه التسعة والتسعين دخل الجنة، مثاله إنسان يقول: عندي مائة ألف أعددتها لبناء مسجد، فهل نفهم من هذا أنه ليس عنده إلا مائة ألف؟ لا، كذلك (**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا**).

مسألة الصفات: الصفات تنقسم إلى قسمين من حيث المعنى، وتنقسم إلى قسمين من حيث الأدلـة، وأيضـا تنقسم إلى قسمين من حيث الإثبات والنفي. تنقسم إلى:

صفات ذاتية، وهي الملازمة لذات الله عز وجل أزلًا وأبدًا لا يمكن أن يُتصـور أن يَنفـك عنهـا بحـال مـن الأحوال، مثل العلم، هل يمكن للعقل أن يتصور أن الله عز وجل يمكن أن يتجرد مـن هـذه الصـفة؟ لا، هـذه تسمى صفة ذاتية. القدرة، الحياة، الوجه، اليدين، هذه تسمى صفات ذاتية.

وأما الصفات الفعلية وهي القسم الثاني فهي المتعلقة بالمشيئة، إذا شاء الله عز وجل اتصف بها، مثل: الرضا، هل الله عز وجل دائما متصف بهذه الصفة؟ لا، ولهذا يسـخط عـلى الكـافر، مثـل السـخط، الغضـب، النـزول، الاستواء.

هناك قسم ثالث يذكره بعض أهل العلم يقول: صفات ذاتية فعلية، أي تجمـع بـين الذاتيـة والفعليـة، مثـل الكلام ذاتية في أصلها وفعلية في نوعها، أي نوع الكلام فعل، فالله يتكلم متى شاء إذا شـاء، لكـن أصـل الكـلام ذاتي، هذا ما يتعلق من حيث الصفات.

من حيث الأدلة هناك صفات تسمى: الصفات العقلية، وهي التي ثبتت بالشرع والعقل، مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام، يقابلها الصفات الخبرية التي ثبتت فقط بالخبر والنص، مثل: النزول، المجيء، الاستواء، هذه صفات خبرية، بمعنى أنه لو لم يرد الدليل الشرعي عليها لم نستطع أن نثبتها بالدليل العقلي.

هناك تقسيم آخر من حيث الإثبات والنفي:

فهناك الصفات الثُّبوتية: كجميع الصفات التي أثبتها الله عز وجل لنفسه وأثبتها لـه رسـوله صـلى الله عليـه وسلم.

وهناك الصفات المنفية: وهي صفات النقص التي نفاها الله عز وجل أو نفاها رسوله عن نفسه، مثل: الظلم،

مثل السِّنَة، مثل النوم، مثل التعب، ونحو ذلك.

يبقى أن هذا التقسيم للصفات ما هو إلا تقسيم علمي فقط، لتقريب هذه المعاني والأمور إلى الذهن، وإلا فالقاعدة عند أهل السنة والجماعة أن ما ثبت به النص أثبتناه، وما نفاه النص نفيناه، وما سكت عنه النص سكتنا عنه، لكن لا ننهج منهج الأشاعرة في مسألة تقسيم الصفات، هم قسموا الصفات إلى خبرية وعقلية، فأثبتوا العقلية ونفوا الخبرية. ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله، وقبله الأصبهاني في «الحجة» والمقريزي في «الخطط»، يقول: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يثبت عنهم أنهم قسموا الصفات إلى هذه التقسيمات، بل تلقوا الجميع عن النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به دون أي تحرج، دون أن يقول هذه صفة كذا أو هذه صفة كذا، نثبت كذا، ننفي كذا، لا.

النقطة الأخيرة المتعلقة بالصفات: أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء، فيؤخذ من كل اسم صفة وليس العكس، ولا يؤخذ من كل صفة اسم، فالنزول صفة لله عز وجل، ولكن لا يسمى (النازل).

قال المؤلف: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، الله سبحانه وتعالى قال للمشركين: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾[1]. ثم ذكر أثر علي بن أبي طالب[2] في «صحيح البخاري»: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!»[3]، ويقول ابن مسعود[4] رضي الله عنه: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا

(١) سورة الإسراء: ١١٠.

(٢) هو: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن: أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين، وابن عم النبي وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلامًا بعد خديجة، ولد بمكة، وربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه. وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد. وأقام علي بالكوفة إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم غيلة في مؤامرة ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ. (أسد الغابة: ١/ ٧٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب من خص بالعلم قومًا دون قوم (١٢٧).

(٤) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي. من أكابرهم، فضلًا وعقلًا، وقربًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. نظر إليه عمر يومًا وقال: وعاء ملئ علمًا. وولي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيت مال الكوفة. ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاما سنة ٣٢هـ. (تهذيب الكمال: ١٦/ ١٢١).

لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[1]. كما ثبت في «صحيح مسلم».

وعلي بن أبي طالب قال هذا الأثر الذي رواه عنه البخاري لما كثر القُصَّاصُ في وقته، ولهذا قال: (حدثوا الناس بما يعرفون).

ما مناسبة هذا الأثر لهذا الباب -باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات-؟

المناسبة: أن بعض أحاديث الصفات قد لا تُدْرِكها وتحتملها أفهام العامة، فلا يُحَدَّثُون إلا بهذه العموميات، عموميات النصوص التي تدركها عقولهم؛ لأنه ربما لو توسعت في هذا الأمر، مثل ما ذكر أهل العلم، مثلا التوسع في (حديث النزول)، لا مانع من التحدث أمام أشخاص طلبة علم يدركون معنى هذا الحديث، لكن التوسع في هذا الحديث أمام العامة، فربما أفضى إلى التكذيب بالنزول، هذا معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهذا هو الذي جعل المؤلف يورِد هذا الأثر عن علي في هذا الباب.

ثم قال: وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس، أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات استنكارا لذلك، فقال: ما فرقُ هؤلاء يجدون رِقَّةً عند محكمه ويهلكون عند متشابهه.

انتفض: أي اضطرب وارتعد، والسبب أنه يجهل هذا الأمر، أصابته رِعدة واضطراب لَـمَّا سمع بهذا الحديث؛ لأنه يجهل هذا الحديث.

استنكارا لذلك: يعني مُنْكِرا لهذا الحديث، وليس تعظيما لذلك. لو أن الإنسان سمع حديثا في صفات الله عز وجل فارتعد تعظيما لله عز وجل، وخوفا من الله عز وجل، فلا يُلام على هذا الأمر، لكن هذا الرجل ارتعد استنكارا وتكذيبا، كأن نفسه لم تتقبل هذا الحديث، فقال ابن عباس: ما فرقُ هؤلاء، أي ما خوف هؤلاء، ما خوف هؤلاء وفزعهم إذا سمعوا شيئا من أحاديث الصفات انتفضوا مُشَكِّكِين في ذلك مترددين في قبول هذه الأحاديث، وهذا هو الإشكال، كون هؤلاء نفوسهم شككت في ثبوت هذه الصفات، يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه.

المطلوب من المؤمن تجاه هذه النصوص المتعلقة بأسماء الله وصفاته التسليم المطلق. أدرك هذا الأمر عقلُه أو لم

(١) أخرجه مسلم في المقدمة (١/ ١٠).

يدركه، إذ الميزان في هذا الباب ليس العقل، فالعقول قاصرة، العقول ضعيفة، العقول متفاوتة، ولهذا الأنبياء -كما قال شيخ الإسلام رحمه الله-: لا يأتون بما تُحِيرُه العقول، وإنما يأتون بما تَحَار فيه العقول؛ لأن العقول ليست على درجة واحدة.

فعقل أبي بكر رضي الله عنه يزن عقول الأمة، ولهذا لَـمَّا جاءه المشركون يُخبرونه أن النبي صلى الله عليه وسلم يُخبرهم أنه أُسري به إلى بيت المقدس وعُرج به إلى السماء، مستبعدين هذا تماما، واعتبروا أن هذا ضرب من الخيال، ماذا قال لهم رضي الله عنه، وهم أهل العقول؟ قال: إن كان قال لكم ذلك فقد صدق.

أيضا عقل عمر، يختلف عن عقول الأمة، ولهذا نزل القرآن موافقا لرأيه في مواضع متعددة، يخالف رأي النبي صلى الله عليه وسلم، فيأتي القرآن مصدقا وموافقا لرأيه مخالفا لرأي النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثُونَ يَكُنْ عُمَرُ»[1]، محدثون: أي مُلهمون.

أيضا عقول العلماء ليست كعقول سائر الناس، ولهذا يجب على المسلم أن يُسَلِّم لهذه النصوص تسليما مطلقا، كما قال الإمام الشافعي: آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله. على وفق ما أراد، أدركه عقلي أو لم يدركه، المطلوب: الإيمان المطلق.

يقول: يجدون رِقَّة: أي قَبُولا، عند محكمه. القرآن كما وصفه الله عز وجل: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[2]، فوصف أن في القرآن منه ما هو محكم، والمحكم: هو البين الواضح الظاهر، ومنه المتشابه: وهو الذي يُحتاج فيه إلى أن يُرد إلى غيره ليُفهم، فالمؤمن مطلوب منه أن يعمل بالمحكم وأن يؤمن بالمتشابه. هؤلاء لا، يهلِكون عند متشابهه؛ لأنهم يردون هذا المتشابه، يشككون في هذا المتشابه، ولهذا هلك من هلك من فرق هذه الأمة من أهل البدع وأهل الضلال بسبب المتشابه وليس بسبب المحكم.

والتشابه إما أن يكون: تشابه حقيقي، بمعنى لا يمكن لأي مخلوق أن يُدرك هذا الأمر، مثل كيفية الصفات هذا من التشابه الحقيقي، لا يمكن للعقول أن تدرك هذا الأمر، وليس في الشرع ما يدل على هذا الأمر، فكيفية

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٨).

(٢) سورة آل عمران: ٧.

الصفات إدراكها من المتشابه الحقيقي. وهناك المتشابه النسبي، وهو الذي قد يتشابه على بعض الناس دون بعض، فهلاك من هلك من فرق الأمة من الجهمية والمعتزلة والخوارج والرافضة والمرجئة والجبرية، هلاك هؤلاء كلهم بسبب المتشابه النسبي، تشابهت عليهم بعض النصوص، فهلكوا بسببها، وضلوا وأضلوا، لكن لو سلكوا في ذلك المسلك الشرعي -مسلك أهل السنة والجماعة- ردوا المتشابه إلى المحكم لَمَا ضلوا الطريق، ولَمَا وقعوا فيما وقعوا فيه.

ثم قال: ولَـمَّا سمعت قريشٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، وهذا سبقت الإشارة إليه في صلح الحديبية[1].

ومما ينبغي أيضا معرفته قبل الانتقال من هذا الباب، أنه لم يُنقل عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا عن أحد من الأمة أنه قال إن هذه النصوص التي في أسماء الله وصفاته من المتشابه التي لا يُعرف معناها ولا حقيقة لها، بل هذا قول المُفَوِّضَة، وأيضا قول المتأخرين من أهل الكلام، حيث اتهموا السلف أن هذا هو مذهبهم في صفات الله عز وجل أو في نصوص الصفات، بل السلف رحمهم الله عَدُّوا نصوص الصفات من المُحْكَم، وأنها مفهومة المعاني، وأنها حق على حقيقتها، يُفهم منها على وفق ما ظهر منها. فنحن ندرك ونعرف أن السميع يختلف عن البصير، وأن الكلام يختلف عن الاستواء، لكن أولئك الذين جعلوا نصوص الصفات من المتشابه، وقالوا: إنه لا يمكن لأحد أن يعرف معناها أو أن يُدرك حقيقتها، قالوا: نتلو هذه النصوص كما نتلو الكلام الأعجمي لا نفهم منه شيئا، وهذا على خلاف ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، بل على خلاف ما أمرنا الله عز وجل به في كتابه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾[2]، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[3]، والتدبر فرع عن فهم المعنى، لا يمكن لإنسان أن يتدبر كلاما لا يفهم معناه، كيف نتدبر نصوص الصفات ونحن لا نعلم معناها، كيف تكون نصوص الصفات من المتشابه الحقيقي كما زعم هؤلاء، نعم من ناحية الكيفية متشابه، لكن من ناحية المعنى فهي محكمة، فالله عز وجل لما أمرنا بتدبر كتابه، ولم يستثني من ذلك شيء، دل على أن كل ما جاء في القرآن مفهوم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط- باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣٤).

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) سورة ص: ٢٩.

المعنى، ولهذا ثبت عن مجاهد أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، وفي رواية ثلاث عرضات، أَقِفُهُ عند كل آية وأسأله عنها، لم يستثن من هذا شيئا.

بَابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ الْآيَةِ[1].

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي»[2].

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ «يَقُولُونَ لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا»[3].

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ يَقُولُونَ «هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»[4] **الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ**[5].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ هُوَ كَقَوْلِهِمْ كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا. وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ[6].

انتقل بعد ذلك إلى ما يقدح في التوحيد أيضًا، ومنه ما ذكره بقوله رحمه الله: **بَابٌ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾**، **﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾**[7]، **﴿يُنكِرُونَهَا﴾**، ينكرون إضافتها إلى الله؛ لكونهم يضيفون هذه النعم إلى السبب ويتناسون المسبب، فإضافة النعمة للخالق، هذا من باب إضافة الحق لمستحقه، وينبني على ذلك شُكره على هذه النعمة، ولهذا مَن أضاف النعمة إلى غير الخالق فقد أشرك في الربوبية، وبناء عليه فيلزم ألا يشكر الله عز وجل على ذلك، والشكر عبادة، والعبادة يجب أن تكون لله، وهذا قدح في توحيد العبادة.

---

(١) سورة النحل: ٨٣.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بنحوه (١٧/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بنحوه (١٧/ ٢٧٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٨٣)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٣٣).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٣٣).

(٧) سورة النحل: ١٨.

ولهذا من أضاف النعمة لغير الله عز وجل فإن هذا قدح في الربوبية وقدح في الألوهية، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ﴾ عز وجل، يعرفون أنه خالق هذه النعمة، وهذه حال المشركين، لَـمَّا تسألهم من خلق هذا؟ يقولون لك: الله عز وجل، ثم يُضيفونها إلى غير الله عز وجل، أحيانا يضيفونها إلى معبوداتهم، إذا سُئلوا من رزقكم؟ قالوا: الله، ثم ينكرون ذلك بقولهم: رُزقنا بشفاعة هؤلاء الآلهة، هذا معنى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

يقول: قال مجاهد: هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن آبائي. إذا كان من باب الواقع والسبب فلا شيء في ذلك، كون هذا المال حصل لي بسبب الميراث، لا إشكال في ذلك، لكن كونه يَنسب هذه النعمة في أصلها إلى غير الله عز وجل، هذا من باب جحد نعمة الله عز وجل، وهذا لا شك يقدح في التوحيد.

يقول: قال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهُذَلي رحمه الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا وكذا، بمعنى لولا فِعْل هذا الشخص لم يكن كذا وكذا، كأنهم نسبوا الفضل في ذلك جملة وتفصيلا لغير الله عز وجل، وهذا أيضا من باب إنكار نعمة الله عز وجل.

يقول: وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا، أي كما ذكرت لكم أن الكفار لَمَّا يُسألون من خلق هذا؟ يقولون: الله عز وجل، ثم يقولون: رُزقنا بشفاعة هؤلاء الآلهة، فهم يعرفون نعمة الله ، يعرفون أن الله عز وجل هو الذي خلقها، ثم ينسبون ذلك إلى شفاعة آلهتهم.

يقول: وقال أبو العباس، أي ابن تيمية رحمه الله، بعد حديث زيد بن خالد[1] الذي فيه: (أَنَّ اللهَ قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ)، وهذا الحديث تقدم، أنهم نسبوا الفضل للكواكب، لم ينسبوه لله عز وجل، ولهذا «مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»؛ لأنه نسب هذا الفضل وهذه النعمة لغير مُسْدِيها، لغير من تفضَّل بها، وهو الله سبحانه وتعالى.

يقول: وهذا كثير في الكتاب والسنة يَذُم سبحانه من يُضِيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

---

(١) هو: الصحابي زيد بن خالد الجهني. مختلف في كنيته؛ فقيل: أبو زرعة، وأبو عبد الرحمن، وأبو طلحة. شهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح. حديثه في الصحيحين وغيرهما. قال ابن البرقي وغيره: مات سنة ثمان وسبعين بالمدينة، وله خمس وثمانون. وقيل: مات سنة ثمان وستين. وقيل: مات قبل ذلك في خلافة معاوية بالمدينة. انظر: الاستيعاب (ص: ٢٤٩ ترجمة ٨١٥)، و«الإصابة» (٢/ ٦٠٣ ترجمة ٢٨٩٧).

وهذا كثير في الكتاب والسنة: أن الله عز وجل يَذم من ينسب النعمة إلى غيره سبحانه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1]، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ).

قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقا، بمعنى أنهم لم ينسبوا هذا الأمر كنسبة السبب والمُسَبَّب، نسبوه كجانب الفضل والمنة أنه بسبب الريح، فالفضل والمنة للريح، والفضل والمنة للملاح.

يقول: ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير من الناس.

وكلام الشيخ هذا والأدلة التي ساقها تدل على أن حكم هذه الآية عام في من نسب، وإن كانت جاءت في حال الكفار فهي عامة في كل من نسب نعمة إلى غير الله عز وجل.

بَابٌ: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ[3] فِي الْآيَةِ «الْأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا: لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ، لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ»[4] رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ[5] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[6] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

---

(١) سورة الواقعة: ٨٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٢.

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٥٨).

(٥) هو: عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص أمير المؤمنين ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة. أسلم بمكة قديما وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وولي الخلافة عشر سنين وخمسة أشهر وقتل يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة وهو أول من اتخذ الدرة. (أسد الغابة: ١/ ٨١٤).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٢٥)، وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور- باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥١)، والترمذي في كتاب الأيمان والنذور- باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (١٥٣٥)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (١/ ٦٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٩)، وضعفه الألباني في «رياض الصالحين» (٥٨٣)، وقال: «ضعيف».

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ[1]: «لِأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»[2].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ[3] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»[4] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ[5]: «أَنَّهُ يَكْرَهُ أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ» قَالَ: «وَيَقُولُ لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ»[6].

انتقل بعد ذلك المؤلف إلى ما يقدح في التوحيد من الشرك الأصغر، الصور التي سيذكرها والأمثلة التي يسوقها كلها متعلقة بالشرك الأصغر، فإذا كان الشرك الأكبر يقدح في أصل التوحيد فإن الشرك الأصغر يقدح في كمال التوحيد.

والشرك الأصغر من أجمع التعاريف له ما عرَّفه ابن القيم رحمه الله في «المدارج» قال: ما ورد من الذنوب تسميتُه شركا ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر. كل ذنب، كل عمل، كل قول، سُمِّي في النصوص بشرك فإذا طُبِّق عليه مفهوم الشرك الأكبر نجد أنه لا ينطبق عليه، فيُسمى شركا أصغر.

حكمه أنه يقدح في كمال التوحيد، لكن لا ينافي أصل التوحيد، فيبقى معه التوحيد، بمعنى أنه لا يُخرج صاحبه من الملة، ولا يُخَلِّد صاحبه في النار.

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٨/ ٤٦٩/ ١٥٩٢٩).

(٣) هو: الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان بن جابر، العبسي. من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهو صاحب السر. واسم اليمان: حِسْل -ويقال: حُسَيْل- ابن جابر العبسي، اليماني، أبو عبد الله، حليف الأنصار، من أعيان المهاجرين. وأمه الرباب بنت كعب بن عدي الأنصارية. توفي سنة ست وثلاثين بعد مقتل عثمان. انظر: «أُسْد الغابة» (١/ ٧٠٦ ترجمة ١١١٣)، و«الإصابة» (٢/ ٤٤ ترجمة ١٦٤٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٨٤، ٣٩٤)، وأبو داود في كتاب الأدب- باب لا يقال خبثت نفسي (٤٩٨٠).

(٥) هو: إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن ربيعة بن ذهل بن سعد بن مالك بن النخع النخعي، أبو عمران الكوفي، فقيه أهل الكوفة، وأمه مليكة بنت يزيد، أخت الأسود بن يزيد وعبد الرحمان بن يزيد. رأى عائشة رضي الله عنها وكان رجلا صالحا فقيها ومات وهو مختف من الحجاج. قال عنه الحافظ في التقريب: ثقة إلا أنه يرسل كثيرا، فقيه. انظر تهذيب الكمال (٢/ ٢٣٣/ ترجمة ٢٦٥)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢٠/ ترجمة ٢١٣).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ٢٧/ ١٩٨١١)، ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٤٤).

هل يُغفر الشرك الأكبر؟ لا يغفره الله عز وجل، والشرك الأصغر؟ اختلف أهل العلم، فمنهم من قال هو كسائر الذنوب والكبائر، ربما غفره الله عز وجل بسبب أو بغير سبب، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أنه ينطبق عليه عموم قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[1]، يقول: لا يخرج هذا من العموم. لكن يختلف عن الشرك الأكبر أنه يدخل ضمن موازنة الحسنات والسيئات، ولهذا هو لا يُغفر لصاحبه لكن ربما يكون مع صاحبه من الحسنات ما يَرْجِح بهذه السيئة أو هذه السيئات فيُغفر له بسبب هذه الحسنات.

استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، هذه جاءت في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، الآية سيقت في مَعْرِض الرد على أهل الشرك الأكبر، ولهذا هذه الآية يوردها أهل العلم غالبا في أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، أن من وَحَّد الله عز وجل في ربوبيته فيلزمه أن يُفْرِدَه في ألوهيته ويستدلون بهذه الآية، هذه من أوضح الأدلة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُم﴾، أمرهم بتوحيد الألوهية، توحيد العبادة، توحيد القصد والطلب، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ﴾، أي وحدوه بالعبادة وتوحيد الألوهية: هو إفراد الله عز وجل بالعبادة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، هذا هو توحيد الربوبية، ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾، الآن استدل بهذه المعاني - معاني الربوبية - وهذا يَدل على أن المشركين كانوا يُقرون ويعترفون بتوحيد الربوبية؛ لأنه لا يمكن أن يستدل عليهم بأمر لا يؤمنون به، هذا لا يكون، ويستحيل، الاستدلال الذي في مكانه إذا كان من عليم حكيم أن يستدل بأمر يُسَلِّم به الخصم، فالله عز وجل يقول: ما دمتم تعترفون بهذه الأمور وتُقرون بها، أن الله هو الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وهو الذي جعل الأرض فراشا والسماء بناء فيَلْزَمكم أن توحدوه بالعبادة، ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً﴾. والند: هو الشبيه والنظير، لا تجعلوا له أنداد من معبوداتكم.

---

(١) سورة النساء: ٤٨.

(٢) سورة البقرة: ٢١، ٢٢.

الآية في الشرك الأكبر، وهنا المؤلف استدل بها على الشرك الأصغر. قال أهل العلم: وفي هذا دليل على أنه يمكن الاستدلال بالنص الذي جاء في الشرك الأكبر على ما جاء في الشرك الأصغر، فالمؤلف هنا يقول: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لله أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فمن أشرك مع الله شِركا أصغر فكأنه جعل هذا الشريك شبيه وند لله عز وجل، الذي يحلف بغير الله، أليس هذا حاله، كأنه يجعل هذا المَحلوف به في منزلة الله عز وجل أم لا؟ الأصل أن الحلف لا يجوز إلا بالله، فكونه يحلف بغير الله، يعني جعل لله شبيها ونظيرا، جعل لله نِدًّا، يَجوز أن يُحلف بهذا كما يجوز أن يُحلف بهذا، وهذا وجه إيراد المؤلف لهذه الآية؛ لأنه قد يقول قائل: هذه الآية في الشرك الأكبر، لماذا أوردها المؤلف؟ والنصوص التي أوردها بعد كلها في الشرك الأصغر؟ نقول: نعم، لأن هذه الآية أيضا استدل بها على الشرك الأصغر.

فقوله: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لله أَندَاداً﴾، أي نظير وشبيه، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي أنه ليس لله ندا في الربوبية. أهل الشرك الذين نزلت فيهم هذه الآية يعلمون ويعتقدون أن الله ليس له ند في ربوبيته، وليس له شبيه، ولا نظير في ربوبيته، ولهذا إذا سُئلوا من خلق السماوات والأرض؟ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[1]، ما عندهم أدنى شك، وهذا معنى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، تعلمون أنه ليس لله شريك في ربوبيته.

وبهذا يتبين أن بعض من عبدوا هذه الأضرحة وعبدوا الأولياء وصرفوا لهم أنواعا من العبادة أنهم فاقوا حتى المشركين الأوائل في شركهم؛ لأن هؤلاء كثير منهم يعتقد أن هؤلاء الأولياء ينفعون ويضرون مع الله، ويرزقون ويمنعون مع الله، وأن تصريف هذا الكون بأيديهم، وهذا لم يقله المشركون الأوائل.

ثم ذكر أثر ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل. يعني الشرك الأصغر وهو الذي غالبا يجري على الألسنة من غير قصد، وإلا لو قصد الإنسان مساواة غير الله بالله لانتقل إلى الشرك الأكبر؛ لأن الشرك الأكبر كما عرفناه مرارا وتكرارا: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

أهل العلم قالوا: من صور الشرك هو ما يجري على الألسنة من غير قصد ومن غير إرادة، لَمَّا يقول لك: أنا بالله وبك، أليس معناه أني جعلتك مع الله عز وجل مماثلا؟ ولهذا صار أخفى، كما قال ابن عباس رضي الله عنه:

---

(١) سورة لقمان: ٢٥.

أخفى من دبيب النملة على صفاة سوداء في ظلمة الليل.

يقول: وهو أن تقول والله وحياتك يا فلان، وحياتي. بمعنى أنه يُقسم بغير الله عز وجل، وحروف القسم ثلاثة: (الواو والباء والتاء).

وتقول: لولا كُلَيْبَك هذا لأتانا اللصوص. وكُلَيْبك تصغير للكلب، كونهم قديما كانوا يتخذون الكلاب للحراسة، فيَنسب هذا الأمر إلى وجود هذا السبب متناسيا أن الله عز وجل هو الحافظ حقيقة.

ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. يعني أيضا نسبة الحفظ إلى غير الله عز وجل.

وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وذلك أن الواو تقتضي التسوية بين المعطوف والمعطوف عليه، يعني ما شاء الله وشئت، كأنه ساوى مشيئة الله عز وجل بمشيئة العبد، هو لو ساواها حقيقة لانتقل من الشرك الأصغر إلى الشرك الأكبر.

وكما قلنا مجرد أنه يجري على اللسان، ومع ذلك الشرع قطع دابر هذا الأمر، وشريعة النبي صلى الله عليه وسلم من أكثر الشرائع التي حمت حِمَى التوحيد، وسدت كل ذريعة تُفضي للقدح في التوحيد حتى في الألفاظ. فقول الشخص: ما شاء الله وشاء فلان، هذا يُعتبر عدم أدب مع الله عز وجل، حيث ساوى، أو أشعر هذا اللفظ بالمساواة بين مشيئة العبد ومشيئة الرب، وهذا سيأتي في حديث.

وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا، هذا كله به شرك. أي شرك أصغر. يقول: رواه ابن أبي حاتم.

وعن ابن عمر[1] رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[2]. لعل اللفظ الأوجه: (فقد أشرك)، «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ»[3]. كما جاء في بعض النصوص.

«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله». بأي شيء كان هذا المحلوف، معظَّما أو غير معظَّم، بالنبي صلى الله عليه وسلم مع مكانته ومنزلته عند الله، ومع ذلك لا يجوز الحلف به، بالكعبة لا يجوز، بالأمانة، بالآباء، بالحياة، كل هذا من

---

(١) في الأعلى في بَابٌ: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لله أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذُكِرَ أن الحديث عن عمر بن الخطاب وليس ولده.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور- باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥١).

الحلف بغير الله، (**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**). الفرق بين الكفر والشرك، بينهما عموم وخصوص، الكفر معناه الجحود، والشرك أن تجعل لله عز وجل شريكا، لكن إذا ذُكر أحدهما دخل في الآخر، لكن إذا عُطف أحدهما على الآخر كان لكل واحد منهما معنى يخصه.

الحلف بغير الله عز وجل إذا كان مما يجري على اللسان قلنا هذا شرك أصغر. وأما إن اعتقد صاحبه أن هذا المحلوف به سواء كان النبي صلى الله عليه وسلم، أو الكعبة، أو الولي، أو ملك، أو جني، اعتقد أن هذا المحلوف به بلغ من التعظيم والمنزلة مثل ما بلغ تعظيم الله عز وجل فلا شك أن هذا شرك أكبر.

يقول ابن القيم رحمه الله: يدخل في هذا ما إذا طُلب من هؤلاء عُبَّاد القبور أن يحلفوا بالله، حلفوا بالله عز وجل، وإذا طلب منهم اليمين بالشيخ أو بحق الشيخ تلكئوا، فمعنى هذا أن هذا الشيخ، أو هذا الولي، أو صاحب الضريح، بلغ في قلب هذا الرجل من التعظيم والمنزلة أعظم من منزلة الله عز وجل، ولهذا ربما ينتقل إلى الشرك الأكبر. وجاء في الأحاديث: «**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»[1]، «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[2]، «**مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا**»[3]، ولهذا أجمع أهل العلم على عدم جواز الحلف بغير الله عز وجل.

يقول رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

وقال ابن مسعود: «لِأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا».

كلا الحالتين مذموم، الحلف بغير الله عز وجل، أو الحلف به كاذبا، هذا مذموم وهذا مذموم، والأصل ترك الجميع. لكن أراد ابن مسعود رضي الله عنه أن يبين للأمة خطورة الشرك، وأن الشرك الأصغر أسوأ من الكذب، والكذب من الكبائر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»[4]، قال: «**إِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ**»[1]. الحديث الآخر أنه عدَّه من

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب الأيمان والنذور – باب الحلف بالأمهات (٣٧٨٥) ورواه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور – باب كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥٠) بلفظ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور- باب لا تحلفوا بآباكم (٦٦٤٦)، ومسلم في كتاب الأيمان- باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (١٦٤٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٥٢)، وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور- باب كراهية الحلف بالأمانة (٣٢٥٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾، وما ينهى عن الكذب

آيات المنافق: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»[٢]. مع هذه المنزلة للكذب فقد بين ابن مسعود قال: لأن أحلف بالله كاذبا، مرتكبا لهذه الكبيرة أهون وأخف أن أحلف بغيره صادقا؛ لأن هذا شرك، وهذا مما استدل به من جعل الشرك الأصغر أعلى درجات الكبائر الذي دون الشرك الأكبر.

ثم ذكر حديث حذيفة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»[٣]. رواه أبو داود بسند صحيح.

النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يأتي اللفظ بالواو المقتضية للمساواة -للتسوية-، وأرشد إلى البديل، وهو أن تأتي بدل الواو بـ (ثم)؛ لأنها تدل على الترتيب والتراخي، معناه ليسوا في درجة واحدة، «مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ».

ولهذا قال أهل العلم: أعلى درجات هذا الألفاظ أن تقول: (ما شاء الله وحده) كما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الصحابي الذي قال له: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ[٤]، قال: «مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[٥]. ثم أن يقول الإنسان: ما شاء الله ثم شاء فلان، وأما من قال: ما شاء الله وشاء فلان فهذا شرك أصغر.

يقول: وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

بمعنى أن الإنسان يأتي دائما بحرف (ثم)، ويتجنب حرف الواو.

أيضا هذه الكلمات: (أنا بالله ثم بك)، أيضا لا يجوز بإطلاق، لابد أن يكون في حق الحاضر القادر، لكن لا يأتي إنسان ويخاطب ميت بهذا الشيء، أو يخاطب حي غائب. لا.

بَابٌ: مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللهِ

(٦٠٩٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة- باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧).

(١) ما قبله.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب علامة المنافق (٣٤)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان خصال المنافق (٥٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٥٨).

(٥) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨).

عَنْ ابْنِ عُمَرَ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ، فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ»[2] رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

بعد ذلك لَـمَّا ذكر أن الحلف بغير الله عز وجل مما يقدح في التوحيد، أيضا أراد أن يُبَيِّن أن من لم يقنع بالحلف بالله عز وجل فإن هذا أيضا قادح في التوحيد؛ لأن من مكملات التوحيد ومن تمام التوحيد أن تُعَظِّم الله عز وجل بما يستحقه، وكون الشخص لا يقنع بالحلف بالله عز وجل فهذا يدل على أن عظمة الله سبحانه وتعالى ناقصة في قلبه، ليس له من المكانة والمنزلة التي يسلم بها لأجل هذه اليمين، ولهذا يُقال: إن آدم عليه السلام، وقد حذره الله عز وجل من إبليس، وأنه سيسعى في غوايته، ولهذا لما عرض عليه أن يأكل من الشجرة أبى؛ لأنه تذكر ما أمره الله عز وجل به فحلف له إبليس بالله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[3]. جاء عن بعض المفسرين أن آدم قال: (ما ظننت أن مخلوقا يحلف بالله عز وجل وهو كاذب)، لعظمة الله عز وجل.

فالمؤلف ساق هذا الباب ليبين أن من تمام وكمال التوحيد تعظيم جناب الربوبية، ومن تعظيم جناب الربوبية أن تَقْبَل وترضى بمن حلف لك به سبحانه وتعالى.

يقول: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**)، وهذا تقدم الكلام عليه.

(**مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ**)، هذا جاء أيضا في نصوص أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[4]، ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾[5]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾[6]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لَا

---

(١) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى الصحابي المشهور أمه زينب بنت مظعون الجمحية ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي فيما جزم به الزبير بن بكار قال: هاجر وهو ابن عشر سنين وكذا قال الواقدي حيث قال مات سنة أربع وثمانين روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما. (الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ١٨١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات- باب من حلف له بالله فليرض (٢١٠١)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٣) سورة الأعراف: ٢١.

(٤) سورة التوبة: ١١٩.

(٥) سورة الأحزاب: ٣٥.

(٦) سورة البقرة: ١٧٧.

يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا)[1]. فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر أولا أن من حَلف بالله فليلزم الصدق، ومن حُلف له بالله فليرضى، بمعنى أن الأصل، أن الإنسان، أن المسلم، أن المؤمن لا يمكن أن يحلف بالله كاذبا. (مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ)، إذا كان لن يحلف بالله إلا صادقا فبناء عليه: (وَمَنْ حُلِفَ لَه بِاللهِ فَلْيَرْضَى، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ).

الحديث حسنه الحافظ والبوصيري، وكما أشار المؤلف أنه حسن وأيضا حسنه الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله.

(وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ). هذا من الوعيد المطلق والذي سبق أن تكلمنا عليه كثيرا. (لَيْسَ مِنَّا)، (لَيْسَ مِنَ اللهِ)، وهذا يدل على أن هذا الفعل كبيرة من الكبائر.

بَابٌ: قَوْلُ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ

عَنْ قُتَيْلَةَ[2] أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَأَنْ يَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ[3] رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ[4] -رضي الله عنهما- أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟ بَلْ! مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[5].

وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ[6] أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا: قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ: قُلْتُ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هي الصحابية: قتيلة بنت صيفي ويقال الأنصارية، قال أبو عمر: كانت من المهاجرات الأول، روى عنها عبد الله بن يسار ولم أر من نسبها أنصارية، وقوله من المهاجرات يأبى ذلك. انظر تمييز الصحابة (٨/ ٧٩).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الأيمان والنذور- باب الحلف بالكعبة (٣٧٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي».

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨).

(٦) هو الصحابي: الطفيل بن سخبرة القرشي، وهو : الطفيل بن عبد الله بن سخبرة ويقال: الطفيل بن الحارث بن سخبرة، ويقال: الطفيل بن عبد الله بن الحارث بن سخبرة الأزدي، ويقال: الأسدي أيضًا. له صحبة، وهو أخو عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لأمها ، وهو والد عوف بن الطفيل، وجَدُّ عوف بن الحارث بن الطفيل. انظر تهذيب الكمال (١٣/ ٣٨٩).

الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ قَالُوا وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنْ النَّصَارَى فَقُلْتُ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ قَالُوا وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ وَأَنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا: فَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1].

بعد ذلك انتقل إلى هذه اللفظة، وإن كان تقدم الكلام على مثيلاتها، لكن بما أن النصوص جاءت فيها على وجه الخصوص أفردها المؤلف رحمه الله بالبحث وهي أيضا من المسائل التي تقدح في كمال التوحيد.

عن قتيبة أن يهوديا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت.

عدم إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على هذا اليهودي في تسمية هذا الأمر شرك يدل على أنه فعلا يسمى شركا، وإلا لأنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ليس هذا بشرك، معصية، ذنب، لكن قال اليهودي: إنكم تشركون، فَقَبِل النبي صلى الله عليه وسلم منه هذا الكلام.

ولهذا قال أهل العلم في هذه المسألة حول هذا الحديث: هذا الحديث يدل على أن الحق يُقبل ممن ما جاء به، بغض النظر عن القائل أو الذي جاء بالحق. هذا الآن يهودي ليس على ملة الإسلام، كافر بالنبي صلى الله عليه وسلم، جاحد برسالته، ومع ذلك قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنكم تشركون، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منه وأرشد أصحابه إلى أن يُقلعوا عن هذا الأمر، ويبتعدوا عنه.

كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم كما في «الصحيح» أبا هريرة[2] أن يقبل الحق من الشيطان[3]. وهذا حقيقة

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٧٢) واللفظ له، وابن ماجه في كتاب الكفارات- باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (٢١١٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح».

(٢) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة ٥٩هـ. (تهذيب الكمال: ٣٤/ ٣٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة- باب يرد المصلي من مر بين يديه (٥٠٩)، ومسلم في كتاب الصلاة- باب منع المار بين يدي المصلي

نحن في أشد وأمس الحاجة له في وقتنا هذا، وللأسف أصبح الحق يوزن بالرجال، وليس الرجال هم الذين يوزنون بالحق. ولهذا كثير ممن عادى هذا الإمام (الشيخ محمد بن عبد الوهاب) قد لا يختلف معه في مضمون كلامه، لكن بسبب العداء وتشويه الصورة لهذا الإمام أصبحوا لا يقبلون أي كلام من كلامه، وإلا كلامه في «كتاب التوحيد» رحمه الله، وصنيعه في «كتاب التوحيد»، هو صنيع الإمام البخاري سواء بسواء. أنتم الآن تسمعون كلام الشيخ محمد في هذا الكتاب التبويب فقط: قال الله، قال الرسول، قال الصحابي الفلاني، قال الإمام الفلاني، يعني هذا ليس بكلامه. لكن وللأسف مما لَبَّس به أهل البدع وأهل الضلال، وانْجَرَّ هذا وللأسف حتى على أهل السنة أن الحق أصبح يوزن بالرجال، يُرَد الحق بسبب أن فلان قاله، ويُقبل الباطل بسبب أنه صدر من فلان أو صدر من الحزب الفلاني أو من الطائفة الفلانية، وهذا عين الظلم. فالنبي صلى الله عليه وسلم هنا يخاطبه شخص يكفر برسالته، مُعَاد للنبي صلى الله عليه وسلم، جاحدا له، ومع ذلك يقبل منه الحق، ويُشَرِّع للأمة بناء على هذا الكلام.

يقول: إنكم تُشركون، يعني أن هذا الكلام يعتبر شركا، لكن هل هو شرك أكبر، لا.

قد يقول قائل: ما الدليل على أنه ليس بشرك أكبر؟

أولا: لو طبقنا عليه تعريف الشرك الأكبر لَمَا وجدناه ينطبق.

الأمر الثاني: لو كان شركا أكبر لأمر النبي صلى الله عليه وسلم مَن تلفظ بهذا اللفظ أن يجدد إسلامه.

وتقولون: والكعبة. أي تحلفون بالكعبة. فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة، وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت، بمعنى نهاهم عن هذا الباطل وبيّن لهم في المقابل الحق.

يقول: وله أيضا أي للنسائي، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت، قال: (**أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**).

النبي صلى الله عليه وسلم يعلم علم اليقين أن هذا الصحابي لم يجعله ندًّا، أي مماثلًا له، وإنما أراد حتى في اللفظ. لاحظ: لفظك يوحي بأنك جعلتني لله ندا، فتأدب مع الله عز وجل حتى في اللفظ. ولهذا لاحظوا في حَقِّه عليه الصلاة والسلام لم يقل له: قل ما شاء الله ثم شاء محمد، بل قل: «**مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**». الله عز وجل هو الذي

---

(٥٠٥).

له الحق المطلق، وكل هذا من باب سد الطريق على الشيطان أن يَسْتَجِرَّ الناس إلى الشرك.

ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله: هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللهُ﴾ [1]، ﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [2]، إذا كان الله عز وجل أثبت للعبد مشيئة، ومع ذلك نهاه النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتي بلفظ يقتضي المساواة بين مشيئة الرب ومشيئة العبد، فما الظن ببعض الألفاظ التي لم تُثْبَت أصلا للعبد من الله عز وجل، وذكر ابن القيم رحمه الله كلفظ: أنا في حسب الله وحسبك. الله عز وجل لم يُثبت للمخلوق «حسب» بل الحسب له وحده كما عرفنا بالأمس أي الكافي.

ثم قال: (**وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا: قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ: قُلْتُ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ**) أي رأى في المنام، وهذه رؤيا حق، ولهذا أقرها النبي صلى الله عليه وسلم. وأثبت أن «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[3].

يقول: أتيت على نفر من اليهود، فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. وعزير هذا يقال: إنه رجل صالح غلا فيه اليهود حتى نسبوه إلى أنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك. فالطفيل رضي الله عنه أثنى على اليهود، قال: أنتم القوم ومدحهم لكن الإشكال عندكم أنكم أشركتم، قلتم: عزير ابن الله.

يقول: قالوا -أي قالوا له اليهود-: وإنكم لأنتم القوم، أي أنتم يا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يا أمة محمد، أنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى -وهم أتباع المسيح- فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. المسيح المقصود عيسى ابن مريم، وسمي بهذا الاسم؛ لأنه يمسح ذا العاهة فَيُعْفَى، يمسح الأبرص والأكمه والأعمى فَيُعَافيه الله عز وجل.

قالوا: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. بمعنى كما أننا نحن أشركنا المسيح مع الله عز وجل وأشركنا العُزير - يقوله اليهود- مع الله عز وجل، أيضا أنتم يا أتباع محمد أشركتم النبي صلى الله عليه وسلم مع الله عز وجل، ما الفرق بيننا وبينكم؟ لا شك الفرق واضح والبَوْنُ كبير، لكن هناك تشابه، يعني

---

(١) سورة الإنسان: ٣٠.

(٢) سورة التكوير: ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التعبير – باب رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة (٦٥٨٧) ومسلم في كتاب الرؤيا – باب حدثنا عمرو الناقد (٦٠٤٣).

ساويتم مشيئة الله عز وجل بمشيئة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن من اعتقد أن مشيئة الله مساوية لمشيئة النبي صلى الله عليه وسلم، أو مشيئة أحد من خلقه، فلا شك أن هذا شرك، لكن الصحابة ما كانوا يقصدون المساواة.

يقول: فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته. فقال: هل أخبرت بها أحدا؟ أي هل قصصت رؤياك على أحد؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، أي خطب الناس، ثم قال: (**أَمَّا بَعْدُ**)، وهذه أيضا ذكرناها سابقا أن معناها مهما يكن من شيء بعد.

«**فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا، أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَأَنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كان يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا**». في رواية: «**كَانَ يَمْنَعُنِي الحَيَاءُ**»[1].

هل يمكن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يستحي أن يبلغ دين الله عز وجل؟ لا، لا يستحي، ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[2]، يعتبر خيانة للرسالة، لكن قال أهل العلم: أنه كان يمنعه الحياء ولم يوحَ إليه في الأمر شيء، هو يكره هذا الأمر لكن يستحي من أصحابه أن ينهاهم عن هذا الشيء وهم يُقَدِّرُونه بهذا الكلام، وهو لم يوحَ إليه في هذا الأمر بشيء، أما الآن فلا، أصبح الآن وحي.

«**أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**».

وكما ذكرت لكم أن هذا من باب تأديب الصحابة رضي الله عنهم، وأيضا من باب سد الذرائع، وألَّا يَسْتَجِرَّ الشيطان الناس إلى أن يوقعهم في الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم أو في غيره.

وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأصلِّي اللهُ وأسلِّمَ على سيد الأولين والآخرين، نبيِّنَا محمدٍ عليه وعلى آله وصحبه

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٧٢)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح».

(٢) سورة المائدة: ٦٧.

أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليمِ.

السؤال: بعض الدول ـ دول الأقليات المسلمة ـ ليست عندها مراسم إسلامية رسمياً تتحاكم إليها، فهل ينطبق عليهم الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[1].

الإجابة: نقول إذا كان هذا الإنسان مُضطَّرًا إلى مراجعة هذه المحاكم، يعني: ليس باختياره إنَّما اضطرارًا، لكن بشرط أنَّ إعطاء هذه المحاكم الحق له وهو لا يستحقه شرعًا، سواء كان حقَّ شخصٍ آخر، أو حقًّا من الحقوق العامة، فلا يجوز له أن يأخذه، فلا يعني حكم هذه المحاكم أنه يُبيح ما حرَّم الله عز وجل، أو يُجيزُ له أن يأخذ ما حظر عليه.

السؤال: ما حكم بيعةِ الشيخِ كما يفعلُه الصوفيَّة؟

الإجابة: هذه بدعة من بدع الصوفية، فليس عند المسلمين بيعة إلَّا بيعة الإمام الذي هو ولي الأمر.

السؤال: معنى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[2]، المحبةُ في هذه الآية أليست هي القرابة خلافًا لمن قال: إنَّها محبة الكافر؟

لا، النبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يحبَّ أبا طالب بكفرِه، إنَّما المحبة هذه ـ كما قلنا ـ المحبة الاعتيادية محبة القرابة.

السؤال: أنا موظف أعمل في محكمة تحكم بالأحكام الوضعية، ولكني لست قاضيًا بها، وإنما أعمل في أمور إدارية عِلمًا بأن هذه المحكمة تحكم بجواز المعاملات الربوية، فهل عليَّ إثم بالعمل في هذه المحكمة؟

الإجابة: إذا كان عملك لا يتعلَّق بإصدار الأحكام والنظر في الأحكام، فالذي يظهر ـ إن شاء الله ـ الجواز، هذا بخلاف البنوك الربوية، البنوك الربوية أفتى مشائخنا؛ الشيخ عبد العزيز، والشيخ محمد ـ رحمهما الله ـ وغيرُهما بعدم جواز العمل معهم؛ لأنه من التعاون على الإثم والعدوان، لكن مثل هذه المحاكم؛ لأنها غالبًا فيها أمور جائزة وأمور محرمة، وفيها أمور إدارية، فالأمر فيها أسهل وأيسر، وإذا تيسَّر للمسلم أن يعمل في غيرها؛

---

(١) سورة النساء: (٦٠).

(٢) سورة القصص: (٥٦).

فهو أحوط لدينه، ومَن ترك لله شيئًا عوضه الله خير منه.

السؤال: هل يجوز أن نقول: «وحياة الله»؟

الإجابة: نعم يجوز، يجوز الحلف بالله عز وجل، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم كما ثبت في «الصحيح» **كان يستعيذ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ**[1]؛ لأنها من صفاته.

السؤال: ما حكم من يقولون «والنبي»، وما واجبك أمامهم؟

الإجابة: هذا من الحلف بغير الله عز وجل وغالبًا، وكما ذكرنا بالأمس أنه مما يجري على ألسنة الناس وهذا شرك أصغر، والواجب تجاه هؤلاء أن يُنكر عليهم، ولكن باللِّين، ويُبيَّن لهم الحق، ويُبيَّن أن هذا على خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك، وليس هذا فيه محبة للنبي صلى الله عليه وسلم، بل هذا فيه مبارزة للنبي صلى الله عليه وسلم، وعمل يبغضه النبي صلى الله عليه وسلم.

السؤال: كما تعلمون أن الأعمار قصيرة وقليلة وأمهات الكتب كثيرة وعندي الرغبة في العقيدة وعلم الحديث وعلم التفسير من القراءة، فأيهما أختار في الثلاثة علمًا بأنني أرغب الثلاثة، ولكن عملي وظروفي لا يقتضي ذلك كله؟

الإجابة: على كُلٍّ؛ فهذا التقسيم بين العلوم الشرعية لم يكن معروفًا في عهد السلف رحمهم الله! العلم الشرعي واحد، علم العقيدة، وعلم الحديث، وعلم التفسير، وإنما قُسِّمت لاجل فقط؛ ليسهل على طالب العلم الاطلاع والقراءة فيهم، فأقول ليس هناك ثمة ما يمنع أن تقرأ في الجميع، والحمد لله العمر فيه بركة إذا أحسن الإنسان استغلاله وتنظيمه، وهذا هو هدي سلفنا، وهو ما سار عليه العلماء قديمًا وحديثًا لم يكن عندهم ما يُسمى بهذه التخصصات، نعم أحيانًا أو الغالب أن العالم يبرز في جانب دون جانب، لكن هناك من العلماء من هم أشباه بموسوعات، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن جرير رحمه الله، والإمام أحمد، ما يمنع أن الإنسان يعني إذا كان لديه ميول أو رغبة في فن من الفنون هذه العلوم الشرعية أن يتخصص فيه، ويُكثر القراءة فيه، ولكن هذا لا يمنع أن يقرأ في بقية العلوم، فالعلوم الشرعية كُلٌّ لا يتجزأ.

السؤال: ما حكم قول إنَّ لله عبادًا إذا أرادوا أراد؟

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء- باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٧٠٩).

الإجابة: النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ»[1]، لكن هذه العبارة: «من أراد هذا العبدُ؛ أراد اللهُ عز وجل»، بمعنى: أن تكون إرادة الله عز وجل تابعة لإرادة العبد هذا لا يجوز.

السؤال: قول الرجل: «لولا فلان الذي بجانبي؛ لصدمتني السيارة أو كذا»؟

الإجابة: هذا سيأتي الإجابة عليه في سؤال آخر.

السؤال: هل يُحَدَّث العوام بتفاصيل أمور العقيدة من تقسيمات الصفات والغيبيات وما الطريقة الصحيحة في مخاطبة العوام؟

الإجابة: نقول التفصيل الدقيق في أمور العقيدة لا العامة لا يحتاجون إلى ذلك، والأعظم من هذا أن لا يطرح أمامهم شيء من الشُّبه ويُرد عليها؛ لأنهم ليس لديهم المَلَكَات في استيعاب هذه الشُّبة، ثم استيعاب الرد، فربما أثرت هذه الشبهة عليهم، لكن نعم يدرّسون العقيدة كما جاءت وَفق النصوص، سهلة يسيرة ولله الحمد؛ النبي صلى الله عليه وسلم كان يُخاطب بهذه النصوص ـ نصوص الاعتقاد ـ يُخاطب بها الجميع، يُخاطب بها أبا بكر وعمر، ويُخاطب بها ذاك الأعرابي الذي جاء من الصحراء، وهذا أبو رُزين رضي الله عنه لـمَّا سمع النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يضحك ربنا بقنوت عباده وقرب غيره»، ما استنكر هذا الأمر، بل كان هذا موافق لفطرته رضي الله عنه، وبادر وسأل النبي صلى الله عليه وسلم، يعني: أراد أن يتأكد فعلًا، يعني هل هذه صفة ثابتة لله عز وجل، فقال: **أَوَ يَضْحَكُ ربنا يا رسول الله قَالَ:** «نَعَمْ»[2]، ففهمها مباشرة وقال: «لن نعدم من رب يضحك خيرًا»، لم يستنكف ويستنكر هذا الأمر ويُورد الاعتراضات والشُّبهات التي أوردها المتأخرون، لو أثبتنا له الضحك؛ للزم أن يكون كذا، وللزم أن يكون كذا، وللزم أن يكون كذا، لا فلا مانع أن يُعَلِّمَ العامة، ويُدَرِّسَ العامة، وتُعرض عليهم العقيدة، كما جاءت وَفْقَ النصوص.

السؤال: ما حكم الحلف ببركة القرآن، وكذلك الحلف بصفات الله تعالى؟

الإجابة: الحلف ـ كما ذكرنا ـ بالله عز وجل، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، هذا جائز، لكن الحلف

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلح- باب الصلح في الدية (٢٧٠٣)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقسامة والديات- إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها (١٦٧٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية (١٨١)، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه».

بركة القرآن؛ فلا أعرف له أصلًا.

السؤال: وما جوابكم على مَن قال: «تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية» بدعة؟

الإجابة: قلنا هذا بالأمس إنه مَن كان هذا التقسيم ينبني عليه إثبات البعض ونفي البعض، كما حصل عند الأشاعرة قسموا الصفات، وأثبتوا هذه ونفوا تلك، فلا شك أن هذا التقسيم لأجل هذا الغرض بدعة، لكن التقسيم كتقسيم علمي فقط صِرف لأجل أن يستوعب الطالب أو الدارس هذا الأمر، فلا شيء فيه، كبقية التقسيمات العلمية.

السؤال: إذا كان قول الرجل لولا أنت لما استطعت أن أفعل كذا وكذا شرك كيف يُجاب على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، عن أبي طالب: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ»[1]؟

الإجابة: ذكرنا بالأمس أنه إذا كان قول الشخص: «لولا كذا وكذا» من باب الخبر المجرد، والخبر أن يكون موافق بما أخبر عنه، فهذا لا شيء فيه أي يخبر عن الواقع، والنبي صلى الله عليه وسلم هنا أخبر عن الواقع، أيضًا النبي صلى الله عليه وسلم أضاف هذا إلى سبب شرعي، وهو الشفاعة فأخبر أن أبا طالب رضي الله عنه ستناله الشفاعة يوم القيامة، وهذه الشفاعة سبب شرعي والله عز وجل هو الذي منحه هذا الأمر.

***

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب كنية ا لمشرك (٦٢٠٨)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم (٢٠٩).

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنَا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

بَابٌ: مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1] الآيَةَ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ! يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[3].

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»[4].

نعم، انتقل أيضًا الشيخ إلى باب جديد، ومسألة من المسائل التي مَن فعلها؛ فقد أثَّرَ هذا الفعل في عقيدته، من ذلك سب الدهر.

وسبُّ الدهر، أو السَّابُّ للدهر مرتكب لأحد أمرين:

ـ إما أن يسبَّ الله عز وجل؛ لأن الله عز وجل هو الذي خلق الدهر، وهو الذي يُصَرِّفُ الدهر.

ـ وإما أن يعتقدَ أن الدهر هو الذي يفعل هذا الأمر بذاته، وهذا شرك، فلا يخرج سب الدهر عن أحد هذين الاحتمالين، إما أن يكون سبًّا لله عز وجل لأن الله عز وجل ـ كما سيأتي في الحديث ـ هو الذي خلق الدهر، وهو الذي يُصَرِّفُ الدهر، وإمَّا أن يسبَّ الدهر على أن الدهر هو الذي يفعل بذاته، وهو الذي ينفع بذاته، وهو الذي

---

(١) سورة الجاثية: (٢٤).

(٢) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة ٥٩هـ. (تهذيب الكمال: ٣٤/ ٣٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ (٤٨٢٦)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها- باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها- باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

يضرُّ بذاته، فما حصلت له هذه المصيبة إلا بسبب الريح هي التي أوجدت هذه المصيبة، أو الليل، أو النهار، وهذا شرك، السبُّ المقصود به الشتم والذم، والدهر هو الزمن والوقت، وسبُّ الدهر ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم، مثل أن يقول هذا اليوم شديد الحر، شديد البرد، كما قال لوط: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [1]، فهذا جائز مجرد خبر يُخبر أن هذا اليوم شديد الحرارة، هذا اليوم شديد البرودة.

القسم الثاني: أن يسُبَّ الدهر على أن الدهر هو الفاعل، وهذا ـ كما قلنا ـ شرك.

القسم الثالث: أن يسُبَّه وهو يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبُّه؛ لأنه محل لهذا المكروه، وهذا محرم إضافة إلى أنه نوع من السَّفَه في العقل.

ذكر المؤلف قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [2]، وجه إيراد المؤلف لهذه الآية عِلمًا أنها نزلت فيمن؟ في المشركين.. أن مَن سبَّ الدهر؛ فقد شاركهم في سبِّه، وإن لم يشاركهم في الاعتقاد، أولئك كانوا يعتقدون أن الذي يُحييهم ويُميتهم هو تقلُّب الليل والنهار؛ لهذا قالوا: «أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يُهلكنا إلا الدهر»، فمن سبَّ الدهر؛ فقد شاركهم في السب؛ لأنهم لَامُوا الدهر أنه هو الذي يُهلكهم وإن لا لم يشاركهم في أن الدهر هو الذي ينفع أو يضر، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [3]، يعني أنهم لم يبنوا هذا على عِلم عندهم، وإنما على مجرد الظنون والشرك. نعم.

ثم ذكر الحديث الذي في الصحيح أو في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ! يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ).

وَفِي رِوَايَةٍ: (لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ).

قوله أولًا (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ)، الأذى هو ما خف أمره، وضعف أثره، ولا يلزم من الأذى الضرر، كمن يتأذَّى ـ مثلًا ـ بالكلام القبيح، أو يتأذَّى بالرائحة الكريهة، يتأذَّى بذلك، لكن هل يتضرر؟ ، ولهذا أثبت الله ـ عز وجل ـ

---

(١) سورة هود: (٧٧).

(٢) سورة الجاثية: (٢٤).

(٣) سورة الجاثية: (٢٤).

أن ابن آدم يُؤذيه، لكن نفى أن يضره أحد، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾[1] أثبت الأذية، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً﴾[2]، في الحديث: «إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي»[3]، وبهذا يتبيَّن الفرق بين الأذى والضـرر، اللهُ ـ عز وجل ـ يُؤذيه ابنُ آدم، لكن لا يُمكن لمخلوق أن يضر الله ـ عز وجل.

طيب قوله: (**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ! يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ**)، معنى (**و أَنَا الـدَّهْرُ**)، أي: صـاحب الـدهر ومُـدبِّر الأمور، أُقَلِّبُ الليل والنهار، هذا تعليل وإيضاح لمعنى أن الله هو الدهر، ما معنى أن الله هو الدهر، يعني أنا خالق الدهر، وأنا الذي أُصَرِّفُ هذا الدهر، ولهذا أُقَلِّبُ الليل والنهار هذه المخلوقات التي هي الدهر لا تتصرف بذاتها.

ذكر ابن القيم رحمه الله ثلاث مفاسد عظيمة في سب الدهر:

المفسدة الأولى: أنَّه سبَّ مَن ليس أَهْلًا للسب، فإن الدهر مُسَخَّرٌ مرهون.

المفسدة الثانية: أن سبَّه متضمنٌ للشرك، وذلك أنه يظن أنه ينفع ويضر.

ولهذا مَن سبَّه مع اعتقاد أنه لا ينفعه ولا يضره؛ قلنا هذا سفه في العقل.. إذن؛ لماذا تسبُّ هذا الدهر وهـو لا ينفع ولا يضرُّ ولا يتصرَّف.

المفسدة الثالثة: أن السبَّ منهم إنما يقع على مَن فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهـواءَهم؛ لفسـدت السموات والأرض، أقول إن السبَّ منهم إنما يقع على مَن فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحـق فيهـا أهـواءهم؛ لفسدت السموات والأرض، بمعنى أنهم سبُّوا الدهر بسبب الضرر الذي حصل لهم، فهم في واقع الأمر يسبُّون مَن فعل هذا الأمر الذي هو الله عز وجل، ولا يُمكن أن تأتي الأمور على ما يُريدون وما يهوون؛ لأن الأمـور لـو أتت على وَفق أهوائهم؛ لفسدت ـ كما أخبر الله عز وجل ـ، لفسدت السموات والأرض.

والنهي هنا بلا شك متوجه لمن لا يقصد بقلبه، إما إذا قصد بقلبه؛ فالأمر أسـوأ، وربـما شـارك المشرـكين في ذلك.

هنا مسألة: وهي أن الإمام أبا محمد بن حزم رحمه الله وغيرُه أيضًا أعدُّوا الدهر بناء على هذا الحديث أنه مـن

---

(١) سورة الأحزاب: (٥٧).

(٢) سورة آل عمران: (١٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

أسماء الله عز وجل، وهذا خطأ، وخطأ ظاهر؛ إذ لو كان من أسماء الله عز وجل؛ لكانوا مصيبين في قولهم: «وما يهلكنا إلا الدهر»، أي: وما يُهلكنا إلا الله عز وجل لو كان الدهر من أسماء الله عز وجل لكانوا مصيبين، هذا أمر..

الأمر الثاني: أن أسماء الله عز وجل وَصَفَهَا بأنها حُسنى، وأيُّ حُسْنٍ في الدهر؟! لا يظهر فيه الحسن، ولهذا ليس كلُّ ما نُسِبَ إلى الله عز وجل يصحُّ أن يكون اسمًا، بل لابد أن يكون هذا الاسم متضمن لكمال الحسن.

بَابٌ: التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلَكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهَ»[2].

قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ»[3].

قَوْلُهُ: «أَخْنَعُ» يَعْنِي أَوْضَعَ.

نعم. هذا الباب أيضًا من الأبواب التي ساقها المؤلف لحماية جناب التوحيد حتى في الألقاب، وذلك أن مَن تسمَّى بهذا الاسم الذي هو قاضي القضاة، أو ملك الملوك، أو حاكم الحكام، أو شاهان شاه، فقد جعل نفسه شريكًا مع الله حتى ولو في الاسم؛ لأن هذا الاسم لا يستحقه إلى الله سبحانه وتعالى.

قال: (**بَابٌ: التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ**) أي: حاكم الحُكَّام؛ لأن القاضي هو الحاكم يحكم وينفذ، والله عز وجل هو حاكم الحُكَّام الحقيقي، وقضاؤه سبحانه ينقسم إلى قسمين قضاء كوني، كما قال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾[4]، وقضاء شرعي كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[5].

ذكر حديث أبا هريرة رضي الله عنه الذي في «الصحيح»، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**إِنَّ**

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب أبغض الأسماء إلى الله (٦٢٠٦)، ومسلم في كتاب الآداب- باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك (٢١٤٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الآداب- باب تحريم التسمي بملك الأملاك بملك الملوك (٢١٤٣).

(٤) سورة الإسراء: (٤).

(٥) سورة الإسراء: (٢٣).

أَخْنَعَ..)، وفسر هذا أنه أوضع اسم، وأسوأ (اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلَكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ)، وقاس عليه المؤلف أيضًا قاضي القضاة، وقِيس عليه أيضًا حاكم الحكام، وكل هذه الأمور لا تصلح إلا لله عز وجل؛ لأنه هو الذي له الملك المطلق، وهو الذي له الحكم المطلق، حتى قاسوا عليه ما ذكر سفيان رحمه الله «شاهان شاه»؛ لأنها باللغة الفارسية تعني ملك الملوك، نعم يجوز أن يطلق هذا الوصف، لكن مُقيد، ملك البلاد الفلانية، قاضي المنطقة الفلانية، حاكم المنطقة الفلانية، حاكم القبيلة الفلانية، لكن بإطلاق «حاكم الحكام»؛ هذا لا يصلح إلا لله، وهذا من باب التأدب مع الله عز وجل في الألقاب.

ثم قال: (وَفِي رِوَايَةٍ: (أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ))، فسَّر هذا القاضي عياض رحمه الله أنه أشد الأسماء صَغَارًا، كما فسره أيضًا أبو عُبيد.

الشاهد: أن في هذا حماية لجناب التوحيد، يعني: لاحظوا المؤلف في أول الكتاب ذكر الأشياء الصحيحة المناقضة لأصل التوحيد، ثم انتقل بعد ذلك إلى ذكر الأشياء التي ليست هي صريحة، لكنها مناقضة لأصل التوحيد، ثم ذكر الشرك الأصغر الذي يلي الشرك الأكبر لا يناقض أصل التوحيد، لكنه يناقض كمال التوحيد، ثم انتقل الآن لِيُبين المسائل التي تقدح في كمال التوحيد، ومن باب حماية جناب التوحيد على الإنسان أن يتحرز حتى في الألقاب، يعني لو قال إنسان انا اقول ملك الملوك فلان، لكن لا أقصد الملك المطلق نقول، وأيضًا هذا منه؛ لأنه حتى في اللفظ؛ لأن اللفظ يُشعر الاشتراك، وإلا ملك الملوك هو الله عز وجل. نعم.

بَابٌ: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ[1]: أَنَّهُ كَانَ يُكنى أَبَا الحَكَمِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ وَإِلَيْهِ الحُكْمُ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»[2] رَوَاهُ أَبُو

(١) هو التابعي: شريح بن هانئ بن يزيد بن كعب الحارثي من اليمن، سكن الكوفة، وخرج في جيش أبي بكرة غازيًا، فقتل بسجستان سنة ثمان وسبعين. وهو من أمراء جيش عليٍّ، يقال: عاش مائة وعشرين سنة انظر: «مشاهير علماء الأمصار» (ص١٠٣)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب- باب في تغيير الاسم القبيح (٤٩٥٥)، والنسائي في كتاب أداب القضاة- باب إذا حكموا رجلًا فقضى بينهم (٥٣٨٧)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي».

دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

أيضًا من المسائل التي تقدح في التوحيد أن يتسمى الإنسان باسم يُلاحظ فيه الجانب الخاص بالله سبحانه وتعالى الوصف الخاص بالله عز وجل، فقال: «باب احترام أسماء الله تعالى، وتغير الاسم لأجل ذلك»، يعني: من كمال التوحيد، وكمال تعظيم الله عز وجل أن تحترم أسماءه سبحانه وتعالى، ومن احترامها أن لا يتسمى الإنسان باسم يدل أو يُلاحظ فيه الوصف الذي تضمنه هذا الاسم أن يشارك الله عز وجل في ذلك..

أسماء الله سبحانه وتعالى قسمان:

قسم: لا يجوز أن يتسمى بها إلا هو مثل الله، الرحمن، رب العالمين، خالق كل شيء، فهذا لا يجوز أن يتسمى بها إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا المَلْحَظُ هو الذي لاحظه بعض شراح الحديث من أهل العلم في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»[1]، قالوا: نلحظ في هذا أن هذين الاسمين لا يتسمى بهما إلا الله! فصار التعبيد بهما أفضل الأسماء، وهناك من أسماء الله عز وجل ما يجوز أن يتسمَّى بها الخلق مثل الملك، الملك من أسماء الله عز وجل ويجوز أن يتسمى به المخلوق.

ذكر حديث أبا شريح أنه كان يُكْنى أبا الحكم، وأبو شريح هو هانئ بن يزيد الكندي، أسلم عام الفتح رضي الله عنه، وتُوفي سنة ٦٨ من الهجرة، والكنية هي ما صُدِّرَ بأبٍ أو أمٍّ، كما أن اللقب ما أشعر بمدحٍ أو ذمٍّ، كالأعمش، والأعرج، ومثل الطويل، فأبو شريح رضي الله عنه كناه قومه، ولم يتكنَ بأبي الحكم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ**)، أي: هو المستحق أن يكون حاكمًا بين عباده ليست هذه الصفة في أحد من البشر ليس لك يا أبا شريح ولا لغيرك فالله عز وجل هو الموصوف بهذه الصفة، وإليه الحكم، فقال: «إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت لهم فرضي كلا الفريقين»، كان رضي الله عنه في قومه ذا رأي وذا عقل ولهذا إذا اختلفوا جاءوا إليه وأصلح إليهم، كصلح وليس كقضاء، فيقبلون بصلحه، فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الأمر، وقال: «ما أحسن هذا! لكن أرشدك إلى ما هو أفضل في التكني»، فعلك هذا جميل وحسن، ولكن عليك أن تتكنَّى بأحد أبنائك، ولهذا سأله: (**فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**)، قلت: «شريح، ومسلم، وعبد الله»، قال: (**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**)، قلت: «شريح»، قال: (**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**)، وبهذا الحديث استدلَّ مَن قال: «من السُّنَّة أن يُكْنى الرجل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الآداب- باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء (٢١٣٢).

بأكبر أبنائه».

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مَن اسمه الحكم، ومَن اسمه حكيم، ولـم يُغيِّر ذلك النبي صـلى الله عليه وسلم كحكيم بن حزام، وهنا أمر الحكم بتغيير اسمه، فما الجمع؟ الجمع قال أهل العلـم: الجمـع أن النبـي صلى الله عليه وسلم لَحَظَ في هذا الرجل الذي هو أبو شُريح أنه سُمِّيَ بهذا الاسم استنادًا إلى الوصف الـذي قـام بهذا الاسم لا على أنه علم محض، فصار بذلك مطابقًا لاسم الله عز وجل، فغيَّره، بخلاف ما لو تسمَّى أحد بمثل هذه الأسماء دون أن يُلَاحَظَ فيه الوصف؛ فلا أشكال.. وهذا هو الجمع بين فعل النبي صلى الله عليه وسـلم هنـا مع أبي شريح وإقراره بأسماء بقية أصحابه رضي الله عنهم. نعم.

بَابٌ: مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[1] الآيَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ[2] وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ[3] وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ[4] وَقَتَادَةَ[5]: «دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي

---

(١) سورة التوبة: (٦٥).

(٢) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى الصحابي المشهور أمه زينب بنت مظعون الجمحية ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي فيما جزم به الزبير بن بكار قال: هاجر وهو ابن عشر سنين وكذا قال الواقدي حيث قال مات سنة أربع وثمانين روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما. (الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ١٨١).

(٣) هو: محمد بن كعب بن سليم. وقال محمد بن سعد: محمد بن كعب بن حيان بن سليم، بن أسد القرظي، أبو حمزة، وقيل: أبو عبد الله المدني، من حلفاء الأوس بن حارثة. وكان أبوه من سبي قريظة. سكن الكوفة ثم تحول إلى المدينة فسكنها، قال عنه الحافظ في التقريب: ثقة عالم، مات سنة سبع عشرة ومئة، وهو ابن ثمان وسبعين سنة. انظر تهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٠/ ترجمة ٥٥٧٣)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٦/ ترجمة ٢٣).

قلت: رجح الشارح أنه محمد بن كعب بن مالك بن أبي القين الأنصاري السلمي المدني، وهو محمد الأصغر. وأما محمد الاكبر فإنه مات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. ولكني أرى أنه محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي وذلك لأنه هو الذي يروي عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع كما في التهذيب (٢٦/ ٣٤١) بخلاف الأول فإنه لم يرو إلا عن أخيه عبد الله بن كعب وأبيه كعب بن مالك وليس له إلا حديثا واحدا رواه مسلم وابن ماجه وهو غير الحديث المذكور. انظر تهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٨).

(٤) هو: زيد بن أسلم القرشي، وكان له حلقة للعلم بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو حازم الأعرج لقد رأيتنا في مجلس زيد بنأسلم أربعين فقيها أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا وما رأيت فيه متمارين ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا وكان أبو حازم يقول لا أراني الله يوم زيد إنه لم يبق أحد أرضى لديني ونفسي منه فأتاه نعي زيد فعقر فما شهده. انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٣٣).

(٥) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز بن عمرو ابن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سدوس، ويقال: قتادة بن دعامة ابن عكابة بن عزيز بن

غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ: أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ (يَعْنِي رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ) فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ»[1].

قَالَ ابْنُ عُمَرَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[2] مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ[3].

نعم. انتقل بعد هذا أيضًا إلى أمر له علاقة بحماية جناب التوحيد، والقدح في أصله وهو مُتعلِّق بالألفاظ كما أن التسمية متعلقة بالألفاظ والحلف متعلق بالألفاظ أيضًا هذا الأمر متعلق باللفظ، قال: (**بَابٌ: مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مثل الأحكام الشرعية أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ**)، يعني: فقد كفر لأنه استخف بالله عز وجل، واستخف برسله، وهذا بلا شك منافٍ لأصل التوحيد، بل كفر بإجماع أهل العلم.

ذكر في هذا قول الله عز وجل آية البراءة: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[4]، واللعب ضد الجد، أي: كنا نمزح، ما كنا نقصد، فُسِّرت هذه الآية بحديث ابن عمر ومحمد بن كعب القرظي رضي الله عنه، وهو من التابعين تُوفي سنة ١٢٠، وأيضًا زيد بن أسلم وهو أيضًا مولى لعمر، وقتادة بن دعامة السدوسي فحديث هؤلاء الثلاثة جميعهم مرسل، وإنما المرفوع حديث ابن عمر: «**دخل حديث بعضهم في بعض**»، وهذه طريقة ـ

كريم بن عمرو بن الحارث بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل السدوسي، أبو الخطاب البصري، وكان أكمه. قال عنه الحافظ في التقريب: ثقة ثبت، روى له الجماعة، ولد سنة إحدى وستين، ومات سنة سبع عشرة ومئة. انظر تهذيب الكمال (٢٣/ ٤٩٨/ ترجمة ٤٨٤٨)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩/ ترجمة ١٣٢).

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٣).

(٢) سورة التوبة: (٦٦).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٥).

(٤) سورة التوبة: (٦٥).

أحيانًا ـ بعض المحدثين أن يُدخِل الألفاظ بعضها في بعض، ويسوق الحديث مساقًا واحدًا عِلمًا أن لكل حديث طريق، وربما اختلفت في بعض الألفاظ، لكن بعض المحدثين أحيانًا يجمع بين هذه الألفاظ في مساق واحد.

قال: «**دخل حديث بعضهم في بعض أنه قال رجل في غزوة تبوك**»، وغزوة تبوك كانت في السنة التاسعة من الهجرة، وكان وقتها في شدة الحر ولما طابت الثمار، ولهذا نَكَصَ عبد الله بن أُبَيٍّ ـ عليه من الله ما يستحق ـ بقرابة نصف الجيش، وسُمِّي هذا الجيش بجيش العسرة؛ لشدة تجهيز هذا الجيش ووقته، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم لعثمان لـمَّا تبرع بمائة من الإبل بسلاحها وعتادها، لما دعي النبي صلى الله عليه وسلم للنفقة، فجاء عثمان بمائة من الإبل جاهزة، وجاء بصرَّة من الذهب وضعها للنبي صلى الله عليه وسلم، فأخذ يقلبها ويقول: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فعلَ بَعْدَ الْيَوْمِ»[1]، يعني: كأنه ضمن مكانه في الجنة..

يقول: «**إنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قُرَّائِنا هؤلاء أرغب بطونًا**»، يُكَنُّون بذلك عن كثرة الأكل، «**ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء**»، مَن يعنون بهذا الكلام؟ يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وعلى قول القائل: «رمتني بدائها وانسلت»، فهذه الصفات تنطبق تمامًا على المنافقين، وتتعارض جُملة وتفصيلًا على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقول هذا الرجل: «أرغب بطونا»، فالنبي صلى الله عليه وسلم ذكر: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»[2]، وتواتر عن حال النبي صلى الله عليه وسلم، وحال الصحابة رضي الله عنهم أنهم من أشد الناس زُهدًا في الدنيا وما فيها، ولهذا ثبت في «صحيح البخاري» أن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنا نرى الهلال، ثم نرى الهلال، ثم نرى الهلال، وما يُوقد فيه بيوت النبي صلى الله عليه وسلم»، قيل: «وما طعامكم قالت الأسودان؛ التمر والماء»[3].

والقصة التي أيضًا في «الصحيح» لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى أبا بكر و عمر ، قال: «مَا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب- باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧٠١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة- باب المؤمن يأكل في مِعًى وَاحِدٍ (٥٣٩٣)، ومسلم في كتاب الأشربة- باب المؤمن يأكل في مِعًى وَاحِدٍ (٢٠٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم (٦٤٥٩) ومسلم في كتاب الزهد والرقاق (٢٩٢٧) بلفظ: «كَانَ يَمُرُّ بِنَا الهِلَالُ وَالهِلَالُ وَالهِلَالُ مَا يُوقَدُ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، قِيلَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ؛ المَاءُ وَالتَّمْرُ».

أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا»[1]، النبي صلى الله عليه و سلم خرج يومًا وراء أبا هريرة ساقطًا في الشارع كان الناس يمرون به يحسبون أن به جنون، يقول: «وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ مَا بِي إِلَّا الْجُوعُ»[2]، فهم رضي الله عنهم من أكثر الناس زهدًا، ولكن هذا الرجل وصف النبي صلى الله عليه وسلم بنقيض ذلك من باب السخرية، والحط من قدره وقدر أصحابه.

كذلك قال: «**ولا أكذب ألسنة**»، والمنافقون هم أكذب الخلق على الإطلاق، ولهذا وصفهم الله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[3] وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ، والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن علامة المنافق، آيته، أمارته، يُعرف بالكذب في الحديث، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصدق الناس لسانًا ولهجة.

ثم قال: «**ولا أجبن عند اللقاء**»، وهذا أيضًا من صفات المنافقين ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدو﴾[4]، فهم أجبن الناس، وإنما النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أشجع الناس على الإطلاق، ولا يدانيهم أحد في شجاعتهم رضي الله عنهم.

يقول: «**فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق**»، قال أهل العلم: فيه مبادرة على إنكار المنكر، ولا مانع أن يقول للرجل إنك منافق إذا ظهر هذا الأمر منه جليًّا؛ لهذا قال عوف بن مالك رضي الله عنه لكنك منافق، أي: ما ظهر منك الآن أنك منافق «لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم..»، وهذا من باب أيضًا النصيحه ، أيضًا أخذ منه أهل العلم أن المسلم يجب عليه أن يُبلِّغ مَن بيده الحلُّ والعقدُ المنكرَ الذي رآه نُصحًا لله، ونُصحًا لرسوله، ونُصحًا لدينه، ونُصحًا لأئمة المسلمين وعامتهم..

هذا من حق الإسلام عليك، إذا رأيت منكرًا أن تنكره بلسانك وتُبلِّغ مَن يستطيع أن ينكرَه بيده ويزيله، سواء ولي أمر، أو عالم، أو قاضٍ، أو جهة تنفيذية، وليس في هذا غَيْبَةً أو نميمة كما يظن بعض مَن عندهم من الورع المذموم، زيادة الورع أن يتستر على أهل الباطل، وعلى أهل المنكرات، يقول خشية الوقوع في الغيبة، أو الإفساد بين الناس، ولكن هذا من باب التعاون على البر والتقوى، ومن باب النصيحة لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة- باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه (٢٠٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة- باب ما ذَكَرَ النبي صلى الله عليه وسلم (٧٣٢٤).

(٣) سورة المجادلة: (١٨).

(٤) سورة المنافقون: (٤).

وعامتهم أن تُبلِّغ عن هذا المنكر.

يقول: «**فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره؛ فوجد أن القرآن قد سبقه**»، أي: وجد الوحي قد سبقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بخبر هؤلاء النفر، **يقول:** «**فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**»، الذي كان يتكلم بهذا الكلام ومن عنده يُقرُّونه على هذا الأمر، لاحظ أن المتكلم شخص واحد، لكن الجميع اشترك في هذا المنكر.

يقول: « فجاء الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل، وركب ناقته، فقال: «يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق»، قال ابن عمر: «كأني أنظر إليه مُتعلِّقًا في نسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم»، نسعة: الحبل المفتول الذي يُربط أو يُشد به الرحل، أو يُوضع في زمام الناقة، فهو أمسك بهذا الحبل، والحجارة تنكب رجليه، بمعنى: أنها تصيب قدميه، لكن قد اشتغل عن هذا كله؛ لأنه الآن وقع في أمر عظيم، فيعتذر للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بهذه الحالة، ومن عادة النبي صلى الله عليه وسلم أنه رحيم رءوف سهل مع أصحابه، يأتيه الإنسان، ويجذبه ببردته، فتؤثر في صفحة عنقه، ويلتفت إليه يبتسم، لكن إذا انتُهكت محارم الله عز وجل! لا.. ولهذا لا يغضب ولا ينتقم لنفسه، إلَّا إذا انتُهكت محارم الله عز وجل.. لاحظوا موقفه مع هذا الرجل وأصحابه، الآن يتوسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله «**يا رسول الله إنما هو حديث نقطع به عناء السفر، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يزيد على أن يقول له:** ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]، **لا يتلفت إليه، ولا يزيده عليه**»، أي: ما يلتفت إليه، يتلوا عليه هذه الآية وهو في سيره، أي: ليس لكم عذر؛ لأن هذه الأمور التي تكلمتم فيها لا يدخل فيها الخوض، ولا يصح فيها المزح، ولا يصح فيها اللعب، الأمور المتعلقة بالله عز وجل، والأمور المتعلقة برسله، والمتعلقة بكتبه، والمتعلقة بدينه، هذه لا يجري فيها الهزل ، ولهذا كما ذكر الشيخ محمد رحمه الله في «نواقض الإسلام»: «أن مَن سخر هازلًا أو جادًا؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»..

وهنا يَتبيَّنُ خطورة السُّخرية بدين الله عز وجل، أو التساهل في ذلك، ونحن نلحظ ـ وللأسف الشديد ـ، ومع انتشار وسائل الاتصال هذه كثرت ما يُسمَّى بالنكات والطرائف!! وأحيانًا يَسْتَجِرُّ الشيطان بعض الناس إلى

---

(١) سورة التوبة: (٦٦).

أن تدخل هذه السُّخرية شيئًا من دين الله عز وجل؛ لهذا لابد أن يكون الإنسان على حذر وحيطة، وليعلم أنه ليس بينه وبين الكفر والخروج من دائرة الإسلام حواجز كبيرة، النبي صلى الله عليه وسلم ذكر في أخر الزمان: «أن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقِي لها بالًا»![1] كيف لا يُلقي لها بالًا؟ يعني: تمر عنده مرور الكرام، تجري على لسانه من غير أن يتأمل في هذه الكلمة! «يهوى بها في النار كذا وكذا»، ذكر: «في أخر الزمان: يُمسي الرجل مؤمنًا، ويصبح كافرًا»[2]، فلا يتساهل الإنسان بإطلاق العنان للسانه، خاصة إذا كان الأمر يتعلَّق بدين الله عز وجل..

هنا مسألة: هل هؤلاء الذين حصل منهم هذا الشيء منافقون، أم هم مسلمون؟ اختلف المفسرون في هذا، ولكن الذي رجَّحه شيخ الإسلام رحمه الله أنَّهم مسلمون، وذكر أن ظاهر الآية يدلُّ على أن عندهم إيمانًا، ولكن الإيمان الذي عندهم ضعيف، ولهذا عفا الله عز وجل عن بعضهم، جاء في بعض الروايات أحد الصحابة الذي كان معهم وتاب، أشركه الله عز وجل في هذا الذنب، لكنه جاء تائبًا نادمًا؛ فَقَبِلَ الله عز وجل توبته، ولهذا ينبغي للمسلم إذا رأى مَن يقع في دين الله عز وجل، أو يخوض في آيات الله عز وجل، أو يسخر برسل الله عز وجل؛ أن يُنكر هذا الأمر أشدَّ الإنكار، وأن يُفارق هذا المشهد، وإن استمر في الجلوس معهم؛ فهو شريك في ذلك، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ..﴾[3]، فلا يجوز الجلوس مع هؤلاء، أو الاستماع إلى كلامهم إلا على سبيل الإنكار، ثم يفارقهم إن لم يأتمروا إلى ما أمرهم به، نعم.

بَابٌ: ما جاء في قَوْلُ الله تَعَالَى

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾[4] الآيَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب حفظ اللسان (٦٤٧٧)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق- باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨)، بلفظ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨) بلفظ: «فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَكُوْنُ فِتَنٌ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيْعُ دِينَهُ بِعَرْضٍ مِنَ الدُّنْيَا».

(٣) سورة النساء: (١٤٠).

(٤) سورة فصلت: (٥٠).

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ»[1].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي»[2].

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[3].

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ»[4].

وَقَالَ آخَرُونَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ[5] وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ»[6].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[7] أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟» قَالَ: «لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ» قَالَ: «فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟» قَالَ الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ (شَكَّ إِسْحَاقُ) فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ «بَارِكَ اللهُ لَكَ فِيهَا» قَالَ: «فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْبَقَرُ أَوْ الْإِبِلُ فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، قَالَ بَارِكَ اللهُ لَكَ فِيهَا».

«فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْغَنَمُ فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ».

قَالَ: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي:

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٩١).

(٢) ذكره أبو عبد الله الزرعي في «شفاء العليل» (ص ٣٨).

(٣) سورة القصص: (٧٨).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٦٦).

(٥) ذكره الخطيب الشربيني في «تفسيره» (٩/ ٣٩٣).

(٦) ذكره ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٠٤).

(٧) تقدمت ترجمته.

فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ وَالجِلْدَ الحَسَنَ وَالمَالَ: بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المَالَ؟ فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ» قَالَ: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا: فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ قَالَ «وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي: فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ: شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لله فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ: فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ: فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[1] أَخْرِجَاهُ.

نعم، بعد هذا ذكر المؤلف هذا الباب أيضًا الأمر متعلِّق باللسان، وله تعلُّق بالقلب؛ لأنه متعلِّق بالشكر، ومعرفة المُنعم سبحانه وتعالى، وما يستحقُّه من الحمد على ما تفضَّل به على عباده، فقال: «**باب ما جاء في قول الله ـ تعالى ـ**: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾[2]»، المُؤلِّف ساق هذه الترجمة لبيان أن زعم الإنسان استحقاقه ما حصل له من النِّعم إنما هو بقدرته وبذكائه وبعلمه أن هذا منافٍ لكمال التوحيد، وأنه نوع من كفر النعمة، ولهذا قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[3]، أيُّ نعمة يُعطَاها الإنسان، فمصدرها الله الله سبحانه وتعالى، وحده لا شريك له، ويجب عليه أن يشكر هذه النعمة.

والشكر ـ كما قال أهل العلم ـ يحصل بثلاثة أمور:

الأمر الأول: الاعتراف بالقلب، أن تُقرَّ وتعترف بقلبك أن هذه النعمة من الله، ليست من مخلوق، لا من نفسك، ولا من غيرك، فتُقِرُّ وتعترف بقلبك أن هذه النعمة مصدرها الله ـ سبحانه ـ.

الأمر الثاني: الثناء الحسن على المُنعم الذي هو الله عز وجل بلسانك، أن يُثني المسلم بلسانه على الله سبحانه وتعالى، حيث تفضَّل عليه بهذه النِّعم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء- باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل (٣٤٦٤)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٤).

(٢) سورة فصلت: (٥٠).

(٣) سورة النحل: (٥٣).

الأمر الثالث: من لوازم الشكر؛ العمل الصالح بما يُرضي هذا المُنعم، أن تشكره على هذه النعمة بأن تجتهد في عبادته.

فإذا استكمل المسلم هذه الأمور الثلاث؛ فقد شكر الله سبحانه وتعالى على هذه النعم.

ولهذا ذمَّ الله وعاب هذا الرجل أو هذا الشخص الذي لـمَّا أمتن الله عز وجل عليه بالسراء بعد الضراء؛ ماذا قال؟ قال: «هذا لي، وهذا بعلمي، وهذا بقدرتي، وهذا بذكائي، وهذا بتصرفي»، فحاله كحال قارون الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[1]، نسب نعمة المال التي منحه الله عز وجل إياها أنها بسبب علمه وقدرته.

ثم ذكر قول مجاهد: «هذا بعلمي، وأنا محقوق به»، أي: بكسبي وأنا خليق وجدير به، وقال ابن عباس: «يُريد من عندي»، يعني: هذه النعمة حصلت من عندي، من جراء عملي الصرف، **وقوله**: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[2]، **قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب»**، هذا في حق من؟ قارون، لكن يَصْدُقُ على كلِّ مَن شاركه في هذا الأمر، فقارون قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[3]، أي: بمعرفة بوجوه الكسب، وكيف أتاجر، وكيف أبيع، وكيف أشتري، ولم ينسب هذا الفضل إلى المتفضل الحق الذي هو الله عز وجل.

يقول: «وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل»، يقول: «وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف»، أي: لما يعلم الله عز وجل باستحقاقي منحني هذا الأمر، يعني: كأني مستحق هذا الشيء، والله عز وجل علم أني مستحق لهذا الشيء فوهبني هذا الشيء.

يقول: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه..»، ذكر حديث الثلاثة، وهذا من باب الابتلاء من الله عز وجل والامتحان، لهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[4]، فهذا من باب الابتلاء لهؤلاء، فابتلاهم بهذه الأسقام وهذه الأمراض، ثم أزال عنهم هذا المرض ومنحهم هذا المال إلى أن قال: «فأُعطى ناقة عشراء»، والناقة العشراء هي الحامل التي أتى على حملها عشرة أو ثمانية أشهر، ثم ذكر الحديث إلى أن قال: «قد انقطعت بي الحبال في سفري»، أي بمعنى: انقطع بي الطريق، انقطعت بي أسباب المعيشة، هذا الرجل الآن، الله عز وجل

---

(1) سورة القصص: (٧٨).

(2) سورة القصص: (٧٨).

(3) سورة القصص: (٧٨).

(4) سورة الأنبياء: (٣٥).

أرسل لهم المَلك الذي تصور بصورة رجل، وهذا من الخصائص التي أعطاها الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يتصوروا أحيانًا في صور البشر، كما أتوا إلى إبراهيم في صورة الأضياف، وكما جاءوا إلى لوط أيضًا في صورة الرجال، وكان جبريل رضي الله عنه كثيرًا ما يتمثَّل للنبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي، وأتى في حديث عمر بصورة رجل شديد بياض الثياب، شديد السواد الشعر، فالله عز وجل أرسل إلى هؤلاء مَلَكًا في صورة رجل انقطعت به السبل، انقطع به الطريق يُريد أن يمتحنهم ويُظهر ما في قلوبهم، قال: «**بعيرًا أتبلغ به في سفري**»، أتبلغ به، أي: أتوصل به في سفري، فقال: «**الحقوق كثيرة**»، **أي**: الحقوق في مالي كثيرة، لا أستطيع أن أعطيك شيئًا من ذلك، يعني: هناك استحقاقات للناس أو للآخرين عليَّ، فلا استطيع أن أعطيك، وأعطي الآخرين، ثم عرَّفه بنعمة الله عز وجل فعرفها، إلى أن قال في حق الثالث صاحب الغنم، نعم، يقول: «**فخذ ما شئت ودع ما شئت، فو الله لا أَجْهَدُكَ اليوم شيئا أخذته لله عز وجل**»، أي: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه، بمعنى: لا أمنعك، ولا يُمكن أن أعترض عليك أن تأخذ ما تشاء وتدع ما تشاء..

الشاهد من الحديث: على ما ساقه المؤلف تحت هذا الباب أن الله عز وجل ابتلى هؤلاء، وامتحنهم بهذه النِّعم، نعمة الصحة بعد المرض، ونعمة المال بعد الفقر، فالذي اعترف بهذه النعمة، وأقرَّ بأنها من الله عز وجل ابتداءً وانتهاءً؛ جازاه الله عز وجل في الدنيا والآخرة، أبقى له ماله، ونال الدرجات العالية عنده، ومَن جحد نعمة الله عز وجل، جحد نعمته في صحته، وجحد نعمته في ماله؛ ابتلاه الله عز وجل في الدنيا قبل الآخرة، رده على ما كان قبل الصحة، وقبل الغِنى. نعم.

بَابٌ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[1] **الآيَةَ.**

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «**اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ: كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ المُطَّلِبِ**»[2].

---

(١) سورة الأعراف: (١٩٠).

(٢) انظر: «مراتب الإجماع» لابن حزم (ص ١٥٤).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] -في معنى الآية- قَالَ: لِمَا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِّنِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ إِيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ: يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[2] رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ[3].

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: (لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا) قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا[4] وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا[5].

نعم. بدأ هذا؛ انتقل ايضا إلى هذا الباب، وله ارتباط بالباب السابق، وهو باب شكر المُنعم، وأن لا تُقابل هذه النعمة بمعصية الله عز وجل، ومن أشد أنواع المعصية أن تُقابل بماذا؟ بالشرك، سواء كان الشرك اللفظ، أو الاعتقاد، أو العمل.

ذكر قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[6]، ثم ذكر كلام ابن الحزم، الآية سيأتي الكلام عليها في الأثر الذي أورده عن ابن عباس، ولهذا نرجئ الكلام عنها، ننتقل إلى كلام ابن الحزم رحمه الله: «**اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله عز وجل**»، بمعنى: كل ما عُبِّد لغير الله؛ فهو محرم، اتفقوا، أي: أجمعوا، كعبد الكعبة، وعبد النبي، وعبد الحسين، ونحو ذلك، فهذا لا يجوز، لماذا؟ لأن فيها نسبة

---

(١) هو: عبد الله بن عباس البحر أبو العباس الهاشمي حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي، الهاشمي، المكي، الأمير -رضي الله عنه. مولده: بشعب بني هاشم، قبل عام الهجرة بثلاث سنين. صحب النبي صلى الله عليه وسلم نحوًا من ثلاثين شهرًا، وحدث عنه بجملة صالحة. توفي سنة ثمان وستين، وله إحدى وسبعين سنةً. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٠-٣٥٣).

(٢) سورة الأعراف: (١٩٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٣١٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٣٠٧).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٣٠٨).

(٦) سورة الأعراف: (١٩٠).

العبودية لغير الله عز وجل، يقول: «كعبد عمرو، وعبد الكعبة، و ما اشبه ذلك حاشا عبد المطلب»، الإمام ابن حزم رحمه الله قال: إن عبد المطلب مستثنى من هذه الأسماء، من هذا النهي، والصحيح أنه ليس بمستثنى، وما ورد من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»[1]، هذا من باب الخبر، وأيضًا قوله: «يَا بَنِي عَبْد منَاف»[2]، هذا من باب الخبر، ولم يُقر هذا الاسم، ولم يُنقل عنه عليه الصلاة والسلام أنه أقرَّ تعبيدًا لغير الله عز وجل، إضافة إلى أن هناك قول أن عبد المطلب سبب التسمية ليس من باب التعبيد، وإنما من باب الوصف، وذلك أن عبد المطلب نشأ عند أخواله في بني النجار، ثم جاء به جده المطلب، فلما دخل مكة رأوا هذا الغلام الصغير ولا يعرفونه؛ لأنه وُلد عند أخواله، وقد أثر السفر عليه أثرت عليه الشمس فقد أَسْمَرَّ، فقالوا هذا عبد المطلب، وإلا فاسمه شيبة، والشاهد أنه لا يُستثنى من هذا التعبيد أحد، فلا يجوز أن يُعَبَّدَ أحد لغير الله عز وجل.

ثم ذكر أثر ابن عباس في الآية، الآية التي هي ترجمة الباب، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [3]، قال: «لما تغشاها آدم حملت حملًا فأتاهما إبليس، فقال إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة ، لتطيعاني، أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن، ولأفعلن..» إلى آخر الأثر.

قال المؤلف: «وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما»، أثر الحسن رحمه الله أن المقصود بالآية ليس آدم وحواء، ولهذا قال ابن كثير كأن أصله ـ والله أعلم ما أقول ـ أي أثر ابن عباس كأن أصله ـ والله أعلم ـ مأخوذ من أهل الكتاب، وأما نحن فعلى مذهب الحسن في هذا، وأنه ليس المراد في هذا السياق آدم وحواء، فأثر ابن عباس أولًا ضعيف، ثم من ناحية المعنى لا يجوز أن تفسر الآية بأن المقصود بها آدم وحواء، وذلك للأمور التالية:

أولًا: الضعف كما قلنا أنه لم يثبت، وغاية ما في ذلك أنه منقول عن أهل الكتاب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير- باب من قاد دابة غيره في الحرب (٢٨٦٤)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير- باب في غزوة حنين (١٧٧٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك- باب الطواف بعد العصر (١٨٩٤)، والترمذي في كتاب الحج- باب ما جاء في الصلاة بعد العصر وبعد الصبح (٨٦٨)، والنسائي في كتاب المواقيت- باب إباحة الصلاة في الساعات كلها بمكة (٥٨٥)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها- باب ما جاء في الرخصة في الصلاة بمكة (١٢٥٤)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٠٤٥).

(٣) سورة الأعراف: (١٩٠).

الأمر الثاني: أنه لو كان المقصود آدم وحواء، فإما أن يكونا قد ماتا على الشرك؛ لأنهما سمياه عبد الحارث، وهذا مستحيل عقلًا وشرعًا، وإما أن يكونا تابا من ذلك، فلو كانا تابا من ذلك؛ لأخبرنا الله عز وجل عن توبتهما، فقد أخبرنا عن توبتهما في أمر دون ذلك في معصية لـما نهاهما عن أكل الشجرة، فأكلا، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لـم تغفر لنا وترحمنا.. فأخبر أنهما تابا، وتاب الله عز وجل عليهم، فلو ثبت فعلًا أنهما سميا عبد الحارث وأشركا ـ كما جاء في الآية ـ وتابا لأخبرنا الله عز وجل عن ذلك.

الأمر الثالث: أن آدم يوم القيامة في حديث الشفاعة إذا أتاه الناس اعتذر بماذا؟ بأكل الشجرة، فلو ثبت أن هذا مِن فعله؛ لكان هذا أعظم بالاعتذار؛ لقال: إني أشركت مع الله عز وجل، ووقعت في هذا الذنب العظيم.

الأمر الرابع: أن الشيطان ـ ولاحظوا النكارة حتى في اللفظ: ـ أن الشيطان أتاهما فقال إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة!! الشخص الذي يُريد أن يخدع آخر هل يخبره بالخديعة السابقة؟ لا، المفترض أن يأتي بصورة أخرى ويُلبِّس عليه أنه ناصح؛ لأنه يعلم أنه لو أخبره بذلك؛ لتحرز منه؛ لأن آدم عليه السلام لا يُمكن عقلا أن يعلم أن هذا إبليس وهو الذي أخرجهما من الجنة، ثم يأتي ويأمرهما بأمر آخر ويطيعانه.

الأمر الخامس: قول الله عز وجل: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ [1]، لو كان المقصود آدم وحواء؛ لقال: «فتعالى عما يشركان».

إذن؛ ما المراد بالآية؟ قال أهل العلم المراد بالآية من نفس واحدة أي من جنس واحد هذا المقصود، ومنه قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [2]، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [3]، فالمقصود من جنسهم، أو يكون المقصود من العين إلى النوع أي أصل العين آدم وحواء، ولكن الذي وقع منه الشرك الذرية والأبناء، فانتقل من العين إلى النوع. واضح؟

منه أيضًا قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [4] الذي خلقه الله عز وجل وصوره من؟ آدم، ومع هذا كان الخطاب للعموم..

---

(١) سورة الأعراف: (١٩٠).

(٢) سورة التوبة: (١٢٨).

(٣) سورة آل عمران: (١٦٤).

(٤) سورة الأعراف: (١١).

فالقول الصحيح في هذه الآية: أنها ليست لآدم وحواء، وإنما في ذريتهما، وما نُقل من هذه الرواية عن ابن عباس فهي ضعيفة، والقول الراجح هو ما ذهب إليه الحسن في تفسيره، **الشاهد من ذلك**: أنه لا يجوز أن يُعبَّد الاسم لغير الله عز وجل، وأيضًا ليس من شكر الله عز وجل في نعمه أن تُقابل بالمعصية، كيف إذا كان هذه المعصية شركٌ سواء كان في اللفظ، أو في الاعتقاد، أو في العمل؟! نعم.

بَابٌ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[1] **الآيَةَ.**

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[2] **﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يُشْرِكُونَ وَعَنْهُ سَمَّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ»**[3].

وَعَنِ الأَعْمَشِ[4] **«يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا»**[5].

نعم، بعد ذلك انتقل المؤلف رحمه الله إلى مسألة التوسل، ولاحظوا الآن انتقل من الشرك الأكبر، ثم الشرك الأصغر، ثم شرك الألفاظ، ثم الآن ما يتعلَّق بالتوسل، فذكر أنه لا يجوز أن يتوسل بذات الأموات، ولا بجاههم،

---

(١) سورة الأعراف: (١٨٠).

(٢) هو: عبد الله بن عباس البحر أبو العباس الهاشمي حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي، الهاشمي، المكي، الأمير -رضي الله عنه. مولده: بشعب بني هاشم، قبل عام الهجرة بثلاث سنين. صحب النبي صلى الله عليه وسلم نحوًا من ثلاثين شهرًا، وحدث عنه بجملة صالحة. توفي سنة ثمان وستين، وله إحدى وسبعين سنةً. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٠-٣٥٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٩٢).

(٤) الأعمش سليمان بن مهران الكاهلي، الإمام، شيخ الإسلام، شيخ المقرئين والمحدثين، أبو محمد الأسدي، الكاهلي مولاهم، الكوفي، الحافظ. أصله: من نواحي الري. قيل: ولد بقرية أمه من أعمال طبرستان، في سنة إحدى وستين، وقدموا به إلى الكوفة طفلًا. وقيل: حملًا. قد رأى أنس بن مالك، وحكى عنه.وكان مع إمامته مدلسًا. قرأ عليه: حمزة الزيات، وزائدة بن قدامة. وقرأ الكسائي على زائدة بحروف الأعمش. قال سفيان بن عيينة: كان الأعمش أقرأهم لكتاب الله، وأحفظهم للحديث، وأعلمهم بالفرائض. وقال يحيى القطان: هو علامة الإسلام. قال وكيع بن الجراح: كان الأعمش قريبًا من سبعين سنةً لم تفته التكبيرة الأولى. وقال عبد الله الخريبي: ما خلف الأعمش أعبد منه. مات سنة ثمان وأربعين ومائة، بالكوفة. انظر: تهذيب الكمال (١٢/ ٧٦) التاريخ الكبير (٤/ ٣٧) تذكرة الحفاظ (١/ ١٥٤).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٩٢).

ولا بمكانتهم ، كما كان منتشرًا، ولازال موجودًا وللأسف، وإنما المؤمن مطلوب منه أن يتوسل بأسماء الله وصفاته.

والتوسل يا أخوان هو التوسل للمطلوب، والتقرب إلى المطلوب، ولذا الوسيلة هي التي تُوصل إلى الشيء المطلوب، ولذلك سُمى الحبل الذي يُمسك بالدلو سمى وسيلة؛ لأنه يُتوصل به إلى الناقة، كذلك لازال هذا اللفظ موجودًا الآن، وسائل النقل، بمعنى: هي التي تُوصل إلى المطلوب، والتوسل لا يجوز إلا بثلاثة أمور، احفظ هذه الثلاثة أمور، وما عداها فهو توسل بِدْعِيٌّ، أيًّا كان هذا التوسل:

النوع الأول: ما ذكره المؤلف، وهو التوسل إلى الله عز وجل بأسمائه وصفاته ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، هنا توسل إلى الله عز وجل بالرحمة، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم برحمتك أستغيث»[2]، فتوسل إلى الله بالرحمة، يا غفور اغفر لي، يا رحيم ارحمني، يا ودود، يا كريم، يا عليم تجاوز عني، والدليل على هذا النوع هذه الآية التي ذكرها المؤلف: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ توسلوا إلى الله بها.

النوع الثاني: التوسل إلى الله عز وجل بالعمل الصالح الذي قام به الداعي أن يتوسل الإنسان إلى ربه بعمل صالح قام به ، ببره لوالديه، بحجه، بقيامه لله عز وجل بقيام الليل، قال في سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [3]، توسلوا إلى الله عز وجل بإيمانهم وباتباعهم للرسول، أيضًا من أصرح ما يُستدل به في هذا المقام الحديث الذي في «صحيح البخاري»، حديث الثلاثة الذي انطبقت عليهم الصخرة[4].

النوع الثالث من التوسل المشروع: التوسل إلى الله عز وجل بدعاء صالحي الأحياء، كأن يرى الإنسان في نفسه ضعفًا، ويرى من أحد أخوانه أو من أحد الصالحين حالة أو وضعًا يكون مظنة الإجابة، كإنسان مثلًا مسافر

---

(١) سورة النمل: (١٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (٣٥٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٨٢) بلفظ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ».

(٣) سورة آل عمران: (٥٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المزارعة- باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم وكان في ذلك صلاح لهم (٢٣٣٣)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٢٧٤٣).

إلى الحج فيطلب منه الدعاء، يستدل أهل العلم على ذلك بما ثبت في الصحيح من استسقاء عمر بماذا؟ بالعباس[1]، في عام الرمادة «قم يا عباس فادعوا الله عز وجل»، أيضًا يستدلون عليه بحديث عمر حديث أُويس القرني، لما قال صلى الله عليه وسلم: «يأتي وفد اليمن»، في آخر الحديث قال لعمر: «فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يدعوَ لك فلا تبخل» (يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَل)(ليس من كلام الشيخ) [2]، ولهذا كان عمر يسأل عن الوفود في اليمن، وسأل عن أُويس، وتأكد أن هذا أويسًا، وطلب منه الدعاء.

أيضًا يستدل البعض عليه بحديث عمر ـ وإن كان فيه ضعف، والبعض يُحسنه ـ لما أراد أن يعتمر، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَنْسَانَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ»[3].

وهذه المسألة أيضًا مسألة خلافية في قضية الطلب من الآخرين الدعاء، فالقول الوسط في هذا، منهم من منعه بإطلاق، ومنهم من أجازه بإطلاق بناء على هذه الأدلة، ومنهم من منعه بإطلاق بحديث بايعنا الرسول صلى الله عليه وسلم «أن لا نسأل الناس شيئًا»[4]، والقول الوسط: أنه لا يُمنع بإطلاق، ولا يُؤذن فيه بإطلاق، الكمال أن الإنسان يعتمد على الله عز وجل، ويدعوا الله عز وجل، ولا يسأل الناس، لكن إذا رأى من نفسه ضعف، ورأى من أحد إخوانه مظنة إجابة في الدعاء، فلا مانع أن يطلب منه كأمر عارض، لا يكون ديدنه مع كل شخص.

ماعدا هذه التوسلات الثلاثة، كلها تُعتبر توسلات بدعية، كالتوسل بجاه فلان، أو بمكانة فلان، أو بحق فلان، بجاه النبي صلى الله عليه وسلم بحق النبي صلى الله عليه وسلم.

طيب لو قال قائل وهذا أعظم ما يُستدل به على التوسل البدعي، توسل العباس، أو توسل عمر دليل على التوسل بالجاه؛ لأنه توسل بجاه العباس فالرد عمر قام عام الرماد خطب الناس ، ثم قال: «إنا كنا نتوسل بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك»[5]، قالوا: الآن عمر يتوسل بجاه العباس بقربه من النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (١٠١٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل أويس القرني- رضي الله عنه- (٢٥٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب الدعاء (١٤٩٨)، والترمذي في كتاب الدعوات- باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم (٣٥٦٢)، وابن ماجه في كتاب المناسك- باب فضل دعاء الحاج (٢٨٩٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود»، وقال: «ضعيف».

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة- باب كراهية المسألة للناس (١٠٤٣) بلفظ: «أَلَّا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا».

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (١٠١٠).

من آل البيت وعم النبي صلى الله عليه وسلم.

فالجواب، نقول: هذا الدليل عليكم لا لكم، فعمر لـم يتوسل بجاه العباس؛ إذ لو كان التوسل بالجاه جائزًا؛ لتوسل عمر والصحابة بجاه النبي صلى الله عليه وسلم، وجاه النبي صلى الله عليه وسلم لا ينقطع بموته، ولهـذا لـما كان حيًّا ـ كما في «صحيح البخاري» من حديث أنس ـ دخل الرجل عليه يوم الجمعة وطلب منه أن يدعوا لهم أن يغيثهم الله عز وجل، ولما تُوفي عليه الصلاة والسلام لـم يُنقل عن أحد من الصحابة من أولهم إلى أخرهم أنهم ذهبوا إلى قبره وطلبوا منه الدعاء، أو توسلوا بجاهه و مكانته ، حديث عمر دليل على أنه لو كان التوسل بالجـاه؛ لتوسلوا بجاه النبي صلى الله عليه وسلم، كيف يلجؤون لجاه العباس، ويتركون جاه النبي صلى الله عليه وسـلم، جاه العباس من أين أتى؟ من قربه للنبي صلى الله عليه وسلم، أترك الأصل وأذهب إلى الفرع؟

الأمر الآخر في حديث معاوية قال في هذا التفسير: «قم يا عباس؛ فـادعوا الله»، فـدلَّ عـلى أن التوسـل هنـا المقصود به ماذا؟ الدعاء وليس الجاه. نعم.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْـحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[1]، الحسنى، أي: التي بلغت الكمال في الحسن والجـمال، ولهـذا قلنا جميع أسماء الله تعالى حسنى، ولم يقل حسنة، لماذا؟ فرق بين الحسنى والحسنة، لما أقول هذه الحديقة ـ ولله المثل الأعلى ـ لـما أقول هذه الحديقة حسنة بمعنى أنها جميلة وجيده، لكن لا يمنع أن يكون هناك أحسن منها، ولكن إذا قلت هذه الحديقة حسنى معناه بلغت الكمال في الجمال، قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْـحُسْنَى﴾، أي: بلغت الغاية في الكمال والجمال، ولهذا السبب قلنا إن الله لا يُسمى بالدهر؛ لأنه لا يدل على الحسن، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها دعاء مسأله و دعاء عبادة، دعاء مسألة أن نتوسل إلى الله عز وجل بالأسماء الحسنى، ودعاء العبادة أن نتعبده سبحانه وتعالى بها، نتعبَّده بإثباتها، نتعبَّده بالإيمان بها، نتعبَّده بإحصائها، نتعبَّده بالعمل بمقتضاها، فالعليم يدل على ماذا؟ العلم، فإذا كنتُ أعتقد واعترفُ أن الله عز وجل عالـم بكل شيء، وأنه يعلم ما كان، وما يكـون، وما لـم يكن لو كان كيف يكون.

إذن؛ لابد أن أعمل بمقتضى هذا الشيء، إذا كنت اعتقد أن الله سميع، بمعنى: يسمع دبيب النملـة السـوداء على الصخرة السوداء في ظلمة الليل؛ فلا يمكن أن أتكلم بما لا يريده سبحانه وتعالى، إذا كنتُ أيضًا أعتقد أن الله

---

(١) سورة الأعراف: (١٨٠).

بصير، أي: مطلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية، فلا يمكن أن أعمل بعمل لا يريده الله عز وجل مني وهو يُبصرني، بل أكن مع الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في مرتبة الإحسان: «أن تعبده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، هذا معنى أن ندعوه بها، بمعنى أن نتعبَّده بها سبحانه وتعالى، أن ندعوه دعاء مسألة، يا سميع، يا غفور، يا دود، يا كريم اغفر لنا، وأن ندعوه بها دعاء عبادة.

﴿وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾[2]، الإلحاد هو الميل، والإلحاد في أسماء الله عز وجل العدول بها عن حقائقها التي أراد الله عز وجل، كما ذكر ابن القيم.

*** وذكر صورًا من هذا الإلحاد، منها قال:**

ـ تسمية المخلوق بشيء من أسماء الله عز وجل كما صنع اليهود لما اشتقوا من اللات الذي هو الاله من اسم الله عز وجل الإله اللات، فهذا صور من صور الإلحاد بأسمائه، من صور الإلحاد بأسماء الله عز وجل أن يُسمَّى الله عز وجل بتسمية المخلوق كما سماه النصارى الابن، وكما سماه الفلاسفة بالعلة، والعاشق، والمعشوق، تعالى الله عن ذلك.

*** ومن صور الإلحاد بأسماء الله عز وجل كما ذكر ابن القيم:**

ـ أن تجرد من معانيها، بمعنى أن يعتقد ـ كما ذكر الجهمية والمعتزلة ـ أنها أعلام محضة لا تدل على صفات ومعان.

*** ومن صور الإلحاد أيضًا:**

ـ تشبيه أسمائه بأسماء المخلوقين.

*** ومن صور الإلحاد أيضًا:**

ـ تعطيل الرب عنها سبحانه وتعالى كما صنع الجهمية.

وعلى كل حال؛ فكل من عدل بأسماء الله عز وجل وصفاته عن حقائقها التي أراد الله في كتابه؛ فيعتبر هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ... (٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

(٢) سورة الأعراف: (١٨٠).

صورًا من صور الإلحاد في ذلك.

يقول: «ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يُشْرِكُونَ وَعَنْهُ سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ».

وَعَنِ الأَعْمَشِ «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».

أي: من صور الإلحاد في ذلك ما ذكره ابن عباس والأعمش، نعم.

بابٌ: لَا يُقَالُ السَّلَامُ عَلَى الله

فِي «الصَّحِيحِ»: «عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ: قُلْنَا السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَام عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا السَّلَام عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»[2].

نعم، أيضًا من الأمور المتعلقة باللفظ التي لها علاقة بجناب التوحيد مسألة السلام على الله، وذلك أن حقيقة السلام هي السلامة، والبراءة، والخلاص، والنجاة من الشرور والعيوب، فالله عز وجل هو المطلوب، وليس المطلوب له، وهو المسئول، وليس المسئول له، ولما كان السلام على الله عز وجل يُوهم هذا النقص، وهو أنه يحتاج إلى السلامة من النقائص والعيوب، ويتنافى مع كماله المطلق، الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[3]، أي: الكمال المطلق، لما كان هذا موهمًا؛ جاء هذا الحديث، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال والحديث في «صحيح البخاري»، قال: (كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ: قُلْنَا السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَام عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ)، جاءت أيضًا مقيدة في رواية أخرى أن المقصود في رواية البخاري: «السَّلَامُ عَلَى جِبْرَائِيلَ، السَّلَامُ

---

(١) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي. من أكابرهم، فضلًا وعقلًا، وقربًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. نظر إليه عمر يومًا وقال: وعاء ملئ علمًا. وولي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيت مال الكوفة. ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاما سنة ٣٢هـ. (تهذيب الكمال: ١٦/ ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب من سمى قومًا أو سلم في الصلاة على غيره (١٢٠٢)، ومسلم في كتاب الصلاة- باب التشهد في الصلاة (٤٠٢).

(٣) سورة النحل: (٦٠).

عَلَى مِيكَائِيلَ»[1]، فلان وفلان المقصود بهما: جبرائيل وميكائيل، يقول فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**لَا تَقُولُوا السَّلَام عَلَى الله فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**)، ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استغفر قال بعد صلاته: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ»[2]، قالت خديجة رضي الله عنها: «اللهَ هُوَ السَّلَامُ»[3]، الله عز وجل هو السلام وهو الذي يمنح السلام، وهو الذي يُؤخذ منه السلام، فلا يُطلب له السلام، فمن باب الأدب مع الله عز وجل، ومن باب تعظيم الله عز وجل، ومن باب كمال جناب التوحيد؛ فلا يجوز أن يقول القائل: «السلام على الله»، نعم.

بَابٌ: قَوْلُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ: فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ»[4].

وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمْ الرَّغْبَةَ: فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»[5].

نعم. أيضًا من المسائل المتعلقة بالألقاب ولها علاقة مباشرة في جناب التوحيد وحماية هذا الجناب: قول الرجل: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ**)، بمعنى أن يُعلِّق الدعاء على ماذا؟ على المشيئة، **والسبب في ذلك أنه يُشعِر بأمرين:**

الأمر الأول: أن الله عز وجل قد يكون له أو يفعل الشيء مُكرهًا، وهذا في قول يا رب اغفر لي إن شئت، يعني كأنه ربما تغفر لي وأنت مكره ، لكن لا انا اجعل الحرية لك، تعالى الله عن ذلك، وهذا يقدح في جناب التوحيد.

الأمر الثاني: قدح آخر في جناب التوحيد، وهو عدم الإيقان بالإجابة، سُوء ظن بالله عز وجل، عدم الاكتراث

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب من سمى قومًا أو سلم في الصلاة على غيره (١٢٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١) كتاب المساجد- باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته.

(٣) أخرجه النسائي في «سننه الكبرى» (٨٣٥٩)، (١٠٢٠٦)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٣٧٤)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٣/ ٢٠٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات- باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (٦٣٣٩)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء- باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت (٢٦٧٩).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء- باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت (٢٦٧٩).

بفضل الله عز وجل عليه، يعني: غفرت لي أو لـم تغفر سواء، إن شئت فاغفر لي وإن شئت لم تغفر، ذكر حـديث مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ اللَّهُـمَّ اغْفِـرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ: فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ).

القرطبي يقول: «نهى عن هذا القول؛ لأنه يدل على قصور الرغبة، وقله الاهتمام»، والله عز وجل مطلوب من المؤمن أن يعزم معه المسألة، لماذا؟ لكمال فضله جل وعلا، وعِظم سلطانه، ولهذا جاء في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ .. »، من آدم إلى قيام الساعة، الإنس والجـن، «قَـامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي»، كل إنسان سأل ما شاء، «فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِـكَ مِـنْ مُلْكِـي إِلَّا كَـمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»[1]، هل يؤثر هذا المخيط في البحر إذن ملك الله عز وجل وسلطانه وفضله لا حـدَّ له، فمن كمال فضله وملكه أن يسأل الإنسان ربه سؤال الجهد، وأما إن سأله وعلَّق ذلك بالمشيئة فإنه لا يخلو الأمر إما أن هذا يُشعر بأن الله له مُكرهٌ أنه ربما يفعل الشيء كُرهًا، كما هو الحال في واقع من؟ البشر، أنك تأتي إلى ملك أو أمير، وتطلب منه عطية، وتقول له: إن شئت، أي لك الحرية، يعني كأني لا أجبرك على هذا الأمر؛ لأنه احتمال أن تعطيني هذا الشيء وأنت مكره، هذا أمر.

إذن؛ نهينا عن هذا اللفظ؛ لأنه أولًا مُشعر بأن الله عز وجل له مكره.

الأمر الثاني: أنه يُشعر أيضًا أن هذا الأمر الذي طلبه العبد أمر عظيم ربما يستعظمه الله عز وجل، فقد يشاؤه لكنه عظيم، والله عز وجل لا يستعظم شيئًا أعطاه لخلقه.

الأمر الثالث: أنه يُشعر أيضًا أن العبد يُمكن أن يستغني عن الله عز وجل، يعني لست بصاحب تلك الحاجة الشديدة.

طيب؛ قد يقول قائل: ألا يعارض هذا حديث الاستخارة، «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر، ولا أقدر، وأنت علام الغيوب، إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؛ فاقدره لي ويسره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني..»[2]،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات- باب الدعاء عند الاستخارة (٦٣٨٢).

طيب ألا يقول قائل: هذا فيه معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**لا تقل اللهم اغفر لي إن شئت**)، أو لا؟.

الصحيح أنه لا تعارض بين هذا الحديث وحديث الاستخارة، وذلك أن هذا أنت الآن تخاطب الله عز وجل، اللهم أغفر لي متعلق بالله عز وجل أما الاستخارة فأنت تخاطب الله عز وجل بأمر غائب عنك تقول أنا لا أدري ما الشيء الذي ستقدره علي.. واضح، واسألك أن تقدر عليَّ الشيء الذي له صلاح في ديني وآخرتي فالأمر ليس فيه تردد وشك في المسألة، وإنما فيه أن المخلوق لا يعلم عاقبة أمره، ولهذا يسأل الله عز وجل أن يوفقه لما فيه الخير، نعم.

بَابٌ: لَا يَقُالُ عَبْدِي وَأَمَتِي

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي»(١).

نعم أيضًا من المسائل التي لها علاقة بجناب التوحيد ومتعلقة بالألفاظ، قول الرجل: «عبدي وأمتي»، ولهذا قال الشيخ: (**بَابٌ: لَا يَقُولُ عَبْدِي وَأَمَتِي**)، وأقل مراتب هذا النهي، أقل أحواله الكراهة لماذا؟ لما في ذلك من إيهام المشاركة مع الله عز وجل، والإنسان مرهون ومتعبد بالإخلاص لله تعالى، ليس عبدًا للعبيد، ولهذا أشرف المقامات وأعلى المقامات التي يتصف بها العبد أن يكون عبدًا لله عز وجل، فهذه أعلى درجات العبودية، وقد وصف الله سبحانه وتعالى رسوله بهذا الوصف في أعظم المقامات التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ..﴾، ما قال برسوله، ولا قال بنبيه، ﴿بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾(٢)، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾(٣)، ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ..﴾(٤)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العتق- باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي (٢٥٥٢)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأداب وغيرها- باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٢٢٤٩).

(٢) سورة الإسراء: (١).

(٣) سورة الجن: (١٩).

(٤) سورة الكهف: (١).

(٥) سورة الفرقان: (١).

ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ»[1]، فمدام هذه العبودية أمر متعبد الإنسان به، فنهي المسلم أن يأتي باللفظ الذي يُشعر مشاركة الله عز وجل في هذا، وهو قول: «عبدي وأمتي»، يقول: (في «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ»)، النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اللفظ، وأرشد إلى البديل، لا يقل: أطعم ربك وضئ ربك ؛ لما في هذا من سوء الأدب مع الله، هذا اللفظ الآن يُشعر بمقام الربوبية لله سبحانه وتعالى، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتأدب حتى في اللفظ، وإن كان في الواقع الرب هو المالك، أو لا؟ وإلا رب الدابة من؟ مالكها، رب البيت من؟ مالكه، رب هذا العبد؟ مالكه، هو فعلًا مالكه، ولكن من باب التأدب حتى في اللفظ، (وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي).

أهل العلم قالوا إذا أضيف هذا العبد لغير المتكلم؛ جاز، مثل عبد فلان، وليس بهذا ما يُشعر بالمشاركة، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾[2]، إنما النهي هنا عبدي وأمتي لما فيها من إشعار المشاركة، يعني: مشاركة الله عز وجل في هذا الأمر.

على كل حال هذه الألفاظ مما أُمر المسلم أن يتأدب فيها، وإن كان لا يقصد ذلك، كما قلنا إن كثيرًا من هذه الأبواب والمسائل التي ذكرناها هي ما يجري على اللسان، وإنما لو قصد الإنسان المعنى؛ لانتقل إلى الشرك الأكبر، تدَّعي أن هناك عبودية أحد من البشر لك، هذا هو الشرك الأكبر، ولكن هذا مما يجري على اللسان من الألفاظ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يحمي جناب التوحيد من جميع الجهات، حتى ما يجري على اللسان، نعم.

بَابٌ: لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَأَلَ بِاللهِ: فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ: فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ: وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ: فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[3] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٣٤٤٥).

(٢) سورة النور: (٣٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة- باب عطية من سأل بالله (١٦٧٢)، والنسائي في كتاب الزكاة- باب من سأل بالله عز وجل (٢٥٦٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢١).

نعم، أيضًا من مكملات التوحيد، تعظيم الله عز وجل، ومن تعظيم الله عز وجل أن الإنسان إذا سئل به سبحانه وتعالى أن يُعطى هذا السائل، لا لأجل السائل، وانما من أجل المسئول به، وهو الله سبحانه وتعالى؛ لذلك أورد المؤلف هذه المسألة في كتابه، أن من مكملات التوحيد، ومن متممات التوحيد أن يُعظم الله عز وجل، ومن تعظيم الله عز وجل أنه إذا سئل به سبحانه وتعالى أن نبادر ونعطي تعظيمًا لله، ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استعاذ بالله؛ فأعيذوه»، يعني: قال: «أعوذ بالله منك»، أو «أعوذ بالله من شر فلان»، فيجب أن يُمنع الشر عنه، وأن يُكف هذا العدو عنه، لماذا؟ لأنه استعاذ بالله عز وجل، لكن لو قالها معتدٍ، فهل يُعاذ؟ إنسان اعتدى على آخر، ثم قال أعوذ بالله منك! هل يُعاذ؟

الجواب: لا، ولهذا لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتل بعض كفار قريش حتى وإن لاذوا وعاذوا بالبيت، عِلمًا أن البيت لا يدخله إلا آمن، فقال: «ومن دخل البيت فهو آمن»، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، لكن قال إذا وجدتم فلان وإن كان متعلقًا، بأستار الكعبة؛ فاقتلوه، كما حصل من ابن خطل ، فقتلوه، وهو متعلِّق بأستار الكعبة هذه حالة استثنائية، فهنا مَن استعاذ بالله عز وجل لكن ليس عليه حق للآخرين، سواء كان حقَّ مال، أو حقَّ دم، (**مَنْ سَأَلَ بِاللهِ: فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ: فَأَعِيذُوهُ**)، جاء هذا مفسرًا وهو السؤال بوجه الله عز وجل، (**مَنْ سَأَلَ بِاللهِ: فَأَعْطُوهُ**)، تعظيمًا لله عز وجل، ولهذا قال أهل العلم: إذا علم الشخص أن المسئول لن يجيبه إلى سؤاله؛ فيُكره في حقِّه أن يسألَه بالله سبحانه وتعالى؛ لأنك انت المتسبب فعلًا في كون هذا الشخص ما عظَّم الله عز وجل، ولهذا لا تسأل بالله، أو بوجه الله سبحانه وتعالى على وجه الخصوص إلَّا مَن عَلِمتَ أنَّه يعلم أن تعظيم الله يقتضي أن يُجيب سُؤْلَك، أيضًا كره أهل العلم أن لا يُسأل بوجه الله عز وجل أو يُسأل بالله عز وجل أمر يعرف أن فيه أيضًا إرهاق للمسؤول، فهو يكون بين نارين، إما أن يغفل عظمة الله عز وجل ولا يُجيب هذا السائل، وإما أن يُجيبه كارهًا وعليه بذلك كلفة.

ثم قال: (**وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ**)، هنا الدعوة اعم من دعوة العرس، وجاء في بعض الأحاديث مُقيدة ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجابة دعوة الوليمة، ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب إجابة الدعوة إذا لم يكن ثمة هناك مانع..

هنا الحديث على عمومه: (**وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ**)، ولهذا حملها بعض أهل العلم عموم الدعوة، وأنه يجب

دعوة إجابة المسلم إذا لـم يكن ثمة ما يمنع.

قال: «ومن صنع إليكم معروفًا؛ فكافئوه»، وهذا من باب رد الجميل، وله مَلْحظٌ آخر، وهو أن لا يبقى على الإنسان متفضل حقيقة إلَّا الله عز وجل، ولهذا ينبغي أن لا تجعل لأحد من الخلق عليك فضلًا، حتى مَن صنع إليك معروفًا، فحاول أن تكافئه، وترد جميله، (**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا**)، إنسان لا يجد من يكافئه، (**فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**)، وبهذا يكون المسلم فعلًا استحضر أن الفضل من الله وحده، حتى ما أجراه الله عز وجل على يد العباد من الخير لك أيضًا أنا سأرده وسأكافئهم على هذا الأمر، سواء عينًا أو دعاء، فتفنى حقوق العباد، ويبقى حق رب العباد، فيذكر فضل الله عز وجل المؤمن في كل وقت وفي كل حين، نعم.

بَابٌ: لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ(١) **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ»**(٢) **رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.**

نعم، أيضًا من باب تعظيم الله عز وجل، كما قلنا من مكملات التوحيد، ومن لوازم التوحيد أن يُعظَّم الله عز وجل، أن يُعرَفَ له قدره جل وعز، ومن تعظيمه ألَّا يُسأل بوجهه إلا ما هو عظيم، وهذا العظيم هو الجنة، ألَّا يُسأل بوجه الله عز وجل أمور الدنيا؛ لأنه لابد أن يكون هناك تناسب بين السؤال والمسئول به، فالنبي صلى الله عليه وسلم أوضح هنا أنه لا يُسأل بوجه الله بعظمة الله عز وجل، ومنزلة الله عز وجل إلَّا الجنة، وهذا من باب الإجلال والإكرام والإعظام له سبحانه وتعالى.

***

(١) هو: الصحابي الجليل جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن، الأنصاري، الخزرجي، السلمي، المدني، الفقيه، الإمام، الكبير، المجتهد، الحافظ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان مفتي المدينة في زمانه. شهد ليلة العقبة مع والده، وأطاع أباه يوم أحد، وقعد لأجل أخواته، ثم شهد الخندق وبيعة الشجرة، وقد ورد أنه شهد بدرًا. شاخ، وذهب بصره، وقارب التسعين. توفي بالمدينة سنة أربع وتسعين، وقيل: سنة سبع وتسعين. انظر: الاستيعاب (١/ ١١٤ ترجمة ٢٩٦)، وأسد الغابة (١/ ٤٩٢ ترجمة ٦٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة- باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى (١٦٧١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٠٦)، وقال: «ضعيف».